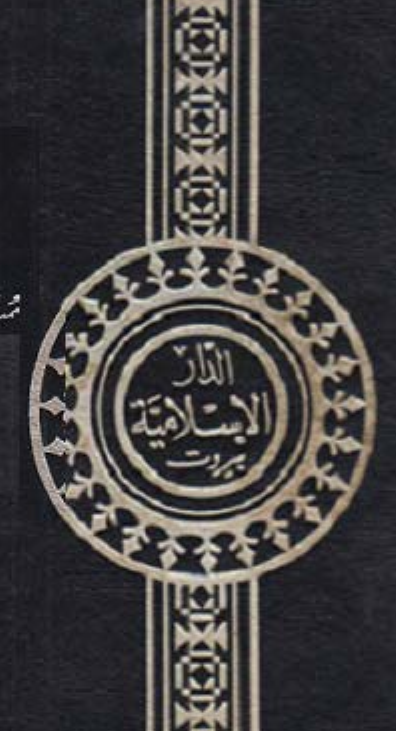
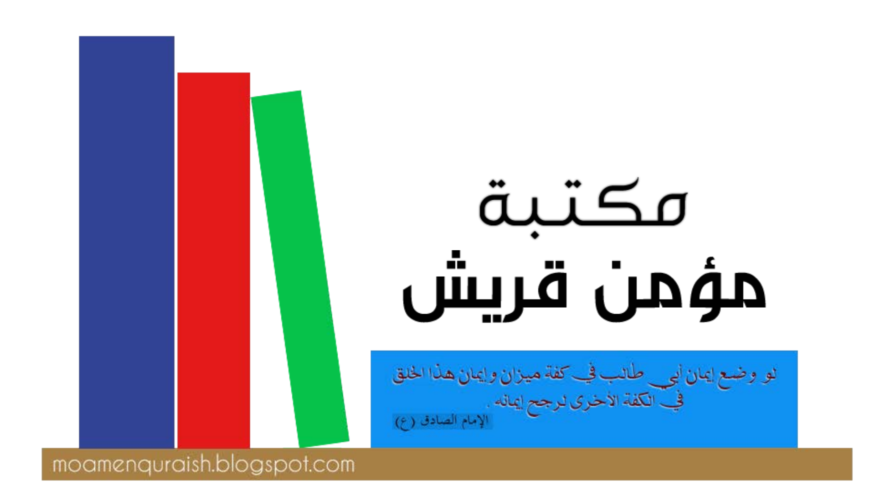
دروس في التفسير

تحتوي على موضوعات أدبية ولطائف عرفانية

ألقاها في مؤسسة الشهيد بدمشق
سماحة حجة الإسلام والمسلمين
السيد أحمد الفهري
ممثل الإمام الخميني دام ظله في سورية ولبنان



السيد أحمد الفهري
دروس في التفسير ٢
الدار الإسلامية


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


دروس في التفسير

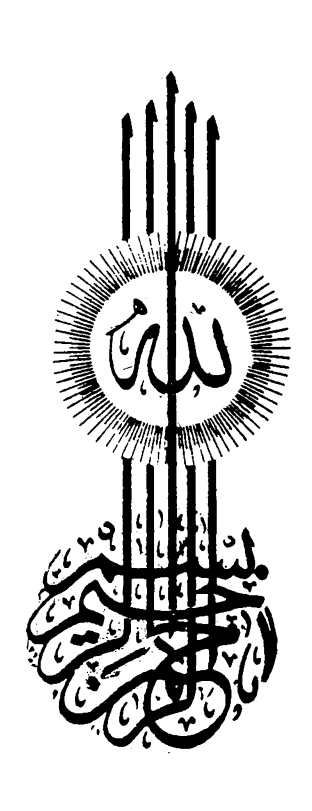
٢

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



كورنيش المزرعة / بناية الحسن سنتر / الطابق الثاني
هاتف/٨١٦٦٢٧ / ص.ب / ١٤/٥٦٨٠
فرع حارة حريك . مفرق الخلبادي


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

بســم الله الرحمن الرحيم

بدأت مسيرة التفسير مع نزول القرآن الكريم وكان رائدها والأستاذ الأعظم في مدرستها الرسول الأكرم ـ عليه وآله أفضل الصلاة والتسليم ـ **﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾** .

ولم يكن الرسول (ص) معلماً للقرآن ومفسّراً فحسب بل كان قرآناً مجسداً .

وتبعه أخوه ووصيّه الإمام علي (ع) في مسيرته هذه فكان صدر المفسرين والقرآن الناطق .

وحذا حذوه الأئمة ـ عليهم السلام ـ .

وعلى مدى التاريخ تخرج من هذه المدرسة العظيمة تلامذة نجباء أتحفوا عالم التفسير بموسوعاتهم من صاحب التبيان إلى صاحب الميزان ـ قدس الله أرواحهم ـ .

ولكن عالم التفسير لم يزل يزداد رحابة ويتّسع للجديد لأن جدّته

من جدّة القرآن الذي لا يبليه الزمان .

وهذا الكتاب الذي بين يدي القارىء هو الحلقة الثانية من سلسلة دروس التفسير التي ألقاها العلامة السيد الفهري في مؤسسة الشهيد بدمشق وهي كسابقتها تتناول قصار السور في القرآن تناولاً رشيقاً في أسلوبه غنياً في مضمونه يدقق الجانب اللغوي ويجتهد فيه ويشفعه بملاحظات أدبية وبلاغية ولفتات منطقية وفلسفية وأصولية . ويلم بالروايات المأثورة في المقام من أهل بيت العصمة ـ عليهم السلام ـ وفي الدروس نقاش لآراء المفسّرين لا سيما الأفذاذ منهم كالسيد الطباطبائي ـ قده ـ .

وترصعها بين حين وآخر قبسات من كلام أستاذ العرفان ورائد ثورة الإسلام في هذا الزمان الإمام الخميني ـ مدّ ظله ـ .

وإلى ذلك كله نجد أبحاثاً خلقية وتربوية كالبحث الصافي الشافي في تزكية النفس في تفسير الآية الشريفة ﴿ **قد أفلح من زكّها** ﴾ .

فنسئل الله أن يوفق العلاّمة السيد الفهري إلى أن يردف هذه الحلقة بحلقات وحلقات وأن ينفع بها المتعطشين إلى مناهل كتابه المبين إنه سميع مجيب .



سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * والشَّفْعِ وَالوَتْرِ * واللَّيْلِ إذا يَسْرِ * هَلْ في ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ * فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ اليَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً * كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفّاً صَفّاً * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ * يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ * إِرْجِعِي إِلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .

صدق الله العلي العظيم

اختلف المفسرون في تفسير أقسام هذه السورة بما لم يختلفوا بمثله في غيرها من الأقسام . قال الميبدي في تفسيره :

﴿ والفجــر ﴾ وقت انفجـار الصبــح والمـراد بــه النهـار كله كقــولـه : ﴿ والضحى ﴾ وقيل فجره الله لعباده فجراً أي أظهره في أفق السماء في المشـرق مبشراً بإدبار الليل المظلم وإقبال النهار المضيء وابتداء يوم من الأيام وهمـا فجران مستطير وهو المحرم للأكل والشرب في رمضان ومستطيل وهـو الذي قبله كـذنب السرحان ولا يتعلق به حكم .

وقيل معنى الفجر انفجار الماء من العيون والنَّبات من الأرض وقيـل انفجار الماء من أصابـع رسول الله (ص) يـوم الطائف وقيـل انفجار النـاقة من الصخـرة لصالح (ع) فعلى قول من يقول الفجـر : شق عمود الصبـح اختلفوا في أنـه أي فجر فقال قـوم بالعمـوم وأنه فجـر كل يـوم إلى انقضاء الـدنيا وهـو قول القـرظي وخصّ الآخـرون فقالـوا هو فجـر أول يوم من المحـرم تنفجـر عنـه السنـة وقـال الضحاك هو فجر أول ذي الحجة لأن الله تعالى قرن الأيـام به وقـال مقاتـل فجر كل جمعة في كل سنة وقيل هو فجر يوم النحر . انتهى .

وقيـل غير ذلـك كانفجـار الماء من الحجـر لموسى (ع) ﴿ فقلنـا اضـرب بعصاك . . . فانفجرت منه اثنتا عشر عينا ﴾ وقيل انفجـار المطر من السحـاب ، وقيل انفجار الدموع من عيون المذنبين ، وأكثر ما قيل وجوه ردّية .

أقول : لقدتكرر القسم بالليل والنهار وبعض أجزائهما فإنهما من آيات الله العظيمة لما فيهما من النظم الدقيق ، وإيلاج أحدهمـا ني الآخر ، والـدلالة على وجود خالق ومدبّر لهما ، والفجر أيضاً من آياتـه سبحانـه ويبشرُ بـانقضاء حكـومة الظلمة وابتداء سلطنة النور ، وتلك الساعة من منبهات يـوم الساعـة للقلوب الحية اليقظة حيث يحشر الناس من مضاجعهم وحتى الحيوانات والوحوش من مسـاكنها والـطيور من أوكـارهـا وهـو سـاعـة يتـوجـه فيهـا عبـاد الله إلى جنـابـه المقـدس فـالصائمـون ، يكفّـون عن الـطعـام والشـراب والمفـطرات ، بـطلوع الفجـر ،

والمصلّون يتهيئون للقيام بين يدي الله ، والصلاة في أول الفجر ، التي يشهدها ملائكة الليل والنهار ، كما في روايات تكاد تبلغ حد التواتر . واتفق المفسرون على أن المراد من القرآن في قوله تعالى : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ هو صلاة الفجر ، فالفجر وقت الشروع لعبادتين عظيمتين : الصلاة والصوم (واجبتين أو مندوبتين) سواء أريد منه مطلق الفجر ، أو خصوص فجر العشر من ذي الحجة أو الفجر من العشر الأخير من شهر رمضان كما قيل .

﴿**وليالٍ عشر**﴾ :

أشهر الأقوال في تفسير الليالي العشر أنها العشر الأول من ذي الحجة قيل أن العرب تذكر الليالي وهي تعينها بأيامها تقول بُني هذا البناء ليالي السامانية ، أي أيامهم كما في غير واحد من التفاسير .

أقول : الظاهر أن التعبير عن الأيام بالليالي لو كان صحيحاً فلا بد أن يكون بنوع من التوجيه كما في المثال فإنه على فرض صحته لعلّه بعناية أن الأيام في دولتهم كانت كالليالي وإلا فغرابة هذا الإستعمال غير خفيّة ، ففي الآية الشريفة لا بد أن يكون المراد نفس الليالي العشر لخصوصية فيها أوجبت القسم بها .

﴿ **والشفع والوتر** ﴾ :

قال الراغب : الشفع : المخلوقات كلها من حيث أنها مركبات ولعله أخذ ذلك مما نقل عن ابن عباس أنه قال الشفع الخلق بما له من الشكل، والوتر: الخالق الفرد بما ليس له مثل وذلك أن الله تعالى خلق من كل شيء زوجين كقوله ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وخلقناكم أزواجاً** ﴾

والوتر هو الله ، الأحد ، الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن ، له كفواً أحد .

وقيل الشفع : يوم النحر ، والوتر : يوم عرفة ، لأن يوم عرفة هو التاسع ، وهو وتر ويوم النحر هو العاشر وهو شفع وقيل الشفع والوتر : الصلوات فإن فيها شفعاً ووتراً فصلاة المغرب وتر والأربع البواقي شفع . وقيل الشفع : أبواب الجنة لأنها ثمانية ، والوتر : أبواب النار لأنها سبعة . فكأنه أقسم سبحانه بالجنة والنار وقال الحسن الشفع والوتر العدد كله فمنه شفع ووتر . وقال مقاتل بن حيان الشفع : الأيام والليالي ، والوتر : اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيامة وغير ذلك من الوجوه الكثيرة التي لا فائدة في ذكرها .

﴿ والليل إذا يسر ﴾ :

يسر : مضارع من مصدر سُرى . سرى يسري سرىً وسَرية وسُرية : بمعنى السير في الليل وقال أكثر المفسرين منهم الطباطبائي (قد) أن معناه المضيّ أي والليل إذا مضى وذهب فهو كقوله تعالى : **﴿ والليل إذا أدبر ﴾** . وإنما حذفت الياء من آخره رعاية للفواصل وهي الفجر ، وعشر ووتر وحجر وقيل أيضاً أن العرب تحذف الياء من آخر الكلمات في كثير من الموارد كمتعال ومهتد في متعالي ومهتدي . وقال الأخفش على ما نقل : أن الياء حذفت ليكون دليلاً على المجاز ومعنى هذا الكلام أن معنى سُرى كما ذكرنا هو السير في الليل فعلى هذا لا يصح إسناد السير إلى الليل حقيقةً بل الناس يسيرون في الليل فإسناد السير في الليل إلى الليل إسناد مجازي . وأما دلالة الحذف على المجاز فهي كما قال أبو الفتوح حيث أن الكلمة صرفت عن وجهها أي معناها الحقيقي فَتَنَقَّصَ حظّها هذا . وأما فائدة هذه الأقسام فيمكن أن نقول :

١ ـ إنها وقعت للتحريض والترغيب إلى أداء فريضة الحج وللتجليل عن

هذه الوظيفة الدينية الاجتماعية والمؤتمر الكبير الإسلامي وتعظيم زمانه ومكانـه كما قال تعالى : ﴿ **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام** ﴾ .

وقال أمير المؤمنين (ع) : « وفرض عليكم حج بيته الحرام الذي جعله قبلة للأنام يـردونه ورود الأنعـام ويألهـون إليه ولـوه الحمام ، جعله سبحـانه عـلامـة لتواضعهم لعظمته ، وإذعاناً لعزّته ، واختار من خلقه سماعـاً أجابـوا إليه دعـوته ، وصدقوا كلمته ، ووقفوا مـواقف أنبيائـه ، وتشبهوا بمـلائكته المـطيفين بعرشـه ، يحرزون الأرباح في متجر عبادته ، ويتبادرون عند موعد مغفرتـه ، جعله سبحانـه للإسلام علماً وللعائذين حرماً » وقال (ع) في وصيته المعروفـة بعدمـا ضربـه ابن ملجم : « الله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا » .

وبالجملة ، لو قلنا بأن الأقسام لغرض التعظيم لعمل الحج والترغيب إليـه تكون المناسبة بين الآيات محفوظة وذلك لأن الفجر بمعنى فجـر أول ذي الحجة أو صبـح يوم عيـد الأضحى وليـال عشـر هي الليـالي من العشـر الأولى من ذي الحجة . والشفع والوتر : العاشر والتـاسع منـه ، أو الثامن والتـاسع هـو الشفع ، والعاشر هو الوتر ، أو الشفع الصفا والمروة ، والوتر الكعبة وغير ذلك من المعاني المرتبطة بالحاج وعمل الحج كل هذه تكون مرغبة ومشوقة إلى هذا العمـل نظيـر ما سيأتي في سورة العاديات أنها لبيان أهمية الجهاد وترغيب الناس إليه .

ويمكن أن تكـون الأقسام إشـارة إلى تعظيم شهـر رمضـان ، شهـر الله ، وتوجيه الناس إلى الصوم وفضيلته ، بتوضيح أن يكون المراد من الفجر فجر اليوم الأول من هذا الشهر ، والليـالي العشر هي العشـر الأخيرة منـه ، فإنهـا تمتاز عن سائر لياليه بالأفضلية . والشفـع والوتـر عدد أيـام هذا الشهـر في السنين المختلفة ففي بعضها يكون الشهر ثلاثين يوماً وشفعاً وفي بعضها تسعاً وعشرين ووتـراً ، أو

أيامه ولياليه فإنها إما شفع أو وتر وعلى أي حال يدل القسم بها على جلالة الأيام والليالي منه ويكون المراد من الليل في ﴿ **والليل أذا يسر** ﴾ ليلة القدر .

٣ ـ ويمكن أن نستفيد من الأقسام أنها تشويق وترغيب لمطلق العبادات وخصوصاً الصلاة فإنها عمود الدين والذكر والدعاء والأعمال الخيرية ، وبالأخص في الأيام التي لها فضل زائد ببيان أن الفجر هو صلاة الصبح ، أو صبيحة يوم الجمعة ، وهو يوم العبادة وتضاعف فيه الحسنات ، أو صبيحة يوم الأول من المحرم وهو ابتداء السنة القمريّة وعليها تبتنى معرفة الشهور العبادية كشهر رمضان ، وذي الحجة ، والليالي العشر ، هي من كل شهر يكون فيها فضل زائد سواء في العشر الأولى كذي الحجة ، أو الثانية كشعبان ، ورجب ، أو الأخيرة كشهر رمضان .

ولعل التنكير في الليالي يؤيد هذا المعنى والشفع والوتر ركعات الصلاة كما ذكرنا أو بتصريح من ابن عباس صلاة الصبح والمغرب ، أو مطلق العبادات . فما تكرر منها كالصلاة والصوم هو الشفع وما يجب في العمر مرة واحدة كالحج هو الوتر ، أو أنهما الثلاث ركعات الأخيرة من نوافل الليل فالتاسعة والعاشرة هي الشفع ، والحادية عشر هي الوتر ، وقد سميتا بهما وهذه النوافل لها أهمية خاصة ، وهي التي قال الله تعالى فيها : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً** ﴾ .

والليل ، في ﴿ **والليل إذا يسر** ﴾ ، ليلة القدر ، أو ليلة المزدلفة، وهما خاصتان للعبادة والدعاء أو مطلق الليالي باعتبار أن المؤمن بدخول الليل تجب عليه صلاة المغرب ثم صلاة العشاء ثم بعدها صلاة الليل وفي الحقيقة يتذكر المؤمن من لفظ الليل إلى أمر الله سبحانه في كلامه حيث يقول : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين**

تظهرون ﴾ فإنها كما قيل في معنى الأمر بتنزيه الله ، سبحانه وتعالى ، والثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته ، وتتجدد فيها نعمته فالآية جامعة للصلوات الخمس « تمسون » صلاة المغرب والعشاء و « تصبحون » صلاة الفجر وعشياً صلاة العصر « تظهرون » صلاة الظهر هذا مضافاً إلى أن الليل مبدئياً وقت الدعاء والمناجاة للمؤمنين والمتقين :

لله قوم إذا ما الليل جنهمُ ... قاموا من الفرش للرحمن عبّادا
ويركبون مطايا لا تملّهمُ ... إذا هم بمنادي الصبح قد نادا
هم إذا ما بياض الصبح لاح لهم ... قالوا من الشوق ليت الليل قد عادا

قال الإمام أبو محمد الحسن بن علي العسكري (ع) كما في (روضة بحار الأنوار) : « إن الوصول إلى الله عز وجل سفر لا يدرك إلاّ بامتطاء الليل » .

فإنه مضافاً إلى الصلوات الواجبة التي يؤديها كل مسلم غالباً ومضافاً إلى النوافل النهارية والليلية للصلوات الخمس فإحدى عشرة ركعة نافلة الليل التي ذكرت في القرآن بالتعظيم والتجليل تختص بالليل إن الله سبحانه يأمر نبيّه (ص) لتأسى به أمته فلهم فيه أسوة ويقول : ﴿ **قم الليل إلاّ قليلاً نصفه أو أنقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً** ﴾ ثم إنه تعالى بعد ما يذكر صلاة الليل ويعظمها بقوله : ﴿ **إن ناشئة الليل** ﴾ أي النفس التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة أي تنهض أو العبادة التي تنشأ بالليل أي تحدث ﴿ **هي أشد وطأً** ﴾ أي أثبت قدماً ﴿ **وأقوم قيلاً** ﴾ وأشدُّ مقالاً وأثبت قراءة ، لحضور القلب ، وهدوء الأصوات ثم قال تعالى : ﴿ **إن لك في النهار سبحاً طويلاً** ﴾ أي فراغاً طويلاً لنومك وحاجتك وفي خطبة الهمام لأمير المؤمنين (ع) في وصف المتقين : « وأما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً يُحَزِّنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم . . » الخطبة .

فالمسلم المؤمن يتذكر من لفظ الليل الدعاء والصلاة والمناجاة خصوصاً إذا كان في القرآن وكان مقسماً به .

٤ ـ إنها لتنبيه البشر على عظمة الله ، وقدرته ، وكمال حكمته ، وشمول رحمته ، ليستكملوا معرفته ، ويشكروا نعمته ، ببيان أن الفجر بمعنى الصبح والفجر الصادق الذي يظهر من الأفق بعَلَمٍ من النور ، فيرسل أشعته كجنود منشرة على وجه جيش الظلمة فيهزمه وينتصر عليه . وليال عشر كما نقل عن عبده هي العشر الأولى من كل شهر التي يبارز فيها نور القمر مع الظلمة ، ويسعى في طردها ، ولكنه ينهزم ولا يبلغ النصر بل تنتصر الظلمة على النور ، وتستولي على المنطقة ، وحيث أن ظهور القمر تارة يكون في الليلة الأولى ، وأخرى في الليلة الثانية ، فلهذا نكّرت الليالي . يقول عبده أنه استعملت صنعة المقابلة في الآيتين بمعنى أن مقابلة النور مع الظلمة ملحوظة في كلتا الآيتين ، ولكن النصر النهائي في الأولى للفجر ، وفي الثانية لليالي ، والشفع والوتر : الزوج والفرد من الأيام والليالي إشارة إلى النظم الدقيق العجيب الموجود في الأرض . وقد أشير إلى ذلك في غير واحد من الآيات أو أن الشفع عبارة عن اليوم والليلة المتتابعين دائماً حتى ينتهي هذا النظام إلى يوم ليس بعده ليل ، وهو يوم القيامة ، وهو الوتر أو أن الشفع والوتر كنايتان عن العدد والحساب الدقيق ، الحاكم في جميع الموجودات ، ومنها الأيام والليالي ، أو أن الشفع والوتر جميع الموجودات في العالم ، فهي إما زوج ، أو فرد ، أو أن الشفع جميع الموجودات ، والوتر هو الله الواحد الأحد ، ببيان أن جميع ما في العالم خلق زوجاً أحدهما قرين للآخر أو ضده كالذكر والأنثى ، والليل والنهار ، والنور والظلمة ، والسماء والأرض ، والبر والبحر ، والشمس والقمر ، والجن والإنس ، والطاعة والمعصية ، والسعادة والشقاوة ، والعز والذل ، والقدرة والعجز ، والقوة والضعف والعلم والجهل ، والحياة والممات ، فصفات خلق

خلقت هكذا ، ضداً أو قرينة ، لتتمايز عن صفات الله سبحانه الذي تنزه عن مجانسة مخلوقاته ، فإن له عزّاً بلا ذُل ، وقدرة بلا عجز ، وقوة بلا ضعف ، وعلماً بلا جهل ، وحياة بلا موت ، وبقاء بلا فناء ، وهو الوتر الواحد الأحد وما سواه شفع وزوج .

والليل : في ﴿ **والليل إذا يسر** ﴾ مطلق الليل . فإنه من أعظم نعم الله سبحانه حيث جعله سكناً للإنسان بل والحيوانات ، فيستريحون ويجدّدون نشاطهم وبالخصوص في المناطق الحارة كالحجاز محل نزول القرآن ، وللأعراب الذين كانوا يعيشون في البر ، فهم يدركون أهمية هذه النعمة أكثر من غيرهم .

هذا قليل من كثير ما قيل في تفسير هذه الآيات الثلاث التي لا تتجاوز عن ست كلمات ومن أراد الإطلاع بأكثر من ذلك فليراجع التفاسير المفصلة .

﴿ **هل في ذلك قسم لذي حجر** ﴾ :

حجر : على وزن فكر ، العقل لأنه يحجر أي يمنع الإنسان عمّا لا يليق به كما في المنجد ، كما قيل نظير ذلك في العقل أيضاً ، فإنه من عقل البعير إذا ثّنى وظيفه[1] « أي ساقه مع ذراعه فشدهما معاً بحبل هو العقال . فإن العقل أيضاً يمنع الإنسان من الأعمال التي لا تليق به ، وعن الدخول في الباطل ، والمعنى أي هل في ذلك كفاية لذي عقل فيعرف عظم هذه الأقسام كما يقول من ذكر حجة باهرة هل فيما ذكرته حجة؟» .

قال الطباطبائي (قدس سره): « وجواب الأقسام المذكورة محذوف يدل عليه ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان والكفران في الدنيا والآخرة وثواب النفوس

(١) ثّنى وظيفه : أي طواه وعطفه .

المطمئنة . وإن إنعامه تعالى على من أنعم عليه ، وإمساكه عنه فيمن أمسك ، إنما هو ابتلاء وامتحان :

وقال الميدي في تفسيره : إن جواب القسم قوله : ﴿ **إن ربّك لبالمرصاد** ﴾ واعترض بين القسم وجوابه قوله عز وجل : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد** ﴾ تعرض سبحانه في هذه الآيات بعد الأقسام المذكورة إلى ثلاث ذكريات للأمم السالفة التي كانت من أقوى الأمم وقد انقرضوا وأهلكوا نتيجة كفرهم وفسادهم وظلمهم وذلك ليكون تخويفاً لأهل مكة خاصة ، وإنذاراً للظالمين والمفسدين أجمع في القرون الآتية ، وتسلية لرسول الله أيضاً بأن تلك الأمم مع أنهم كانوا أقوى من قريش ، وأنبياؤهم كانوا أقل قدراً منك قد أهلكوا وذاقوا وبال أمرهم ، فقريش أيضاً ، لو تداوموا في تكذيبهم وظلمهم وإنكارهم الحق ، سيكون مسيرهم ما صارت إليه الأمم الماضية .

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾:

﴿ **ألم تر** ﴾ معناه التعجب أي ألم تعلم ﴿ **كيف فعل ربّك بعاد** ﴾ وهذا تخويف لأهل مكة على سبيل ما روي أن القرآن نزل على إيَّاك أعني واسمعي يا جارة .

وعاد : كما قيل عادان ، عاد الأولى : وهي قوم هود أهلكوا بالريح ، وعاد الآخرة : وهي ثمود وهم قوم صالح . وحيث أن ثمود ذكرت في هذه الآيات فالمراد من عاد عاد الأولى وهي قوم هود وقد جعلهم الله سكان الأرض من بعد قوم نوح وزادهم في الخلق بسطة ، فكان أطولهم مائة ذراعاً وأقصرهم سبعين ذراعاً وقال أبو جعفر الباقر (ع) : « كانوا كأنهم النخل الطوال فكان الرجل منهم يضرب الجبل بيده فيهدم منه قطعة وكانوا يعبدون أصناماً سموها آلهة ولذا قال لهم هود ﴿ **أتجادلونني في أسماء سميتموها** ﴾ » وقيل معناه تسميتهم لبعضها

أنه يسقيهم المطر فيسمونه إله المطر أو إله الرزق مثلاً والآخر أنه يشفي المرضى فهو إله الصحة والعافية والآخر أنه يصحبهم في السفر وهكذا وهؤلاء هم الذين أهلكهم الله بالريح .

وفي تفسير علي بن إبراهيم القمّي رواية فيها نكتة منبهة قال : إن عاداً كانت بلادهم في البادية (ولعلّه إلى ذلك أشار قوله تعالى : ﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف** ﴾ فالأحقاف جمع حِقف وهو ما أعوج من الرمل واستطال كما في المنجد وهذا يكون في البادية غالباً) ، وكان لهم زرع ونخل كثير ولهم أعمار طويلة وأجسام كذلك ، فعبدوا الأصنام فبعث الله إليهم هوداً يدعوهم إلى الإسلام فأبوا ولم يؤمنوا بهود وآذوه ، فكفت السماء عنهم سبع سنين حتى قحطوا وكان هود زارعاً وكان يسقي الزرع فجاء قوم إلى بابه يريدونه فخرجت عليهم امرأته شمطاء[1] عوراء فقالت من أنتم ؟ فقالوا نحن من بلاد كذا وكذا أجدبت بلادنا فجئنا إلى هود نسأله أن يدعو الله حتى تمطر وتخصب بلادنا فقالت لو استجيبت لهود لدعا لنفسه ، احترق زرعه لقلة الماء ، قالوا فأين هو؟ قالت : هو في موضع كذا وكذا فجاؤوا إليه فقالوا : يا نبي الله ! قد أجدبت بلادنا فاسأل الله أن يمطر بلادنا ، فصلى ودعا لهم فقال إرجعوا فقد أمطرتم فقالوا : يا نبي الله لقد رأينا في بيتك عجباً امرأة شمطاء عوراء وحكوا له كلامها فقال هود تلك امرأتي وأنا أدعو الله لها بطول البقاء ، فقالوا : وكيف ذلك؟ قال : لأنه ما خلق الله مؤمناً إلاّ وله عدو يؤذيه وهي عدوتي فلئن يكون عدوي ممن أملكه ، خير من أن يكون عدوي ممن يملكني . فبقي هود في قومه يدعوهم إلى الله وينهاهم عن عبادة الأصنام حتى يخصب بلادهم وهو قوله عز وجل : ﴿ **ويا قوم استغفروا ربّكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين**

---

(١) شَمطَ شمطاً : خالط بياض رأسه سواد .

فقالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴾ فلما لم يؤمنوا أرسل الله عليهم الريح الصرصر يعني الباردة وهو قوله في سورة القمر ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ﴾ . وحكى في سورة الحاقة فقال : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً[١] فترى القوم فيها صرعى[٢] كأنهم أعجاز نخل خاوية[٣] فهل ترى منهم باقية ﴾ .

﴿ ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ :

قيل أن [إرم] قبيلة من عاد سميت به لأنه اسم جدّ عاد وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح كما سمي بنو هاشم هاشماً وبنو تميم تميماً . وهو عطف بيان لعاد وقيل إن إرم اسم بلدتهم أو أرضهم التي كانوا فيها .

﴿ ذات العماد ﴾ :

العماد ما يسند به ، جمعه عَمَد وعُمُد وقد ذكرت في تفسير هذه الجملة وجوه كثيرة نذكر بعضها :

الأول : أنهم كانوا أهل خيام وماشية سيارة ينتجعون الغيث والكلأ فالمراد من العماد أعمدة الخيام وكناية عن أنه لم يكن لهم محل معين بل كانوا ينتقلون من مكان إلى مكان للانتجاع في كل مكان خصب ينصبون خيامهم .

وهذا المعنى بعيد جدّاً لأنّه لا يناسب الآية التي بعدها وهي ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ فإن كثيراً من الأقوام أهل خيام وماشية ولا يختص ذلك بعاد .

---

(١) حسوماً : أي متتابعات / المحدث الجزائري في قصص الأنبياء .
(٢) صرعى : أي موتى جمع صريع .
(٣) خاوية : أي متآكلة الأجواف .

الثاني : إن المراد من العماد أعمدة الأبنية والقصور حيث كانت لهم قصور عالية وأبنية رفيعة وعلى هذا يكون المراد من قوله تعالى : ﴿ **التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾ أي لم تخلق مدينة في البلاد مثل مدينتهم وهي المدينة التي بناها شداد بن عاد على صفة لم يخلق مثلها في بلاد الدنيا ولها قصة في التاريخ لتشبه الأسطورة أكثر منها بالحقيقة .

الثالث : أي ذات الأجسام الطويلة والقوية شبهت في قوتها وصلابتها بالأعمدة كما ذكرنا في الرواية عن الباقر (ع) كانوا كأنهم النخل الطوال فكان الرجل منهم يضرب الجبل بيده فيهدم منه قطعة وقال ابن عباس يعني طولهم مثل العماد كان الإنسان منهم من ستين وسبعين ذراعاً إلى مائة ذراع . ونقل الميبدي في تفسيره أنه رؤي ذراع ميت منهم إثني عشر ذراعاً أو عظم ساق بأرض اليمن فعلى هذا معنى قوله تعالى : ﴿ **لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾ أي لم يخلق مثل عاد وقبيلته في البلاد ، من شدة قوتهم وطول قامتهم وهم الذين قالوا ﴿ **من أشد منّا قوة** ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ **وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة** ﴾ وقيل غير ذلك تركناها .

﴿ **وثمود الذين جابوا الصخر بالواد** ﴾ :

الجواب : القطع ومنه الجيب لقطع الثوب له . والصخر جمع صخرة : الحجر العظيم الصلب ، يقال فلان صخرة الوادي : أي ثابت لا يتزعزع قال علي(ع) : فاستبدلوا بالقصور المشيدة، والنمارق الممهَّدة، الصخور والأحجار المسنَّدة .

والواد : أصله الوادي ، حذفت ياؤه لدلالة الكسرة عليها ورعاية لرأس الآية . قال أكثر المفسرين إن قوم ثمود أول من نحت الجبال والصخور والرخام

وقد بنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة وذلك قوله تعالى : ﴿ **كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . . . وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين** ﴾ . وسيأتي ذكرهم وما جرى عليهم في تفسير سورة الشمس .

﴿ **وفرعون ذي الأوتاد** ﴾ :

إختلف المفسرون في معنى ذي الأوتاد على أقوال : منهم من قال بمعنى الجنود والأعوان وأعضاء الدولة الذين كانوا أوتاد مملكته ، ويقوون أمره ، وقيل الأوتاد كناية عن ثبات مملكته ، وطول مدة حكومته ، كما قال الشاعر : « في ظل ملك ثابت الأوتاد » .

وفي (العلل) بإسناده إلى أبان الأحمر قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل : ﴿ **وفرعون ذي الأوتاد** ﴾ لأي شيء سمي ذا الأوتاد فقال : « لأنه كان إذا عذب رجلاً بسطه على الأرض على وجهه ومدّ يديه ورجليه فأوتدها بأربعة أوتاد في الأرض وربما بسطه على خشب منبسط فوتّد رجليه ويديه بأربعة أوتاد ثم تركه على حاله حتى يموت فسماه الله عز وجل فرعون ذا الأوتاد » .

وقال ابن عباس : سمي فرعون ذا الأوتاد لأنه كان إذا غضب على أحد مدّه بين أربعة أوتاد حتى يموت وكذلك فعل بامرأته آسية بنت مزاحم وبامرأة خازنه حَزبيل وكانت ماشطة بنت فرعون وكان حَزبيل مؤمناً يكتم إيمانه وكذا امرأته فبينا هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت تعس من كفر بالله تعالى فقالت ابنة فرعون وهل لك إله غير أبي فقالت إلهي وإله أبيك وإله السموات والأرض واحد لا شريك له فقامت ودخلت على أبيها وأخبرته بذلك ولها قصة طويلة حتى قتلها فرعون واعترضت عليه امرأة فرعون آسية فغضب عليها أيضاً فمدها بين أربعة أوتاد يعذبها ففتح الله لها باباً إلى الجنة ليهون

عليها ما يصنع بها فرعون فعند ذلك قالت : ﴿ **رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين** ﴾ فقبض الله روحها وأسكنها الجنة العالية.

﴿ **الذين طغوا في البلاد** ﴾ :

أي هذه الأقوام الهالكة والمنقرضة جاوزوا حدّهم في الكفر ومحاربتهم مع الله سبحانه ورسله .

﴿ **فأكثروا فيها الفساد** ﴾ :

بالكفر والقتل والنهب ومنع الناس عن عبادة الله ففسدوا وأفسدوا ، ولعل هذا هو المراد من الإكثار في الفساد .

﴿ **فصب عليهم ربّك سوط عذاب** ﴾ :

الصبَ بمعنى الإنسكاب والإنحدار صبّ الماء سكبه وصبّ الماء في الوادي انحدر . والسوط بمعنى الخلط ، ساط الشيء أي خلطه واستوط الأمر أي اختلط واضطرب . وقيل أنه بمعنى التعب والشدة . فعلى هذين المعنيين لا تحتاج الآية إلى توجيه بل يكون معناها : إن ربّك صبّ عليهم أنواع العذاب أو العذاب الشديد وأما إذا كان السوط بمعنى ما يضرب به فلا بد من إسناد مجازي كقولك رأيت أسداً يرمي وعلى أي حال الآية تُنّبىء عن العذاب المتتابع المتواتر المختلط أو الشديد .

﴿ **إن ربّك لبالمرصاد** ﴾ :

رَصَدَهُ رَصْداً : أي رقبه وقعد له على طريقه ليوقع به فالمرصاد المكان الذي يرصد منه وكونه تعالى بالمرصاد استعارة تمثيلية وكناية عن أن الظالمين

والكافرين لا يستطيعون الفرار من عقوبته ، والخروج عن حكمه فالله تعالى لهم بالمرصاد يأخذهم حينما يمرّون عليه ويأمر الحفظة بتوقيفهم قال تعالى : ﴿ وقفوهم إنهم مسؤلون ﴾ في الجمع عن الصادق (ع) أنه قال : « المرصاد قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة عبد » .

وربما يستفاد من الآية تلويحاً أن ما جرى على الأمم الماضية من العذاب والنكال هو بعض ما أعدّ الله لهم ، ولعذاب الآخرة أشد .

وبعبارة أخرى فرق بين قوله تعالى : إن ربك لبالمرصاد ، وبين ما يقول إن ربك كان لهم بالمرصاد ، حيث يفيد الثاني أن العذاب كان نتيجة مراقبة الله إياهم وكأنهم ذاقوا وبال أمرهم ، بخلاف الأول فإن الرصد موجود حتى بعد هلاكهم . كما يستفاد من الآية أيضاً أن الرصد لم يختص بالطوائف الثلاث بل هو عام للجميع ، وأن سنة العذاب جارية في جميع الأمم حتى أمتك يا محمد على ما جرت عليه في الأمم الماضية . وقد استفاد من هذه النكتة الطباطبائي (قد) من إضافة الرب إلى ضمير الخطاب ولعل ما استفدناه أوضح .

﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه ونعمه فيقول ربّي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدّر عليه رزقه فيقول ربّي أهانن ﴾ :

البلاء : الاختبار . قال الجوهري : البلاء الاختبار يكون بالخير والشر يقال أبلاه الله بلاء حسناً وأبليته معروفاً . ويستفاد هذا المعنى من استعمال كلمة الإبتلاء في موردي الإكرام وتقدير الرزق وأوضح من ذلك قوله تعالى : **﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾**فكل ما يمتحن به الله سبحانه عباده ويختبرهم به فهو بلاء وابتلاء سواء أكان من قبيل الأمراض والأسقام والفقر والذلة والمسكنة وإدبار الدنيا أو مقابلاتها من الصحة والغنى والعزة وإقبال الدنيا . وربما يكون الاختبار والامتحان بالجاه وكثرة القدرة والمال والرئاسة والعزة والعظمة كما نقل

سبحانه عن لسان سليمان النبي (ع) في قصة إحضار عرش بلقيس فلما رآه مستقراً عنده قال : ﴿ هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ﴾ هذا ولكن كلما تطلق البلاء والبلية والابتلاء ونحوها من دون قرينة فينصرف إلى القسم لأول .

وقد بين الله سبحانه في الآيات السابقة ما جرى على الطوائف الثلاث الذين لم يستفيدوا من نعم الله سبحانه بما يرضون الله تعالى بل طغوا ، وعصوا ، وفسدوا ، وأفسدوا ، ثم هدّد الله سبحانه كل من عصى وطغى وأن مصيرهم إلى ما صار إليه من كان قبلهم من الطغاة ، والعصاة . وبعد ذلك بين الله سبحانه الحب الشديد الذي لبني آدم بالدنيا وذمَّهُ وبيّن أن الغنى والفقر وسيلتان للامتحان والاختبار فلا بد للإنسان أن يشكر في حال الغنى والراحة وأن يصبر في الفقر والمحنة ولكنه إذا صار ذا مال وثروة فيحسب أنه لكرامته على الله ، وإذا صار فقيراً يحسب أن ذلك لهوانه على الله مع أنه ليس شيء من هذا وذاك ، دليلاً على الهوان أو الكرامة عند الله[1] بل الكرامة حقيقة رهينة طاعة الله سبحانه كما أن معصيته تعالى توجب الذلة والحقارة في جنابه فربّ غني متنعم قريب من الله تعالى بواسطة شكره كما أن الفقير أيضاً لو كان صابراً محتسباً يكون له من الله منزلة وقرباً . بل الفقر والمحنة شعار الصالحين وحلية الأنبياء والأولياء كما ورد في الروايات وأنه مما أوحى الله إلى موسى (ع) : « إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عُجّلت عقوبته » .

وروي أن الله تعالى يقول للفقراء يوم القيامة : « لم أفقركم لهوانكم علي ، ولكن لما هو خير لكم » .

وقال تعالى في بعض كتبه : أف لكم لم أغن الغني لكرامته عليّ ولم أفقر

---

(١) وفي المقام نكتة دقيقة تتضح لك إن شاء الله عندما نناقش ما قاله الطباطبائي قدس سره في المقام .

الفقير لهوانه عليّ وإنما أبليت الأغنياء بالفقراء ولولا الفقراء لم يستوجب الأغنياء الجنة .

فهذا موسى كليم الله الذي اصطفاه لوحيه وكلامه ما طلب حين آوى إلى الظل بقوله : ﴿ ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾ إلّا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض ويروى أن الله تعالى قال : « يا موسى إرْضَ بكسرة من شعير تسد بها جوعتك ، ويخرقة تواري بها عورتك ، واصبر على المصائب ، وإذا رأيت الدنيا مقبلة عليك فقل إنّا لله وإنّا إليه راجعون عقوبة عجلّت في الدنيا ، وإذا رأيت الدنيا مدبرة عنك ، فقل مرحباً لشعار الصالحين ! يا موسى لا تعجبن بما أوتي فرعون وما متّع به فإنما هي زهرة الحياة الدنيا ، وهكذا جميع الأنبياء والمرسلين » وكان أفضلهم وأشرفهم نبيّنا (ص) يشد الحجر على بطنه من الجوع .

كما روي أنه (ص) أصابه يوماً الجوع فوضع حجراً على بطنه ثم قال : « ألا ربّ مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا ربّ مهين لنفسه وهو لها مكرم ألا ربّ نفس جائعة عارية في الدنيا ، طاعمة في الآخرة ناعمة يوم القيامة ، ألا ربّ نفس كاسية ناعمة في الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة ، ألا ربّ متخفض متنعم فيما أفاء الله على رسوله ، ما له في الآخرة من خلاق ، ألا إن عمل أهل الجنة جنة بربوة ، ألا أن عمل أهل النار كلمة سهلة بشهوة ، ألا ربّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً يوم القيامة » .

وقد خرج رسول الله (ص) من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة ورأى رجلاً يبني بيتاً بجصّ وآجّر فقال الأمر أعجل من هذا .

وقال سويد بن غفلة : دخلت على أمير المؤمنين (ع) بعدما بويع بالخلافة

وهو جالس على حصير ليس في البيت غيره فقلت يا أمير المؤمنين بيدك بيت المال ولست أرى في بيتك شيئاً مما يحتاج إليه البيت فقال: «يا ابن غفلة إن البيت لا يتأثث في دار النقلة ولنا دار نقلنا إليها خير متاعنا وإنّا عن قليل إليها صائرون» .

وبالجملة ما يستفاد من مجموع الآيتين أن النعمة والتقدير في الرزق كلاهما من الابتلاء والامتحان الإلهي وذلك لتكرار الابتلاء في كلتا الآيتين وفي كلتا الصورتين وأما ما ذكره الطباطبائي (قد) أن المراد بالإكرام والتنعيم الصوريان ، وإن شئت فقل الإكرام والتنعيم حدوثاً لا بقاءً أي أنه تعالى أكرمه وآتاه النعمة ليشكره ويعبده لكنه جعلها نقمة على نفسه تستتبع العذاب فلنا فيما قاله (قده) نظر : وهو شاهد لهذا التفسير في الآية وإن كان المعنى صحيحاً في نفسه وبعبارة أخرى لا شك أن جميع النعم الموهوبة من الله سبحانه لا بد للإنسان من القيام بشكرها حتى قيل إن وجوب شكر المنعم ، من البديهيات والفطريات ، ولا شك أيضاً أن الكفران لنعم الله سبحانه ، بصرفها في غير ما أراد الله ، يوجب تبدل النعمة بالنقمة ولكن ظاهر الآيتين الشريفتين لا يدّل على ذلك وليس شيئاً مما ذكره الطباطبائي (قد) بأن الله سبحانه آتى ما آتاه من النعم للإنسان ليشكره ويعبده ولكنه جعلها نقمة على نفسه مذكوراً في الآية ، بل الآية الأولى تصرح بأن الله قد أكرم الإنسان ونعمّه ، والظاهر من ذلك الإكرام أنه إكرام حقيقي ، والنعمة نعمة واقعية ، فما وجه حملهما على الإكرام والنعمة الصوريين على خلاف الظاهر وبعبارة ثالثة ما أضاف (قد) من المعنى على تفسير الآيتين ألزمه بأن يقول : المراد بالإكرام والتنعيم الصوريّان فلو أغمضنا النظر عن هذه الزيادة اقتصرنا على المعنى المستفاد من ألفاظ الآية لم يكن موجب لحمل الإكرام والتنعيم على الصوريين بل يحملان على معناهما الحقيقي مضافاً إلى أن التوجيه

المذكور لا يتأتى في الآية الثانية فلذا لم يذكره (قد) فيها مع أن سياق الآيتين واحد .

فالظاهر من الآيتين والله العالم أن الله سبحانه في مقام بيان حال الإنسان في الحالتين حالة النعمة ، وحالة التقدير في الرزق معاً ، والردّ على كيفية تفكيره فيهما معاً وأنه يرى أن النعمة له إكرام من الله وأما التقدير فهو إهانة والحال أنه ليس الأمر كذلك بل كلاهما ابتلاء وامتحان فإن نجح الإنسان في هذا الامتحان فهو سعيد سواء أكان ابتلاؤه بالنعمة ، أو بالتقدير ، وإن لم ينجح فهو غير سعيد . فهذا النوع من التفكير : أي كون النعمة إكراماً والتقدير في الرزق إهانة تردّه الآية بل ربما يكون التقدير في الرزق أيضاً إكراماً واقعياً كما كانت النعمة إكراماً حقيقياً وذلك إذا كان صابراً حال الفقر دون الغنى فإن من الناس من يصبر على الفقر دون الغنى فيبطر ويطغى في حال الغنى فالفقر لمثل هذا الإنسان ليس إهانة كما في الرواية : « إن من عبادي من لا يصلحه إلاّ الفقر ومنهم من لا يصلحه إلاّ الغنى» فإذاً اعتقاد الإنسان بأن الإكرام والإهانة من الله سبحانه يدور مدار الغنى والفقر غير صحيح بل كل منهما يصلح أن يكون إكراماً أو إهانة كما أن الأنبياء والأولياء كانوا أكثرهم مبتلين بالفقر وكان الفقر شعاراً للصالحين كما ذكرناه .

وقد ورد أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل وفي مقابل ذلك يوجد من الأغنياء وذوي النعمة من هو مكرّم واقعاً عند الله وقد جمع الله له الدنيا والآخرة وكان الصادق (ع) إذا رأى بعض أصحابه المثرين يقول : « وقد يجمعهما الله لأقوام » .

وقد استجاب الله لهم ما ذكره في القرآن الكريم ﴿ **ومنهم من يقول ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة** ﴾ كما يوجد من الأغنياء من يكون مهاناً عند الله ومصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيراً**

لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب أليم ﴾ وما ذكرناه في معنى الآية هو الظاهر المتبادر منها وأين هذا مما ذكره الطباطبائي (قدس) من أن المراد هو الإكرام الصوري لا الواقعي وأن الله آتاه النعمة ليشكره ويعبده ولكنه جعلها نقمة إلى آخر ما تكلف (قد) في معنى الآية .

ولا بأس أن نتعرض في المقام إلى معنى الابتلاء والامتحان ليزيد معنى الآيتين وضوحاً فنقول :

إعلم أن من الأمور التي دلّت عليها الآيات المتعددة في القرآن الكريم ووردت فيها روايات كثيرة من أهل البيت (ع) أن الله تبارك وتعالى يمتحن جميع عباده ولو كان في العمر مرة واحدة فمن الآيات قوله تعالى : ﴿ **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنّا الذين من قبلهم** ﴾ حتى الأنبياء (ع) وقعوا موقع الامتحان كآدم وإبراهيم وموسى وسليمان وداود ﴿ **يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة** ﴾ إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **فقلنا يا آدم إن هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنة** ﴾ وهكذا إبراهيم ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات** ﴾ وفي موسى ﴿ **وقتلت نفساً وفتناك فتوناً** ﴾ ولسليمان ﴿ **ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب وظن داود إنما فتناه** ﴾ .

وهكذا الأمم السابقة كانوا في معرض الابتلاء والامتحان كبني إسرائيل ﴿ **فإنا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلّهم السامري** ﴾ والآيات في ذلك كثيرة جداً .

قال (ع) : [والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلكم ، وليسبقن سابقون كانوا قصروا ، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا][1] .

---

(١) من كلام أمير المؤمنين (ع) لما بويع في المدينة وفيها يخبر الناس بعلمه بما تؤول إليه أحوالهم صفحة ٥٧ رقم ١٦ نهج البلاغة طبع إيران .

فـالابتلاء والامتحـان مسلّم حسب الآيات والـروايـات والنكتـة التي ينبغي التوجه إليها في المقام هي أن جمعاً من الأشاعرة قالـوا إنّ أفعال الله ليست معللة بـالأغراض وفي مقـابلهم الشيعة وجمـع من العامـة ويسمّون بـالمعتزلـة يعتقدون خلاف ذلك ، وأن الأفعال الصادرة من الله سبحانه ليست عبثـاً ، وبلا حكمـة ، وبلا غرض ، بل في كل فعل من أفعاله ـ تبارك وتعالى ـ مصلحة وحكمة وغرض وغاية فخلق هذا العالم بأرضه وسماواته ومن فيهن لحكمـة وغرض وغـاية ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾ . خلق هذه الكرات غير المتناهيـة لم يكن للعب وخلق الإنسان لم يكن عبثاً ﴿ **أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً** ﴾ .

فـإذاً ما هي الحكمـة في ابتلاء النـاس ؟ وهـل ابتـلاء النـاس وامتحـانهم كـامتحان الأسـاتذة تـلاميـذهم ليعلمـوا الـطالب المجـدّ في تحصيله من البـطّال اللاعب ؟ .

ليس الأمر من هذا البـاب يقيناً لأن الله سبحـانه يعلم السـر وأخفى وعلمه سبحانه محيط بجميع الأشياء على أنه تعالى خـالقها ومبـدعها وكيف يمكن جهله بمخلوقه ومبتدعه ؟ . ألا يعلم من خلق ؟ البنّاء الذي يبني بيتاً يعلم أساسه ومـواده وأما قوله تعالى : ﴿ **أحسب النـاس أن يتركـوا . . . وليعلمن الكاذبين** ﴾ فـالمراد كمـا قالـه الطبـاطبائي (قـد) علمـه تعـالى الفعلي الـذي هـو نفس الأمـر الخارجي فإن الأمور الخارجية بنفسها من مـراتب علمه تعـالى وأما علمـه تعـالى الـذاتي فـلا يتـوقف على الامتحـان البتّـة فـالحكمـة الإلهيــة في الامتحان لظهور بواطن الأفراد للآخرين لئلا يقعوا في الخطأ والضـلال ، فـإن كثيـراً من النـاس يتـظاهـرون في المجتمعـات على خــلاف مـا في أنفسهم ، فيقع الناس في الاشتبـاه في حقهم ، وإذا جاء وقت الامتحـان يتبين خلاف ما أظهروه فأكثر مسلمي الصدر الأول للإسلام كانوا أصحاب

الجمعة والجماعات وأصحاب السيوف والمجاهدين في سبيل الله ولكنهم عند الامتحان انقلبوا على أعقابهم أمثال طلحة والزبير . فطلحة كان قد أسلم بمكة قبل الهجرة ثم هاجر مع النبي (ص) إلى المدينة وشهد معه أكثر مشاهده ولما استخلف عليّ (ع) كان أول من بايعه ، ثم كان أول من نكث بيعته . ومرّ أمير المؤمنين عليه فقال هذا الناكث بيعتي والمنشىء للفتنة في الأمة والمجلب عليّ والداعي إلى قتلي وقتل عترتي أجلسوا طلحة فأجلس فقال أمير المؤمنين (ع) : « يا طلحة بن عبيد الله لقد وجدت ما وعدني ربّي حقاً ، فهل وجدت ما وعدك ربّك حقاً ؟ ثم قال : أضجعوا طلحة ، وسار . فقال بعض من كان معه : يا أمير المؤمنين أتكلم طلحة بعد قتله ؟! فقال أمّا والله لقد سمع كلامي كما سمع ابن القليب كلام رسول الله يوم بدر » .

وهكذا الزبير فإنه كان من المجاهدين الذابين عن الإسلام . ففي احتجاج هشام بن الحكم على العامة في أفضلية أمير المؤمنين على أبي بكر في محضر جعفر بن يحيى البرمكي بِرواية عبد العظيم بن عبدالله عنه قال : « وقلتم وقلنا وقالت العامة : إنَّ الذابّين عن الإسلام أربعة علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وأبو دجانة الأنصاري وسلمان الفارسي ولما قدم قاتله سعى إلى عليّ ونظر (ع) إلى سيفه وقال : سيف طالما كشف الكرب عن وجه رسول الله ولكن مع ذلك كله صار من أمرهما ما صار . وقال أمير المؤمنين في خطبة يوم الجمل كما في (الكافي) : « واعجباً لطلحة ألّب الناس على ابن عفان حتى إذا قتل أعطاني صفقة بيمينه طائعاً ثم نكث بيعتي اللهم خنه ولا تمهله ، وإن الزبير نكث بيعتي ، وقطع رحمي ، وظاهر على عدوي ، فاكفنيه اليوم بما شئت » وقد ستجاب الله دعاءه عليهما فقتلا في كمال الذلة .

وكم لهما من نظير قديماً وحديثاً حتى في ثورتنا الإسلامية رآينا من

العلماء من يساند الثورة وكان في الصف المقدم ولكن لما انتصرت الثورة ولم ينل ما كان يريده من الرئاسة والقيادة انقلب إلى مواقع أعداء الثورة .

هذا وربما تكون الحكمة في الامتحان تبيّن حال الإنسان لنفسه فإن الإنسان بسبب حبه لنفسه -[والحب يستر العيوب ولا يرى المحب في محبوبه عيباً]- يرى نفسه مؤمنة زكية طاهرة من العيوب فيقيمه الله تعالى مقام الامتحان فتنكشف حقيقته لنفسه .

يقول داود الرقي أحد أصحاب الصادق (ع) : « كنت عند الصادق (ع) فجاء رجل من خراسان اسمه سهل فقال للصادق (ع) : ما الذي يمنعك أن يكون لك حق تقعد عنه وأنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف فأمر (ع) بأن يسجر التنور ثم قال يا خراساني قم فاجلس في التنور فقال يا سيدي لا تعذبني بالنار أقلني أقالك الله قال قد أقلتك فبينا كذلك إذ أقبل هارون المكي ونعله في سبابته فقال له الصادق (ع) ألق النعل وأجلس في التنور فألقى النعل وجلس في التنور وأقبل الإمام يحدث الخراساني بحديث خراسان حتى كأنه شاهدٌ لها ثم قال قم يا خراساني وانظر ما في التنور فقام الخراساني إلى التنور فشاهده متربعاً فقال له الإمام كم تجد بخراسان مثل هذا فقال والله ولا واحداً فقال أما إنَّا لا نخرج في زمان لا نجد فيه خمسة معاضدين لنا نحن أعلم بالوقت » . انتهى ملخصاً .

ويؤيد ما ذكرنا من الحكمتين في الابتلاء أي تبيّن حال الممتحن للغير ولنفسه ما رواه في المجمع في تفسير الآية ﴿ **فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ عن أمير المؤمنين والصادق (ع) أنهما قرآ بضم الياء وكسر اللام فيهما من الأعلام أي ليعرفنهم الناس .

وهنا حكمة أخرى للابتلاء وهي الحكمة المطردة في أكثر موارد الابتلاء إن لم تكن في جميعها وهي التميّز الذاتي بين السعيد والشقي والمطيع والعاصي والكامل والناقص لا العلم بالتميّز فإنه مستحيل في حق الله تعالى ونوضح ذلك بمثال :

وهو إنّا نرى أن الاختبار والامتحان ربما يكون من قبيل امتحان الأستاذ تلميذه الطالب ليتبيّن للأستاذ أو للطالب أو لبقية الطلّاب مستوى دراسة الطالب فهذا النحو من الامتحان ذكرنا أنه بالنسبة إلى الأستاذ في المثال غير متصور لأنه على الفرض يعلم مدى فضيلة تلميذه ولكنه بالنسبة إلى التلميذ نفسه أو إلى غيره من الطلاب أو والديه مثلاً أمر ممكن ومعقول .

وربما يكون الامتحان من قبيل اختبار الصائغ الذهب بجعله في البوتقة على النار . فالذهب المغشوش في مثل هذا الاختبار ، مضافاً إلى تبيّن غشه ، يصفو أيضاً ويتخلص من الغش ، ويتبدل نقصه بالكمال ، وهذا هو مقتضى رحيميته تعالى وفيّاضيّته المطلقة . فالسنّة الإلهية الجارية في خلقه على الفتنة والامتحان إنما هي بتخليصهم وتمحيصهم رحمة لهم وإشفاقاً بهم وهذا المعنى الذي ذكرنا للامتحان ، هو المستفاد من كثير من الآيات والروايات فمن الآيات قوله تعالى : ﴿**ولنبلونكم بشيء من الخوف . .**﴾ إلى قوله﴿**وبشر الصابرين . .**﴾ إلى قوله ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ فليس معنى الآية الشريفة إنَّ الصبر في هذه الأمور أمر تعبدي بلا محتوى وبلا فائدة تتبعه صلوات الربّ ورحمته بل الظاهر والله العالم أن الصبر في هذه المواقف يعطي للنفس قابلية واستعداداً لتلقّي الصلوات والرحمة من الربّ تعالى وبهذا يكون البلاء للمؤمنين حسناً دائماً كما قال تعالى : ﴿ **وليبلي المؤمنين بلاء حسناً** ﴾ ويشير إلى ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ **وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحّص ما في قلوبكم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق**

الكافرين ﴾ وهذه الآية كالصريح في كون الابتلاء والامتحان من نوع الصائغ للذهب .

وأما الأخبار فكثيرة جداً وردت في باب الابتلاء والتمحيص منها ما هو صريح فيما ذكرنا كقول أمير المؤمنين : « لا تفرح بالغناء والرخاء ولا تغتم بالفقر والبلاء فإن الذهب يجرب بالنار والمؤمن يجرب بالبلاء » .

ومنها ما هو ظاهر فيما ذكرنا كقوله (ع) : « لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم وليسبقن سباقون كانوا قصروا وليقصرن سباقون كانوا سبقوا . . »[1] .

وقال الصادق (ع) في رواية يونس بن يعقوب : « يا يونس إنّ المؤمن أكرم على الله من أن تمر عليه أربعون لا يمحّص فيها ذنوبه ولو بغمّ يصيبه لا يدري ما وجهه » الحديث .

وفي (العلل) في قوله تعالى : **﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾** ومعنى ذلك أنه سبحانه يختبر عباده بالأموال والأولاد ليتبيّن الساخط لرزقه والراضي بقسمه وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب . . . وغير ذلك من الأخبار يطول الكلام بذكرها .

والتوجيه الذي ذكرناه في معنى الابتلاء كثير الدوران على ألسنة العرفاء وأنهم يفسرون صمود الأولياء في البلايا والمحن بهذا وأنهم حيث كانوا مشتاقين إلى صفاء باطنهم وتكميل نفوسهم وتنور قلوبهم وكانوا يرون أن الابتلاء وسيلة لبلوغهم إلى مقصدهم فكانوا يستقبلون البلاء باشتياق أشد من استقبالنا للرخاء . ولمولانا العارف الرومي في هذا المجال أبيات كثيرة لطيفة متفرقة في موسوعته

---

(١) بحار الأنوار ج ٥ ص ٢١٨ عن الكافي .

العرفانية (المثنوي المعنوي) ومنها ما يناسب ذكره قوله :

* اقتلوني يا ثقاتي لائماً   إن في قتلي حياتي دائماً
* إن في موتي حياتي يا فتى   كم أفارق موطني حتى متى
* فرقتي لو لم يكن في ذا السكون   لم يقل إنا إليه راجعون

وقال في مورد آخر بعد أبيات :

أقتلوني أقتلوني يا ثقات   إن في قتلي حياتاً في حياة
يا منير الخد يا روح البقا   اجتذب قلبي وجُد لي باللقاء
لي حبيب حبه يشوي الحشا   لو يشا يمشي على عيني مشا

فتحصّل من جميع ما ذكرنا أن الابتلاء من الله سبحانه لعبده يكون لأمور عمدتها تميّز أفراد البشر بعضهم عن بعض فيتميز السعيد من الشقي والمطيع من العاصي لا العلم بالامتياز فإنه من الله تعالى أزليّ ومحيط بكل شيء قبل إيجاده تعالى الخلق وأيضاً استكمال العبد من خلال الابتلاء واحتراق العناصر الدخيلة الخارجة عن حقيقة العبودية وإتمام الحجة على العباد ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة .

ومما ذكرنا ظهر أيضاً سر ما ورد في الأخبار : « إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » .

وللإمام الخميني (دام ظله) كلام في سرّ ابتلاء الأولياء نذكرها مترجمة ومنقولة بالمعنى تتميماً للفائدة قال (دام ظله) في شرح الحديث الخامس عشر من كتابه الأربعين حديثاً وهو ما رواه (الكليني) بإسناده عن أبي عبد الله (ع) قال : « إن في كتاب عليّ أن أشد الناس بلاء النبيّون ثم الوصيّون ثم الأمثل فالأمثل » . الحديث .

قال دام ظله ما حاصله : إعلم أن كل عمل صادر من الإنسان بل كل عمل يقع في مُلك البدن ويكون مدركاً للنفس أعمّ من أن يكون من فعلها أو من فعل الغير . يوجد منه أثر في النفس سواء أكان من الحسنات أو من السيئات وقد عبّر عن هذا الأثر الحاصل في النفس في لسان الروايات بالنقطة البيضاء والنقطة السوداء . وسواء أكان الأمر الحاصل من اللذائذ أو الآلام ، مثلاً يحصل للنفس من كل لذّة لها من المأكول والمشروب والمنكوح وغيرها أثر وتوجد في باطن الروح علاقة ومحبة لتلك اللذة فيكون توجه النفس إليها أكثر وكلما استغرقت النفس في لذاتها ومشتهياتها الدنيوية يكون حبّ النفس لهذا العالم أشد وركونها واعتمادها أكثر فتربى النفس وترتاض بعلاقتها بالدنيا وتستحكم جذور هذه المحبة بكثرة اللذات وتنمو شجرة حبّ الدنيا في القلب بازدياد وسائل العيش والراحة ، وكلما ازداد التوجه إلى الدنيا نقص التوجه إلى الحق تعالى وعالم الآخرة بتلك النسبة إلى حدّ فتبلغ النفس من ذلك إلى حدّ لَوْرَكَنَتْ إلى الدنيا بكليتها وصارت وجهتها إلى المادة والدنيا تماماً سلب منها التوجه إلى الحق تعالى وإلى دار كرامته بالمرة فتصير ممن أخلد إلى الأرض واتبع هواه .

فالاستغراق في بحر اللذائذ والمشتهيات النفسية يوجب حبّ الدنيا وحبّ الدنيا يوجب النفرة والانزجار عن غيرها والتوجه إلى الملك يسبب الغفلة عن الملكوت ، كما أن الأمر بالعكس في الآلام والأمور غير الملائمة للنفس ، فإن صورة إدراك النفس الألم وامراً غير ملائم لها توجد في النفس النفرة منه ، وكلما ازدادت هذه بصورة شدة ، ازدادت النفرة كثرة. فمثلاً طبع الإنسان يتنفر من البقاء في بلد يبتلى فيه بالأمراض والعاهات والأمور غير الملائمة الداخلية والخارجية وينصرف عن البقاء في مثل ذاك البلد ولو علم بلداً أحسن من هذا البلد وبريئاً من الأمراض والآلام ارتحل إليه لا محالة ، وإن لم يتمكن من

الرحيل ، فيتعلق قلبه به ويرتحلُ إليه بقلبه ، فالإنسان إذا كانبما يراه من هذا العالم كله بلايا والأيام والأمور غير ملائمة للنفس ، وصار مَعْرضاً لأمواج الفتن والمحن والأسقام فتنفر منه قهراً أقلّ العرجة عليه ، ولم يركن إليه ولو اعتقد عالماً آخر خالياً من هذه المصائب وفضاءً واسعاً فارغاً عن كل محنة وألم ليسافر إلى ذلك العالم وإذا لم يتمكن من السفر الجسماني فيسافر إليه سفراً روحانياً ويرسل قلبه إليه . ومن الواضح إنَّ جميع المفاسد الروحانية والأخلاقية والأعمالية من حب الدنيا والغفلة عن الحق تعالى وعالم الآخرة و « حبّ الدنيا رأس كل خطيئة » .

كما أن المبدأ لجميع الإصلاحات الروحانية والنفسانية الأخلاقية والأعمالية هو التوجه إلى الحق تعالى وإلى دار كرامته وعدم العلاقة والحب للدنيا وعدم الاعتماد إلى زخارفها . فظهر من هذه المقدمة أن الله تعالى كلما كانت عنايته وألطافه المقدسة إلى عبد أكثر كان صرفه عن التعلق بهذا العالم والركون إلى زخارفه أكثر فيوجه إليه سيول البلاء وأمواج الفتن والمحن لتنصرف روحه وتنزجر عن هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها فيتوجه بمبلغ إيمانه إلى دار الآخرة ويوجه قلبه شطره ولو لم تكن لشدة ابتلاء الكمّل حكمة سوى هذه لكفت .

وقد أشير إلى ذلك في الروايات الشريفة منها ما رواه محمد بن يعقوب الكليني بإسناده عن أبي جعفر (ع) قال : « إن الله تعالى ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهدية من الغيبة ولتحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض » .

ولا يتوهم أن حبّه تعالى لبعض عباده وشدة عنايته المقدسة جزاف وبلا جهة بل المؤمن إذا خطا خطوة لله سبحانه فتتوجه إليه عناية الله تبارك وتعالى وسبب له أن يخطو خطوة أخرى كما في الحديث « من قدِم إلي شبراً أقدم إليه ذراعاً » ، ومثل مراتب الإيمان وتهيئة أسباب التوفيق مثل إنسان يمشي في الظلمة

وبيده مصباح كلما خطا خطوة أضاء لـه ويهديـه إلى خطوة أخـرى ، فكلما تقـدم الإنسان إلى عالم الآخرة كان الطريق أوضح وشملته العنايات الإلهية أكثـر وتهيأت له وسائل التوجه إلى عالم القـرب ، والنفرة من عـالم البعد . انتهى مـا أردنا من نقل كلامه (دام ظله) .

ومن الأسرار المهمة ، في ابتلاء أولياء الله وأحبـائه ، أنهم يتـوجهون عنـد الابتلاء إلى الله تعالى ويناجونه ويتضرعون إلى جنابه المقدس ويستـأنسون بـذكره وفكره ، وهذا من الغرائز البشـرية ، إنـه عند الابتـلاء يتشبث بكل مـا يحتمل أن ينجيه من ذلك الابتلاء وأما في وقت السلامة والراحة يغفل عنه .

ولكن الخواص من عباد الله حيث أنهم لا يعرفون مـلاذاً يلوذون به سـوى الله سبحانه فيتوجهون إلى جنابه المقدس ، والله سبحانه بلطفه الخاص ، وعنايته المخصـوصة لهم ، ليسبب وسـائل الانقـطاع إليه تعـالى لهـم ولكن هـذه النكتـة بالنسبة إلى الأنبياء العظام والأولياء الكمّل غير صحيحة لأنهم أعـظم شأنـاً من أن يتوجهون إلى الدنيا حتى يقطعهم الله سبحانه عن التوجـه إلى الدنيـا بالابتـلاء بل هم منقطعون إليه تعالى دائماً في السرّاء والضرّاء .

يقول الإمام الخميني (دام ظله) : إنه من المحتمل أنهم (ع) أدركـوا بنور باطنهم ، وبمكاشفاتهم الروحانية ، إنَّ الله تعـالى ليس له نـظر لطف وعنـاية إلى هذا العالم وزخارفه والدنيا وما فيها ذليلة في جنابه ، وليس لها قيمة ، ولذا اختاروا الفقر على الغنى ، وآثروا البلاء على الراحة[1] .

---

(١) وقد أشير في الروايات الشريفة إلى هذا المعنى ففي بعضها مـا مضمونـه أن جبرئيـل (ع) جاء بمفـاتيح خـزائن الأرض إلى رسول الله (ص) وعرضها عليه (ص) وقال بأنه (ص) لو اختارها لم ينقص من مقاماتـه الأخرويـة شيء فلم يقبلها رسول الله (ص) تواضعاً لله تعالى .

وفي الكافي مسنداً إلى الصادق (ع) في حديث أن الكافر ليهون على الله حتى لو سأله الـدنيا بمـا فيْها أعـطاه ذلك ليس هذا إلاَّ من هوان الدنيا على الله وحقارتها في نظره .

وهذه النكتة التي أشـار إليها الإمـام دام ظله من أسرار المحبـة وآثارهـا ولا يدركها من لم يذق قلبه حـلاوة حب الله تعالى ، فـإن المحب لا يرغب شيئـاً لا يكون محبوباً للمحبوب بل يكون مُعرضاً عنه .

عن الصـادق (ع) : « بينا أميـر المؤمنين في نفر من أصحـابه إذ أهـدي له طست خوان فالوذج فقال لأصحابه مدّوا أيديكم فمدوا أيديهم ومدّ يده ثم قبضهـا فقالوا يا أمير المؤمنين أمرتنا أن نمـدّ أيدينـا فمددنـاها ومـددت يدك ثم قبضتهـا . فقال : إني ذكرت أن رسول الله (ص) لم يأكله فكرهت أكله » .

قال المحدث القمي بعد نقل هذه الرواية الشريفـة الجميلة في كتابـه القيم

= وفي حديث يرويه الإمام دام ظله ما معناه أن الله تعالى منذ خلق عالم الأجسام لم ينظر إليه نظرة واحدة بلطف وفي كلام أمير المؤمنين (ع) ألا حرّ يدع هذه اللماظة لأهلها ـ واللماظة بالضم بقية الطعام في الفم ـ يـريد بـه الدنيا لدناءتها .

وفي خطبته المعروفة بالشقشقية أما والذي فلق الحبـة وبرأ النسمـة لولا حضـور الحاضـر وقيام الحجـة بوجـود النـاصر ومـا أخذ الله على العلمـاء ألا يقارّوا على كـظة ظالم ولا سغب مـظلوم لألقيت حبلها على غـاربهـا ولسقيت آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز (أي ما تنثره النعجة من أنفها) .

وفي موعظة أبي جعفر (ع) لجابر ما الدنيا وما عسى أن تكون الدنيا هل هي إلاّ طعام أكلته أو ثوب لبستـه إلى أن قال فأنزل الدنيا كمنزل نزلته ثم ارتحلت عنه أو كمال وجدته في منامك واستيقـظت وليس معك منـه شيء إني إنما ضربت لك هذا مثلاً لأنها عند أهل اللب والعلم بالله كفيء الظلال .

وفي الكافي عن الصادق (ع) مرّ رسول الله بجـدي أسـك أي مصـطلم الأذنين اصطلام : القـطع ملقى على مزبلة ميتاً فقال لأصحابه كم يساوي هذا فقالوا لعلّه لو كان حيّاً لم يساو درهماً فقال النبي (ص) والـذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذا الجدي على أهله .

وفي رواية عنه (ص) لو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخيـر جناح بعـوضة مـا سقى فيها كـافراً شـربة مـاء . السفينة = دنا .

وفي رواية زيد الزراد عن الصادق (ع) أنه قال لي في وصف المؤمنين والـذي نفسي بيـده إن في الأرض في أطرافها مؤمنين ما قدر الدنيا كلها عندهم تعدل جناح بعوضة ولو أن الدنيـا بجميع مـا فيها وعليهـا ذهبة حمـراء على عنق أحـدهم ثم سقط عن عنقه مـا شعرهـا أي شيء كان على عنقـه ولا أي شيء سقط منها لهـوانها عليهم إلى أن قال واشوقاه إلى مجالستهم ومحادثتهم يا كرباه لفقدهم ويا كشف كرباه لمجالستهم .
سفينة البحار = دنا .

(سفينة البحار) في زهد أمير المؤمنين أقول : إني ذكرت من فعل أمير المؤمنين (ع) هذا ما فعل ابنه العباس (ع) يوم عاشوراء فإنه روي أنه دخل الفرات واغترف غرفة من الماء فلما أراد أن يشرب ذكر عطش الحسين (ع) وأهل بيته فرمى الماء ولم يشرب مع عطشه قطرة من الماء ولقد أجاد من قال :

بذلت أبا عباس نفساً نفيسة — بنصْر حسين عزّ بالجد عن مثل
أبيت التذاذ الماء قبل التذاذه — فحسن فعال المرء فرع على الأصل
فأنت أخو السبطين في يوم مفخر — وفي يوم بذل الماء أنت أبو الفضل

ومن أسرار ابتلاء المؤمنين والأولياء ما أشير إليه في الأخبار بأن لهم عند الله درجة لا ينالونها إلاَّ بالابتلاء . ففي (الكافي الشريف) عن الصادق (ع) قال : « إنه ليكون للعبد منزلة عند الله فما ينالها إلاَّ بإحدى الخصلتين : إما بذهاب ماله أو ببلية في جسده » . وجاء في أخبار استشهاد الحسين (ع) أنه (ع) رأى رسول الله (ص) في المنام فقال له : «إنَّ الله شاء أن يرَاك قتيلاً وإنَّ لك عند الله درجة لا تنالها إلاَّ بالشهادة » .

وتفصيل هذا الإجمال هو أن العالم بأجمعه مرتبط بعضه ببعض . ففي عالم الطبيعة والمادة ، نرى أنَّ الإنسان ـ مثلاً ـ مرتبط بالعالم بكل وجوده ، فإنه يجوع وإذا أكل الطعام يشبع ، ويظمأ ، وإذا شرب الماء يرتفع عطشه ، فلا بد هنا من وجود رابط بين الجوع والطعام والعطش والماء . وهكذا إذا مرض الإنسان يشرب الدواء الكذائي فيشفى ، فهنا ارتباط بين صحة الجسم وذلك الدواء . أضف إلى ذلك الخصوصيات الملحوظة في الدواء كمّاً وكيّفاً وأنواع الأمراض كمّاً وكيفاً . فعالم الطب بهذه السعة يرتبط بصحة الإنسان بمعنى أنه بين الصحة وهذا العالم ارتباط دقيق بحيث لو انحرف الطبيب من إحدى هذه الارتباطات لم يؤثر الدواء لأن الرابط غير موجود ولولا هذه المناسبات بين العلل

والمعلولات لأثّر كل شيء في كـل شيء وهو بـاطل قـطعا . فهـذا المثال الـذي ذكرناه لموجود واحد في هذا العالم وهكذا جميـع موجـوداته من الحيـوان والنبات والجماد فالرابط العام بين أجـزاء العالم بعضهـا مع بعض ، ويمكن أن يعبّـر عنه بالحكمة الإلهية موجـوده ، وهكذا بين سفليـات هذا العـالم وعلويـاتـه ، بين كرة الأرض والشمس والقمر والكواكب ، كلها بعضها مـع بعض ﴿ **الذي خلق سبـع سموات طباقاً ما تـرى في خلق الرحمن من تفاوت فـارجع البصـر هل تـرى من فـطور (شقوق) ثم ارجـع البصر كـرتين ينقلب إليك البصـر خاسئـاً ذليلاً وهـو حسير كليل القلب** ﴾ .

فإذا تبيّن أن أجزاء هذا العالم بـأسرهـا مرتبـطة بعضها ببعض فنقـول : إنَّ هذا الارتباط والمناسبة موجودان بين الدنيا والآخرة أيضاً ، والدنيا مـرتبطة بـالآخرة ارتباط الظاهر بالباطن ، فإن عالـم الآخرة إنما هو بـاطن عالم الـدنيا كمـا حقق في محله ، وأيّد ببراهين أهل الحكمة والفلسفة ، ومكاشفـات أهل الكشف والمعرفة ، ومشاهدات أصحاب القلوب ، وأشير إلى ذلك كما تفـطن به الطباطبائي (قد) من قـوله تعـالى : ﴿ **يعلمون ظـاهراً من الحيـاة الدنيـا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ .

فإن هذه الآية تشعر بأن للحياة الدنيا شيئاً آخر غير ظاهرها وأنها هي الآخرة لمكان الغفلة كما يستفاد من كلامك تقول لصاحبك [إنك أخذت بظاهر كـلامي وغفلت عن شيء آخر] . دلّ قولك هذا على أن المغفول عنه باطن الكلام وهـو الشيء الآخر .

فالدنيا والآخرة مرتبطتـان إحداهمـا بالأخـرى ، وليس لنا علم بكيفيـة هذا الارتباط ، بل العالمون بـه هم الأنبياء (ع) ، فـإنهم يعلمون ذلـك بوحي من الله تعالى فهذه هي الجهـة الأصلية في حـاجة البشـر إلى الأنبياء وإلّا فـأمور معـايش

الإنسان وقوانينه وإن كان للأنبياء دور في تنظيمها ولكنها ليست مما يختص بهم بل الإنسان بنفسه يمكنه القيام بتنظيمها كما نجده الآن في كثير من البلاد التي ليس للأنبياء (ع) فيها موضع قدم فما يحتاج إليهم من غير بديلٍ ما ذكرناه من علمهم بما يوجب سعادة الإنسان أو شقاوته في ذلك العالم فإن البشر بالنسبة إلى هذا جاهل محض لا يعلم حرفاً واحداً من دون الأخذ من الأنبياء[1] وأنهم (ع) يعلمون بأن أي عمل في هذه الدنيا يؤثر في عالم الآخرة بأي نوع من أنواع التأثير كما أن الطبيب يعلم ارتباط الأجزاء الكيمياوية مع جسم الإنسان وتأثيرها في صحته ومرضه ، كذلك الأنبياء يعلمون ارتباط روح الإنسان مع الأعمال بالنسبة إلى عالم الآخرة ، وتأثيرها في سعادته وشقاوته ، وإن شئت قلت : حيث إنَّ

---

(١) وهذا المعنى الذي ذكرناه للحكمة وهو ارتباط أجزاء العالم بعضها ببعض هو المستفاد من موارد استعمال هذا اللفظ ومنه الإحكام بمعنى الاتقان أحكمه أي أتقنه وليس الاتقان إلا شدّة ارتباط بعض الشيء ببعض فالمحكم بمعنى المتقن وكلما يكون ارتباط بين أجزاء الشيء أشدّ يكون استحكامه أكثر وقد تفطن لهذا المعنى الطباطبائي (قدس سره) في قوله تعالى : ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ قال المقابلة بين الأحكام والتفصيل الذي هو إيجاد الفصل بين أجزاء الشيء المتصل بعضها ببعض والمتفرقة بين الأمور المندمجة كل منها في آخر تدل على أن المراد بالإحكام ربط بعض الشيء ببعضه الآخر إلى أن قال وعلى هذا فكون آيات الكتاب محكمة أولاً ثم مفصلة ثانياً معناه أن الآيات الكريمة القرآنية على اختلاف مضامينها وأغراضها ترجع إلى معنى واحد بسيط وغرض فارد أصلي لا تكثّر فيه ولا تشتت إلى آخر ما أفاد وأجاد .

ولكنه (قد) غفل عن هذا المعنى في تفسير قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة** ﴾ قال الحكمة على ما يستفاد من موارد استعمالها هي المعرفة العلمية المنافية وهي وسط الاعتدال بين الجهل والجربزة أقول : إنّ المعنى المطرد في جميع موارد الحكمة ومشتقاتها ما ذكرناه من الربط بين الأشياء والحكيم من أدرك هذا الربط كما أن الدرجة الأعلى من هذا العالم وهي الربط بين الدنيا والآخرة مختصة للأنبياء وليس للبشر فيها حظّ ونصيب إلاّ من قبلهم (عليهم السلام) وهذا هو المصرح به في الآيات كقوله تعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾ فالمبعوث إليهم وهم كافة البشر ﴿ **وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً** ﴾ هم الأمّيون وما كانوا عالمين شيئاً مما علمهم رسول الله (ص) فالأنبياء هم معلمو البشر ولهم حق التعليم على كافتهم وما ذكر في الآية الشريفة من تلاوة آيات الله وتزكية الأميين وتعليمهم الكتاب والحكمة من خاصة الرسول الله (ص) كما يستفاد ذلك من ذيل الآية الشريفة ﴿ **وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾ .

لكل عمل مُلكي صورة ملكوتية كما ذكرناه مراراً ، فالأنبياء بنور الوحي يرون صور الأعمال في عالم الآخرة ، والمناسبة الموجودة بينهما وبين السعادة والشقاوة ، فالنبي (ص) يعلم بأن للحسين (ع) درجة لا ينالها إلاَّ بالشهادة ، أي أن الصورة الملكوتية للشهادة لا تحصل إلاَّ بوقوعها في عالم الملك ، فلكل بلاء ومحنة صورة ملكوتية رابطة بين سعادة الإنسان وسعادة روحه في الآخرة ، أو إن الدرجات الأخروية هي بنفسها صورة الإعراض عن الدنيا والإقبال على الحق تعالى التي تحصل بالابتلاء . فلذلك قال (ع) : « إنه ليكون للعبد منزلة عند الله فما ينالها إلاّ بإحدى الخصلتين إمّا بذهاب ماله أو ببلية جسده » .

هذه جملة ما يمكننا أن نقوله في سر ابتلاء عباد الله في هذه الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم ﴾ :

معنى « كلا » ظاهر في المقام بناء على ما ذكرنا من معنى الآية وأنه ردّ على مّا زعمه الإنسان بأن الكرامة عند الله ، والهوان والذلّة ، تدوران مدار النعم الظاهرية ، من الغنى والثروة ، والفقر وتقدير المعيشة ، بل الأمر ليس كذلك وكل منهما مما ابتلي به الإنسان من قبل الله ، فيمكن أن يكون إكراماً حقيقياً إذا نجح في الامتحان ، ويمكن أن يكون إذلالاً ومهانة ، إذا لم ينجح ، وهكذا يصح معنى الردع كيف ما فسّرنا الآيتين السابقتين إنما الكلام في معنى الإضراب الذي بعد كلاّ :

قال الطباطبائي (قد) : وفي قوله : ﴿ بل لا تكرمون اليتيم . . . الخ ﴾ إضراب يؤكد الردع بذكر بعض التنعم الذي لا يجامع الكرامة البتة كعدم إكرامهم اليتيم بأكل تراثه ، ومنعه منه ، وعدم التحريض على إطعام المسكين ، حبّاً للمال ، فالفطرة الإنسانية لا ترتاب في أن لا كرامة في غنى هذا شأنه » انتهى .

ولا يخفى بعد هذا التوجيه من ظاهر الآية .

وقال الفيض (قده) في معنى الإضـراب : أي بل فعلهم أسـوأ من قولهم وقال الطبرسي (قده) في تفسيره جوامع الجامـع كلا ردع عن هـذا القول . . إلى أن قال : بل يفعلون مـا يستحقون بـه الإهانـة فلا يؤدون مـا يلزمهم في المال إذا أكرمتهم بالإكثار منه من إكرام اليتيم إلى آخر ما ذكره .

وقال صاحب (تفسيرروح البيان):في قـوله تعـالى : ﴿ بل لا تكـرمون اليتيم ﴾ انتقال من بيان سوء أقواله إلى بيان سـوء أفعالـه ، والتفات إلى الخـطاب للإيذان باقتضاء ملاحظة جنايته السابقة لمشافهته بالتوبيخ تشديـداً للتقريـع وتأكيـداً للتشنيع . ويمكن أن يوجه ماذكره بأنهم لم يكتفوا بسوء أقوالهم بل انتقلوا من سوء القول إلى سوء الفعل ، ولا يكرمون اليتيم إلى آخر الآيات . ولعل مـا ذكره هـذا المفسّر بالتوجيه الذي ذكرناه أحسن ما رأيت في معنى الإضراب في الآية الشريفة ولكن في النفس من جميع ما ذكر في معنى الإضراب شيء .

﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ :

عدم إكرام اليتيم يشمل عدم إعطائه شيئاً أو إعطائه بالإهـانة وعـدم التكريم فلا وجه لما ذكره الطبـاطبائي (قـدس سره) من اختصـاص عدم الإكرام بحرمـانه عن تـراث أبيه قـال : عدم إكـرامه : حـرمانـه من تراث أبيه ، كما كانوا يحرمون صغـار الأولاد من الإرث وتركـه صفر الكف بلغ به الجهد ما بلغ انتهى .

ويؤيد ما ذكرنا مضافاً إلى معناه اللغوي ما ورد في وصية أمير المؤمنين (ع) بالنسبة إلى الأيتام من قوله (ع) : « الله الله في الأيتام لا تغبّوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم . . » فإن الغبّ كما في المنجد وغيره هو : المجيء يوماً وتـركه آخـر ومنه ما روي عنـه (ص) لأبي هريـرة : « زرني غبّاً تـزدد حبّاً » . فـالمعنى صِلُوا أفواههم بالطعام ولا تقطعوا عنها وهذا التعبير لا يصح إذا كـان لليتيم مال ولـذلك

قال الشارح المعتزلي ابن أبي الحديد : والظاهر أنه لا يعني الأيتام الذين لهم مال تحت أيدي أوصيائهم لأن أولئك الأوصياء محرّم عليهم أن يصيبوا من أموال اليتامى إلّا القدر النزر جداً عند الضرورة ثم يقضونه مع التمكن ومن هذه حاله لا يحسن أن يقال له لا تغبّوا أفواه أيتامكم ، وإنما الأظهر أنه يعني الذين مات اباؤهم وهم فقراء يتعين مواساتهم ويقبح القعود عنهم كما قال تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً** ﴾ انتهى .

وبالجملة لا شبهة في أن الإكرام أعمّ من الإعطاء ولذلك قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذىً** ﴾ فالإعطاء وإن كان في نفسه إكراماً إلّا أنه ربما يتعقبه المن والأذى فيكون تركه أفضل بنصّ الآية بل يمكن أن يقال إن الإعطاء لليتيم إذا كان من ماله فليس فيه إكرام له أصلاً ، بل منعه ظلم وقبيح لا إن إعطاءه إكرام فمن أعطى اليتيم ماله المملوك له ولكن مع التحقير والإهانة لتشمله الآية الشريفة ﴿ **بل لا تكرمون اليتيم** ﴾ فلا وجه لتخصيص عدم الإكرام بحرمانه من تراث أبيه .

﴿ **ولا تحاضون على طعام المسكين** ﴾ :

حضّه حضاً على الأمر : حمله عليه وأغراه به ، تحاض القوم : تحاثّوا . فالحض بمعنى الحث والترغيب والتحميل وأصل تحاضون تتحاضون فحذفت إحدى التائين فالمعنى الإدامة في الحث والترغيب لأن كثرة المباني تدلّ على كثرة المعاني كما في قوله تعالى : ﴿ **تنزّل الملائكة والروح** ﴾ حيث كان أصله تتنزّل الملائكة فيدل على استمرار النزول ولذلك ورد فيما رواه (الكافي) عن أبي جعفر (ع) : « يا معشر الشيعة ! خاصمو بسورة إنّا أنزلناه في ليلة القدر تفلجوا » . الحديث .

فإن استمرار النزول المستفاد من تنزل لا بد له من المنزل إليه وليس ذلك إلاّ الإمام ولذلك قال أمير المؤمنين (ع) في رواية أن رسول الله قال للتيمي والعدوي هل تعلمان من المنزل إليه بذلك فيقولان أنت يا رسول الله فيقول نعم فيقول (ص) هل تكون ليلة القدر من بعدي ؟ فيقولان نعم ، قال : فيقول : فهل ينزل ذلك الأمر فيها ؟ فيقولان نعم ، فيقول : إلى من ؟ إلى آخر الحديث وسيجيء لذلك مزيد توضيح في تفسير إنّا أنزلناه في ليلة القدر فانتظر .

وبالجملة يستفاد من قوله تعالى : ﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ أمور :

منها الترغيب والحث على إطعام المساكين ولا يكفي مجرد إطعام الإنسان المساكين من دون ترغيب الناس إلى هذا العمل الإنساني وسيجيء لذلك مزيد توضيح في تفسير الآية ﴿ ولا يحضّ على طعام المسكين ﴾ من سورة ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾ فانتظر .

ومنها إنَّ المطلوب لله تعالى هو الاستدامة على هذا الحثّ والترغيب والإكثار منه لما ذكرنا من دلالة كثرة المباني على كثرة المعاني[1] .

ومنها إنَّ للمساكين سهم في أموال الأغنياء كما هو ظاهر قوله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ واللام للملكية ويستفاد ذلك من العدول

---

(١) ولهذا الترغيب أثر إيجابي وأثر سلبي وأما الأثر الايجابي فهو أنه ربما لا يستطيع الانسان ان يقوم بشخصه لسد حوائج المحتاجين فيستعين إلى قضاء حوائجهم بحثّ الساهرين على العمل كما يشاهد ذلك كثيراً في الخدمات العامة كبناء المساجد والمستشفيات وغيرها فإنها تقام غالباً بمعاونة غير واحد من الناس وتكون يد الله مع الجماعة .
وأما أثره السلبي فإن الإنسان إذا ترك ترغيب الناس إلى ذلك فرّبما ينجر ذلك إلى أن يترك هو نفسه أيضاً هذا العمل فإن من يبخل على الغير أن يعطي من ماله فهو بالاعطاء من مال نفسه أبخل وبالعكس من ذلك إذا رغّب الغير بعمل الخير فربما يؤثر هذا في نفسه فيكون هو أيضاً راغباً به .

من الإطعام إلى الطعام فإن الإضافة هنا بمعنى اللام كغلام زيد أي غلام لزيد فطعام المسكين أي إطعام المسكين واللاّم ظاهرة في الملكية كما ذكرنا .

ثم إنَّ المراد من المسكين من لا شيء له والفقير الذي له بعض ما يقيمه .

وفي تفسير الإمام العسكري (ع) ما يدلّ على تأويل المسكين بضعفاء الشيعة وأن إعطاءهم وإطعامهم وتعليمهم العلوم واستخلاصهم من أيدي أعدائهم النواصب قال (ع) إن محبّي محمد وآله مساكين مواساتهم أفضل من إطعام الفقراء والذين هم سكنت جوارحهم وضعفت قواهم عن مقابلة أعداء الله الذي يعيّرونهم بدينهم ويسفّهون أحلامهم ألا فمن قوّاهم بفقهه وعلّمهم حتى أزال مسكنتهم قضى لله بذلك حقاً على لسان النبي . الخبر .

كما أنه ورد تأويل طعام المسكين بحقوق آل محمد (عليهم السلام) كما في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ **ولا يحض على طعام المسكين** ﴾ قال : حقوق آل محمد التي غصبوها .

﴿ **وتأكلون التراث أكلاً لمّاً** ﴾ :

اللّم بمعنى الجمع والضم لمّ الشيء : جمعه وضمّه كما في المنجد وأيضاً فيه اللّمة المرة من لم . الشدة وجميع هذه المعاني تصح في الآية بأن يكون المراد توبيخهم بأكلهم الميراث بالجمع بين الحلال والحرام فإنهم كانوا غير مهتمين بأن المورث من أين جمع المال وكيف تحصل به أمن الحلّ أو من الحرام وأيضاً كانوا لا يقتنعون بنصيبهم من المال بل يجمعون نصيبهم ونصيب غيرهم فإنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون نصيبهم أيضاً وهذا المعنى يستقيم في اللّم بمعنى الضم أيضاً كما هو ظاهر ولكن الأولى المعنى الثالث وهو الشدّة لأنه لو كان اللّم بمعنى الشدّة يستفاد معنى الجمع والضم أيضاً بالكناية التي

هي أبلغ من التصريح مضافاً إلى أنه يمكن أن يكون إشارة إلى أن أولئك الذين أصابوا مالاً كثيراً من طريق الإرث من دون كدّ يمين أو عرق جبين فيصرفونه في سبيل إرضاء شهواتهم وأهوائهم إسرافاً وتبذيراً دون أن يصرفوه فيما يكون خيراً لهم في دنياهم وعقباهم ويمكن أن تستفاد من الآية الشريفة نكتة أخرى أيضاً :

وهي : إن الآية الشريفة بعدما تبين بتعبيرها هذا كثرة حرصهم على جمع المال والبخل في إنفاقه مع أنهم لم يتعبوا أنفسهم في تحصيله وجاءهم من غير سعي وكد فإذا كانوا يبخلون في إنفاق هذا المال فهم في إنفاق ما حصّلوه بالسعي والتعب أبخل فتكون الآية التالية كتوضيح وتأييد لهذا المعنى وهي قوله تعالى : ﴿ **وتحبون المال حبّاً جمّاً** ﴾ وقد ظهر مما ذكرنا أن ما ذكره الطباطبائي (قد) في تفسير الآية ليس في محله . قال (قد) : اللّم أكل الإنسان نصيب نفسه وغيره وأكله ما يجده من دون أن يميز الطيب من الخبيث والآية تفسير لعدم إكرامهم اليتيم كما تقدم . انتهى .

فإنه لا موجب لتخصيص الآية بعدم إكرام اليتيم مع كون معناها عاماً وشاملاً خصوصاً على ما ذكرنا في أعمية الإكرام من الإعطاء وغيره لأنه لا تعطي الآية على ما فسّره الطباطبائي معنى غير ما أعطته الآية ﴿ **بل لا تكرمون اليتيم** ﴾ وهذا بخلاف ما إذا فسَّرناه بما ذكرنا فإن أكل الميراث لمّاً موبخ عليه سواء أكان لليتيم أو لغيره هذا وفي الآية إشارة أيضاً إلى أنه كان بينهم حِكم إلهي للميراث قد بدَّلوه أو أنهم تركوا العمل به .

﴿ **وتحبّون المال حبّاً جمّاً** ﴾ :

الجمّ الكثير من كل شيء أي حباً كثيراً مع حرص شديد ذمّهم سبحانه على حبّهم المال حبّاً كثيراً وقد يستفاد من الآية أن أصل حب المال ليس مذموماً وإنما المذموم حبّه الشديد كما في نظيرته التي ما قبلها

من أكل الميراث لمّا فإن المذموم ليس أصل أكل الميراث بل المذموم لمّه وعدم المبالاة بالحلال والحرام وهكذا حبّ المال وذلك لأن حبّ المال أمر طبيعي لا يتخلص منه غالباً لأنه من فروع حبّ النفس الذي هو فطري لكل إنسان بل لكل حيوان ولذلك يجلب إلى نفسه الخير ويدفع عنها الشر وقد أطلق الخير على المال في غير مورد من القرآن قال تعالى : **﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقّاً على المتقين ﴾** وقال تعالى حكاية عن سليمان فقال : **﴿ إني أحببت حبّ الخير عن ذكر ربّي ﴾** حيث أطلق الخير على الصافنات الجياد .

وقال رسول ار (ص) : نعم المال الصالح للرجل الصالح وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال إذ لا يمكن الوصول إليهما إلّا به وقال تعالى ممتناً على عباده : **﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾** وقال (ص) : كاد الفقر أن يكون كفراً وهو ثناء على المال فالمال إذا صرف في سبيل الله فهو محمود وحبّه يرجع إلى حبّ الله فلا يكون مذموماً إنما المذموم الحبّ الشديد الذي يمنع الإنسان من صرفه في سبيل الخيرات بل ربما يمنعه عن صرفه حتى في صالح نفسه وليس بقليل في المجتمع من يجمع المال ولا يصرفه حتى لنفسه بل يعيش في حياة ضنكة حرصاً على المال وعلى جمعه فهذا المسكين يعيش عمراً في حالة الفقر خوفاً من أن يعيش يوماً واحداً في حالة الفقر ولذلك ورد في الروايات أن مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز كلما ازدادت على نفسها لفّاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمّاً وبالجملة المذموم من حبّ المال الحبّ الجمّ الذي يمنع صاحبه عن أداء حقوق الله وحقوق الناس لا مطلق الحبّ ومما ذكرنا يظهر أنه لا وجه لما ذكره الطباطبائي (قد) في تفسير الآية قال : **﴿ وتحبون المال حبّاً جمّاً ﴾** الجمّ الكثير

العظيم والآية تفسّر عدم تحاضّهم على طعام المسكين كما تقدم . انتهى

﴿ كلا إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً ﴾ :

يمكن أن تكون كلا ردعاً ثانياً عمّا يقـوله الإنسـان في حالتي الفقـر والغنى كما قاله الطباطبائي (قدس سره) قال ردع ثان عمّا يقوله الإنسان في حالي الغنى والفقـر وقولـه : « إذا دكت الأرض » إلى آخره في مقام تعليل الردع ومحصل المعنى ليس كمـا يقولـه الإنسان فـإنه سيتـذكـر إذا قـامت القيـامـة إلى آخـر مـا أفـاد (قدس سـره) ويمكن أن تكون ردعـاً مستقلاً وراجعـاً إلى أكل التـراث لمّـاً وحبّ المـال جمّاً ويكـون قولـه تعالى : ﴿ إذا دكّت الأرض ﴾ في مقـام التعليل للردع وأن الإنسان إذا قامت القيامة يتذكر أن جمعه المال في الدنيا من حيث تهيـأ من حلّ أو حرام وأكله فيها غير مبال بالحـلال والحرام صـار وبالاً عليـه وخسرانـاً وليس له اليوم شيء مما جمعه وتركه في الدنيا سوى الحسرة والنـدامة كمـا حكى الله سبحانه : ﴿ وأما من أُوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أُوت كتابيه ولم أدر ما حسابيـه ما أغنى عني مـاليه هلك عني سلطانيـه ﴾ فيتمنى عند ذلـك ويقول : ﴿ يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ .

﴿ إذا دكّت الأرض دكّـاً دكّـاً ﴾ : الـدكّ بمعنى الـدق وظـاهـر تفسيـر الطباطبائي أن الدك الثاني تأكيد للأول حيث قـال الدكّ هـو الدق الشـديد فكـأنه استفاد الشدّة من تأكيد الأول بالثاني وإلا فليست الشـدة مأخـوذة في معناه لغـوياً على مـا في المنجد وقـال بعض المفسّرين إنّ الثـاني ليس تأكيـداً للأول بل هـو دكّ آخر سـوى الأول والمعنى إذا دكّت الأرض دكّاً متتـابعاً وضـرب بعضها ببعض حتى انكسـر وذهب كل مـا على وجهها من جبـال وأبنية وقصور حين زلزلت زلزلة بعد زلزلة وحـركت تحريكـاً بعد تحـريك وصارت قاعاً صفصفاً لا تـرى فيها عـوجاً ولا أمتـاً ولا يخفى مناسبـة هذا

الوعيد لما تقدم في صدر السورة من بيان حال قوم عاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وقد بناها شداد بن عاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد وأنهم بنوا تلك القصور والأبنية العظيمة الشامخة ولكن زلزلة الساعة تدكّ جميع تلك القصور والصخور والجبال وتصير هباءً منثوراً .

﴿ وجاء ربّك والملك صفّاً صفّاً ﴾ :

المراد من مجيء الربّ ظهور آيات قدرته وآثار هيبته وقيل بحذف المضاف كما في الروايات أي أمر ربّك ففي العيون باسناده عن علي بن فضال عن أبيه قال سألت الرضا (ع) عن قول الله عز وجل ﴿ وجاء ربّك والملك صفّاً صفّاً ﴾ فقال : إن الله سبحانه لا يوصف بالمجيء والذهاب تعالى عن الانتقال إنما يعني بذلك وجاء أمر ربّك .

قال الطباطبائي (قدس سره) في تفسير الآية : نسبة المجيء إليه تعالى من المتشابه الذي يحكمه قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وما ورد في آيات القيامة من خواص اليوم لتقطع الأسباب وارتفاع الحجب عنهم وظهور أن الله هو الحق المبين . انتهى .

أقول : لو لم نقل بأن ما استشهده (قده) به للتحكيم هو أيضاً من المتشابهات وقوله تعالى : ﴿ صفّاً صفّاً ﴾ قال بعض المفسّرين : أي مصطفين أو ذوي صفوف والأولى أن يقال أي مصطفين وذوي صفوف فيستفاد كونهم مصطفين من صفّاً الأولى وكونهم ذوي صفوف من صفّاً الثانية والمعنى أن الملك يجيء بالصف لا متفرقاً وليس صفّاً واحداً بل صف بعد صف على ما ذكرنا في معنى ﴿ دكّاً دكّاً ﴾ وأنه ليس للتأكيد بل كل واحد منهما مستقل أي دكّاً بعد دكّ .

﴿ وجيىء يومئذٍ بجهنم ﴾ :

قال الطباطبائي (قدس سره) لا يبعد أن يكون المراد بالمجيء بجهنم إبرازها لهم كما في قوله تعالى : **﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾** وقوله : **﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾** أقول لا يبعد أن يكون المراد من البروز المجيء عكس ما قاله الطباطبائي فإن المجيء بجهنم قد فصل في الروايات من طريق العامة والخاصة .

عن رسول الله (ص) قال : « إذا كان يوم القيامة تقاد جهنم بسبعين ألف زمام بيد سبعين ألف ملك فتشرد شردة لولا أن الله حبسها لأحرقت السموات والأرض » .

وروى القميّ عن الباقر (ع) قال : « لما أنزلت هذه الآية **﴿ وجيء يومئذٍ بجهنم ﴾** سئل عن ذلك رسول الله (ص) فقال : أخبرني الروح الأمين أن الله لا إله غيره إذا برز الخلائق وجمع الأولين والآخرين أتى بجهنم تقاد بألف زمام أخذ بكل زمام مائة ألف تقودها من الغلاظ الشداد لها هدة وغضب وزفير وشهيق وأنها لتزفر زفرة فلولا أن الله أخّرهم للحساب لأهلكت الجميع ثم يخرج منها عنق فيحيط بالخلائق البر منهم والفاجر ما خلق الله عبداً من عباد الله ملكاً ولا نبياً إلاّ ينادي ربّ نفسي نفسي وأنت يا نبي الله تنادي أمتي أمتي ثم يوضع عليها الصراط أدق من الشعر وأحدّ من حدّ السيف عليه ثلاثة قناطر فأما واحدة فعليها الأمانة والرحم والثانية فعليها الصلاة والثالثة فعليها ربّ العالمين لا إله غيره فيكلفون الممر عليها فيحبسهم الرحم والأمانة فإن نجوا منها حبستهم الصلاة فإن نجوا منها كان المنتهى إلى ربّ العالمين وهو قوله **﴿ إن ربّك لبالمرصاد ﴾** والناس على الصراط فمتعلق بيد فتزل بقدم ويستمسك بقدم والملائكة حولها ينادون يا حليم اعف واصفح وعد بفضلك وسلم وسلم والناس يتهافتون في النار

كـالفراش فيهـا فإذا نجـا ناج بـرحمـة الله مـرّ بهـا فقـال الحمـد لله وبنعمتـه تتم الصالحات وتزكو الحسنات والحمد لله الذي نجّاني منـك بعد أيـاس بمنّه وفضله إن ربّنا لغفور شكور » . وفي الكافي ما في معناه .

فبعد هذه الروايات الصـريحة في معنـاها لا وجـه لتوجيـه المجيء بجهنم بالبروز والظهور فيتبعه التوجيه في البروز والظهور أيضاً ثم يتعدى أمـر التوجيـه من جهنم إلى الجنـة ويستلزم ذلك طـرح الروايـات المتواتـرة أو تأويلهـا على خلاف ظاهرها كما ارتكب ذلك جمع من الحكماء والفلاسفة .

﴿ يومئذٍ يتذكر الإنسان ﴾ :

قال الطباطبائي (قده) أي يتذكر أجلى التذكر أن مـا كان يؤتـاه في الدنيـا من خيـر أو شرّ كـان من ابتلاء الله وامتحـانه وأنـه قصـر في أمـره هـذا مـا يفيـد السياق . انتهى .

أقـول : قال في المنجـد ذكّره الشيء وذكّـره به : جعله يـذكـره القـوم . وعظهم فلو جعلناه يتذكّر بالمعنى الأول فما قاله الـطباطبـائي (قده) من أنـه يتذكّـر أجلى التـذكّر لعلّه استفـاد كون التـذكّر أجلى من دلالـة كثرة المبـاني على كثـرة المعاني كما أشرنا إلى ذلك غير مـرة وأما لـو أخذنـاها بـالمعنى الثاني فـالمراد أن الإنسان يقبل الوعظ في ذلك الوقت لكن لا ينفعه فاتعاظه إمّا بمشاهدة آثار أعماله ونتـائجها أو بمشـاهدة أعمـاله بنـاء على المحقق من تجسم الأعمـال في النشـأة الآخرة وقال بعض المفسّرين [أو يتعظ أي يقبل التذكير والإرشـاد الذي بلغ إليـه في الدنيا ولم يتعظ ولم يقبله في الدنيا فيتعظ به في الآخرة فيقـول يا ليتنـا نرد ولا نكذب بآيات ربّنا] وهذا الاتعاظ يستلزم الندم على تقصيراته والندم توبة ولكن لا توبة هناك لفوت الوقت قال تعالى : **﴿ يوم يـأتي بعض آيات ربّـك لا ينفع نفسـاً إيمـانهـا لم تكن آمنت من قبـل أو كسبت في إيمـانهـا خيـراً ﴾** وقـال أميـر

المؤمنين (ع) : « وإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل » . « رحم الله امرءاً سمع حكماً فوعى ودعي إلى إرشاد فدنا وأخذ بحجزة هاد فنجا راقب ربّه وخاف ذنبه قدم خالصاً وعمل صالحاً . . اغتنم المَهَل وبادر الأجل وتزود من العمل » .

﴿ يقول يا ليتني قدّمت لحياتي ﴾ :

أي يقول يا ليتني عملت لأجل حياتي هذه التي هي الحياة الحقيقية النافعة الدائمة فإن الحياة الدنيوية هي صورة الحياة والإنسان يعيش في هذه الدنيا بين الأموات لأن أجزاء هذا العالم كلها ميت ظاهراً وما كان له روح كالحيوان فهو أيضاً بالنسبة إلى الإنسان كالميت ولا علاقة حيويّة بينه وبين الإنسان العادي اللهم إلّا الذين تجاوزوا عن ظاهر هذا العالم إلى باطنه وأدركوا الحياة المعنوية الموجودة في أجزاء العالم فليس بحثنا فيهم وإنما نبحث عن أفراد مثلنا الذين أخلدوا إلى الأرض والطبيعة ولم يرتقوا منها إلى الملكوت فالحياة بالنسبة إليهم لهو ولعب كما قال تعالى : **﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾** فالحياة الحقيقية في الدارة الآخرة وهي دار تفور منها الحياة كما ذكره بعض أصحاب القلوب .

فالإنسان لما يتذكر بما يرى من أهوال القيامة يقول تمنّياً : **﴿ يا ليتني قدّمت لحياتي ﴾** فإن الأعمال في الدنيا تنقل إلى الآخرة قبل ورود الإنسان بتلك النشأة إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ وقد قال الله تعالى : **﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ ﴿ ولتنظر نفس ما قدّمت لغد ﴾** فلذلك ورد في لروايات أن رسول الله (ص) رأى ليلة المعراج قصراً في الجنة يبنى بأيدي الملائكة والملائكة تشتغل حيناً وتقف عن العمل حيناً آخر فسأل جبرئيل عن ذلك فقال : إن هذا القصر لعبد مؤمن ومواده تأتي من الدنيا فحينما يتوقف المؤمن عن العمل تتوقف الملائكة عن بناء القصر .

وقد تكرر هذا في كلمات أمير المؤمنين (ع) في خطبه ورسائله ففي كتاب له إلى عبد الله بن عباس : « وليكن سرورك بما قدّمت وأسفك على ما خلّفت وهمّك فيما بعد الموت » .

ويحتمل أن تكون اللّام في « لحياتي » بمعنى في أي حياتي الدنيا وهذا احتمال ثالث وهو أن يكون المراد الحياة في الجنة فإن أهل الجنة هم المتنعمون بنعمة الحياة الحقيقية وأمّا أهل النار فليسوا بأحياء ولا أموات **﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴾** نعوذ بالله من عذابه .

﴿ فيومئذٍ لا يعذب عذابه أحد ﴾ :

الضمير راجع إلى الله تعالى والعذاب بمعنى التعذيب كالسلام بمعنى التسليم وكذا الوثاق بمعنى الإيثاق وهو ما يشدّ به من الحديد والحبل والمعنى لا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواه فإن الأمر يومئذٍ لله وإنما الملائكة والزبانية هم المنفذون لأوامر الله وقال الطباطبائي (قد) ما يقرب من هذا المعنى فإنه بعدما قال إنَّ ضمير عذابه ووثاقه لله تعالى قال والمعنى لا يعذب عذاب الله أحد من الخلق ولا يوثق وثاق الله أحد من الخلق أي أن عذابه ووثاقه تعالى يومئذٍ فوق عذاب الخلق ووثاقهم وهذا المعنى يفترق مما ذكرناه بأنه في مقام التشديد في الوعيد وفي سياق « أيقنت أنك أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة » والمعنى الأول في مقام بيان استقلال الله تعالى في حكومته على سياق **﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار ﴾ ﴿ والأمر يومئذٍ لله ﴾** ويجوز أن يكون الضمير عائداً للإنسان أي لا يعذب أحد من الزبانية أحداً مثل ما يعذبون هذا الإنسان الذي لم يتذكر في الدنيا ولم يقدم شيئاً لحياته الآخرة . هذا كلّه على ما هو المعروف من قراءتها من بناء الفعلين

على المعلوم وأمّا بناء على قراءتهما على بناء المجهول كما عن الكسائي ويعقوب فالضمير عائد إلى الإنسان لا محالة والمعنى لا يعذب أحد يومئذٍ مثل عذاب الإنسان ولا يوثق أحد يومئذٍ مثل وثاقه كما ذكره الطباطبائي وفي الكشاف هي قراءة رسول الله وعن أبي عمرو أنه رجع إليه في آخر عمره قال بعض المفسّرين وظاهره يقتضي أن يكون عذابه أشدّ من عذاب إبليس إلاّ أن يكون المراد أحد من هذا الجنس كعُصاة المؤمنين نسأل الله السلامة والعافية في الدّارين .

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ :

اعلم أن المحققين على أن النفس الإنسانية أعني النفس الناطقة شيء واحد ولكنها تختلف حسب ميلها إلى العوالم من العوالم العالية والسافلة ولكنها في أغلب أحوالها تميل إلى الشهوات وعالم الطبيعة لإلفها بالعالم الحسّي وقرارها في عالم الطبيعة فلا جرم إذا خليت وطباعها انجذبت إلى هذه الحالة فلهذا قيل إنها من حيث هي أمّارة بالسوء إلا من رحمه الله وأدركته العناية الإلهية فالنفس الإنسانية ذات مراتب ودرجات عديدة وأمهات مراتبها بحسب تمكّن الشيطان منه وتمكنه في دار الرحمن وتوسطه منهما ثلاث وتسمى الأولى بالأمّارة وهي التي تأمر بالسوء أي بما تهواه سواء أكان في صورة الخير أو في صورة الشرّ ولا ترتدع ولا تندم قال تعالى حكاية عنه : **﴿ وما أبرىء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربّي ﴾** .

النفس في هذه المرتبة قرينة شيطان وشريكته في إضلال صاحبها قال أمير المؤمنين (ع) وقد مرّ بقتلى الخوارج يوم النهروان : « بؤساً لكم لقد ضرّكم من غرّكم فقيل له : من غرّهم يا أمير المؤمنين فقال : الشيطان المضلّ والأنفس الأمّارة بالسوء غرتهم بالأماني وفسحت لهم بالمعاصي ووعدتهم الإظهار فاقتحمت بهم النار » .

والثانية : تسمى باللوامة وهي التي تلوم نفسها في كل ما تأتي خيراً كان أو شرّاً وتحزن على ما فعلت من حيث شرّيته أو من حيث نقصانه عن درجة الكمال أو من حيث نسبته إلى نفسها فصاحب هذه النفس لا يخلو عن مراقبة أفعاله وعن محاسبة نفسه في جميع أموره خيرها وشرّها فهو يحاسب نفسه ويوازن أعماله كما قال (ع) : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا » فكأن القيامة قد قامت له والميزان قد نصب له ولعلّه لهذه المناسبة قال تعالى : ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللّوامة** ﴾ .

وتسمى الثالثة بالمطمئنة لاطمئنانها إلى ربّها وخروجها عن أنانيتها التي هي سبب اضطرابها وأنسها بربّها فكما أن الإنسان إذا جالس إنساناً موافقاً لطبعه يستأنس به ويسكن إليه قلبه وكلما زادت المجالسة يزداد القلب سكوناً إليه إلى أن يصل إلى مرتبة الاطمئنان بحيث لا يجد في قلبه أي اضطراب حينما يكون عنده كذلك لو حصل له الأنس بالله تعالى وذلك بكثرة المجالسة معه تعالى كما ورد في الحديث القدسي « أنا جليس من ذكرني » . فبكثرة الذكر تكثر مجالسته مع الله ولكثرة المجالسة يزداد له الأنس بالله تعالى إلى أن يحصل له الإطمئنان ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ وأعلى مرتبة الاطمئنان وسكون القلب إنما هو بالوصول إلى غاية الغايات في اليقين والمعرفة « يا غاية آمال العارفين » وقال بعض العارفين : النفس المطمئنة هي التي تنوّرت بنور القلب حتى تخلّت عن صفاتها الذميمة وتحلّت بالأخلاق الحميدة .

﴿ **ارجعي إلى ربّك** ﴾ :

قيل أي إلى ما وعد لك من الكرامة والزلفى واختلفوا في وقت هذا الخطاب فقال قوم يقال لها ذلك عند الموت فيقال لها ارجعي إلى الله راضية بما أعطيت من الثواب وقال الحسن إذا أراد الله قبضها اطمأنت إلى الله ورضيت عن

الله ورضي الله عنها وقال آخرون إنما يقال لها ذلك عند المبعث . قال ابن عباس الخطاب لروح المؤمن يأمرها الله بالرجوع إلى الجسد فيكون قوله : « إلى ربّك » أي إلى بدن صاحبك فسمي ذلك ربّاً كما يقال ربّ الدار وربّ الدّابة .

وروي عن الصادق (ع) أنه سئل هل يكره المؤمن على قبض روحه قال لا والله إنه إذا أتاه ملك الموت ليقبض روحه جزع عند ذلك فيقول له ملك الموت يا ولي الله لا تجزع فوالذي بعث محمداً (صلى الله عليه وآله) لأنا أبرّ بك وأشفق من والد رحيم لو حضرك افتح عينيك فانظر قال ويتمثل له رسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع) وفاطمة (ع) والحسن (ع) والحسين (ع) والأئمة (ع) من ذريّتهم فيقال له هذا رسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع) وفاطمة (ع) والحسن (ع) والحسين (ع) والأئمة (ع) رفقاؤك فيفتح فينظر فينادي روحه مناد من قبل ربّ العزّة فيقول يا أيتها النفس المطمئنة أي إلى آل محمد (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته ارجعي إلى ربّك راضية بالولاية مرضيّة بالثواب فادخلي في عبادي يعني محمد (ص) وأهل بيته وادخلي جنتي فما من شيء أحب إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي .

﴿ فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ :

لا ريب أن الإضافة في عبادي إضافة تشريفية أي في زمرة عبادي الصالحين المختصين بي الكاملين في مقام العبودية لاطمئنانهم إلى ربّهم وانقطاعهم إليه وإلاّ فجميع المخلوقين عباد الله تبارك وتعالى كما قال : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبداً ﴾ ومن هنا يعلم أن إضافة الجنة أيضاً إلى نفسه تعالى إضافة تشريفية خاصّة ولا توجد هذه الإضافة في القرآن إلاّ في هذا المورد ويحتمل أن تكون الآيتان مبشرتين إلى مقامين لصاحب النفس

المطمئنة فالدخول في زمرة عباد الله المختصين سعادة روحانية ولذّة معنوية والدخول في جنّة الله ودرجاتها سعادة جسمانية ولذّة ظاهرية وقد جمعهما الله سبحانه لصاحب النفس المطمئنة فهنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم وللعاشق المسكين ما يتجرع .

ونختم تفسير هذه السورة المباركة برواية شريفة رواها المحدِّث البحراني في تفسيره عن داود بن فرقد قال : قال أبو عبدالله : اقرأوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم فإنها سورة الحسين بن علي وارغبوا فيها رحمكم الله. فقال له أبو أسامة وكان حاضر المجلس : كيف صارت هذه السورة للحسين خاصة؟ فقال : ألا تسمع إلى قوله تعالى : **﴿يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾** إنما يعني الحسين بن علي فهو ذو النفس المطمئنة الراضية المرضية وأصحابه من آل محمد صلوات الله عليهم الراضون عن الله يوم القيامة وهو راض عنهم وهذه السورة في الحسين بن علي وشيعته وشيعة آل محمد خاصة من أدمن قراءة الفجر كان مع الحسين بن علي في درجته في الجنة إن الله عزيز حكيم.

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَـذا البَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَـذا البَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَو مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ * والَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ المَشْئَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾ .

صدق الله العلي العظيم

لا أقسم : الأخذ بظاهر الآية يوجب الالتزام بخلاف الواقع لأن ظاهرها عدم القسم مع أنه من المعلوم أن المقصود منها القسم ، ولذلك وقع المفسرون في تعب لتوجيه الآية .

فمنهم من قال بأن « لا » زائدة فمعنى لا أقسم أي أقسم وهذا القول ساقط قطعاً لأنه مضافاً إلى ما أشرنا إليه غير مرة من أنه لا معنى للحرف الزائد في القرآن فإنه ليس شعراً حتى يقع الشاعر في مضيقة القافية فيأتي بحرف زائد وليس

بكلام العاجز عن الكلام ليأتي بحرف زائد ، مضافاً إلى أن هذا النحو من الزيادة في الكلام لا نعقل له وجهاً أصلاً . فما معنى أن يقـول الإنسان لغيـره لا أجيئك اليوم ثم يذهب إليه ويقول كانت « لا » زائدة ؟! .

ومنهم من قال : بأن إضافة حرف « لا » على القسم كانت معمولة عنـد العرب وقد يشاهد ذلك في الأشعار الجاهلية كقول النابغة الشاعر المعروف ، من شعراء قبل الإسلام ، في مقام الاعتذار إلى النعمان :

فـلا لعمر الـذي قد زرتـه حججاً   وما هريق على الأنصاب من جسـد

ففي البيت المذكور مع أن النابغـة أراد أن يقسم ويبرىء نفسـه أتى بحرف « لا » .

وفيه إن إضافة حرف لا على القسم في كلام العرب مسلّمة به وهذا الاستعمال صحيح قـطعاً ولا كـلام لأحد في صحـة ذلك ولم يقـل أحد بـأن لا أقسم في القـرآن غير صحيـح حتى ليستدل بصحتـه بقول النـابغة أو غيـره وإنمـا الكلام في معنى هذا القسم الصحيح .

ومنهم من قال بأن أصـل لا أقسم لأقسم « بفتح الـلام » وأيّد قـوله بقـراءة أحد القراء حيث قـرأ لأقسم وبمصحف عثمان في الآيـة لا أقسم بالنفس اللوّامـة حيث كتبت لأقسم بـدون الألف ولكن عند القـراءة ورفع الصـوت بها تمـدّ اللام لتوجه المخاطب فتكون لا أقسم .

وقال بعض بأن إضافة « لا » للتعظيم أو للتحقير فمن التعـظيم قولـه تعالى ﴿ لا أقسم بهـذا البلد ﴾ بمعنى أن هذا البلد لعـظمتـه لا أقسم بـه ومن التحقيـر ﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ بمعنى أن الشفق ليس لـه أهمية لأن يقسم بـه وغير ذلـك من الأقوال والآراء .

وأجودها عندي ما ذكره بعض من أن « لا » لتأكيد القسم وذلك لأن العرب إذا أرادوا أن يؤكدوا أمراً بالقسم فينفونه أولاً ثم يؤكدونه بالقسم .

وهذا النوع من القسم يكون غالباً في مورد توهم خلاف المقسم عليه نفياً فيثبته بالقسم بقوله لا والله لأفعلن ذلك أو إثباتاً فينفيه بالقسم بقوله لا والله ما فعلته .

قوله تعالى ﴿ بهذا البلد ﴾ :

اتفق المفسرون على أن المراد من البلد هذا مكة المعظمة وإنما أقسم الله تعالى بها لفضلها وجلالها في الجاهلية والإسلام .

﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ :

حال من المقسم به والمخاطب هو النبي (ص) والحلّ إمَّا من الحلول بمعنى النزول أي والحال أنك نازل بمكة وحالٌ بها ، وهذا البيان فريد فضلها بحلول النبي بها بعد أن كانت شريفة بنفسها ، أو إنَّ مورد النظر من شرافتها حيث صارت مقسماً بها هو حيثية كونها محلاً للنبي (ص) وقيل إنَّ الآية تتضمن تعريضاً للمشركين من أهل مكة بأنهم لجهلهم يرون أن يخرجوا منها من به مزيد شرفها ويؤذوه أو إنها تعريض للمشركين بأنهم كيف يكذبونك ويؤذونك مع أنك تعيش فيهم ومعهم ولم يشاهدوا منك إلاَّ الصدق والأمانة والأخلاق الكريمة فالآية في سياق ﴿ قد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ .

هذا إذا كان الحال ناظراً إلى زمان الحال ، وأما إذا كان ناظراً إلى زمان المستقبل ، كقوله تعالى : ﴿ إنك ميت ﴾ بناء على أن يكون معنى ميت أي أنك ستموت[1] ، فتكون الآية مبشرة بانتصاره (ص) على المشركين وأن مكة ستفتح

(١) وإما بناء على أن يكون ميت بمعنى من يجوز في حقه الموت وعدم البقاء فلا يكون شاهداً للمدعي .

بيده وهو سيحلّ فيها منتصراً هذا إذا كان الحلّ من الحلول .

وأما إذا كان بمعنى الحلال إمَّا في الحال أو في الاستقبال فبناء على كونه حالاً في زمان الحال تكون الآية تعريضاً للمشركين ، بأنهم يحترمون مكة ، ويرونها حرماً ، ويجتنبون عن كل ما يوجب هتك حرمته من قتل للحيوانات ، وقطع الأشجار ، ولكنك حِلٌّ لهم ويحلّون إيذاءك ، ويريدون أن يثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك مع أنك أولى بالحرمة .

وأما بناء على أنها ناظرة إلى الاستقبال فمعناها أنك ستكون محلاً في هذا البلد وتدخل مكة يوم فتحها مُحِّلاً فتقتل من شئت من أهلها وتأسر من شئت فيحلّ لك ذلك لا لغيرك .

كما قال (ص) : « إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض لم تحل لأحد قبلي ولا تحلّ لأحد بعدي وإنما أحلّت لي ساعة من نهار فهي حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة » .

فتكون الآية وعداً من الله سبحانه لنبيّه بأن يُحلَّها له كما أنه (ص) أحلّ دماء قوم يوم فتح مكة وحرّم دماء آخرين وقتل ابن أخطل وهو متعلق بأستار الكعبة .

ومثله (ص) في ذلك مثل طبيب جراح رأى من المصلحة قطع عضو من البدن فليس له أن يتأثر من الإحساسات والعواطف النسائية وتأخذه الرّقة بحال المريض فهو (ص) خليفة الله في أرضه ، والمظهر التام لأسمائه ، وصفاته ، فكما أن الله تعالى أرحم الراحمين ، في موضع العفو والرحمة كذلك هو أشد المعاقبين ، في موضع النكال والنقمة ، وكذلك يكون خليفته لا محالة .

﴿ ووالد وما ولد ﴾ :

قيل إنَّ المراد من الوالد هو إبراهيم ومن الولد إسماعيل فإنه ولده بلا واسطة ومحمد (ص) فإنه ولده بواسطة إسماعيل .

أو الوالد آدم (ع) وما ولد ذريته وهذا هو الأنسب لمضمون الجواب وهو ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في كبد** ﴾ فحيث إنَّ الجواب أمر متعلق بجميع الناس فمن المناسب أن يكون القسم أيضاً شاملاً لجميع الإنسان .

وقيل : الوالد هو النبي ، وما ولد : أمته المرحومة ، نظير قوله (ص) أنا وعلي أبوا هذه الأمة والأصح أن يقال : إنَّ الآية تشمل جميع الإنسان ، لأن « والد » نكرة تشمل جميع الآباء بل الأمهات وليست هناك قرينة لفظية ولا معنوية تخصها لفرد معين سواء آدم وإبراهيم وغيرهما وهكذا ما ولد فإنه أيضاً عام يشمل كل مولود والتناسب أيضاً محفوظ فإن الله سبحانه أقسم بأشرف بقاع الأرض وهي مكة وأشرف أنبيائه وأشرف مخلوقاته وهو الإنسان وجواب القسم أيضاً كما ذكرنا أمر يرتبط بالإنسان .

وللمفسر الكبير الطباطبائي هنا كلام لا نفهمه ولعله سهو من قلمه الشريف فإنه قال في تفسير ﴿ **ووالد وما ولد** ﴾ لزوم نوع من التناسب والارتباط بين القسم والمقسم عليه يستدعي أن يكون المراد بوالد وما ولد مَنْ بينه وبين البلد المقسم به نسبة ظاهرة وينطبق على إبراهيم وولده إسماعيل وهما السببان الأصليان لبناء بلدة مكة والبانيان للبيت الحرام قال تعالى : ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل** ﴾ وإبراهيم هو الذي سأل الله أن يجعل مكة بلداً آمناً قال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً** ﴾ انتهى .

أما أولاً : فإن التناسب والإرتباط بين القسم (بمعنى المقسم به) والمقسم عليه وإن كان ربما يعد من محسّنات الكلام أما لزومه كما ذكر (قدس سره) فمحل نظر ويظهر ذلك بالرجوع إلى أقسام القرآن كقوله تعالى

﴿ **والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل** ﴾ وهكذا في عرفنا أيضاً .

وأما ثانياً : فإنه على فرض تسليم لزوم ذلك فهذا لا يستدعي التناسب بين والد وما ولد وبين البلد المقسم به ، فإن كلاهما مقسم به ، وليس أحدهما مقسم به ، والآخر مقسم عليه ، فتفطن ! .

ولعله (قدس سره) أراد لزوم التناسب بين الأقسام ، وذكر التناسب ـ بين القسم والمقسم عليه ـ خطأ من قلمه الشريف ويؤيد هذا الاحتمال قوله في بيان الاحتمالات في والد وما ولد : وقيل المراد بوالد وما ولد آدم وذريته جميعاً بتقريب أن المقسم عليه بهذه الأقسام خلق الإنسان في كبد ، وقد سنّ الله في خلق هذا النوع وإبقاء وجوده سنة الولادة ، فقد أقسم في هذه الآيات بمحصول هذه السُنَّة ، وهو الوالد وما ولد على أن الإنسان في كدّ وتعب بحسب نوع خلقته من حين يحيى إلى أن يموت ، قال (قد) : وهذا الوجه في نفسه . لا بأس به لكن يبقى عليه بيان المناسبة بين بلدة مكة ، وبين والد وكل مولود في الجمع بينهما في الأقسام ، هذا ولكن لزوم التناسب بين الأقسام أيضاً محل نظر كما في قوله تعالى : ﴿ **والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين** ﴾ وقوله : ﴿ **والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود** ﴾ فإن التناسب فيها لو كان فهو خفي غير ظاهر وعلى أي تقدير ليس التناسب بين الأقسام أصلاً يبتنى عليه تفسير الآيات .

قوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في كبد** ﴾ :

كبد البردُ القومَ : شق عليهم وضيق ، وفي كبد حال من الإنسان بمعنى مكابداً وقيل إنَّ في واللام متقاربان كقول إنما أنت للعناء والنصب وإنما أنت في العناء والنصب . وربما تجيء إحداهما في مقام الآخر نالمعنى خلق الإنسان للكبد

ولا يخفى الفرق بينهما . فإن قوله ﴿ في كبد ﴾ يدل على أن الكبد قد أحاط به إحاطة الظرف بالمظروف ، والمعنى أن الإنسان قد خلق في تعب ، وأنه محاط به ، وعيشه مقرون بالمقاساة ، ومشوب بالمكابدة .

قال أمير المؤمنين (ع) في وصف الدنيا : « أي عيش الإنسان في الدنيا دار بالبلاء محفوفة وبالقدر معروفة . . العيش فيها مذموم ، والأمان فيها معدوم ، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة ، ترميهم بسهامها ، وتغيهم بجمالها .

فإذاً الإنسان في كبد يكابد شدائد الدنيا وشدائد الآخرة ، ولا يقاسي أحد من المخلوقين مثل ما يقاسي الإنسان . وقال بعض معناه : خلق متصباً معتدل القامة ، وكل شيء خلق فإنه يمشي مكباً ولا يمشي متصباً إلاَّ الإنسان ، ولعله أخذ من قولهم كبّدت الشمس السماء أي صارت في وسطها وذلك لأن الشمس إذا كانت في وسط السماء ترسل أشعتها مستقيمة إلى الأرض . ولكن أصل الدعوى غير صحيحة فقد شاهدنا على شاشة التلفاز بعض الحيوانات تمشي متصبة منها ما يسمى الغوريلا .

وذكر (المنجد) من معاني الكبد القوة ونقل هذا المعنى من مقاتل وهذا المعنى لو صحّ يناسب مورد النزول . فإنها كما قيل نزلت في أسيد بن كلدة من جمح ويكنى بأبي الأشدين وكان شديداً قوياً يضع الأديم العكاظي تحت قدميه فيقول من أزالني عنه فله كذا وكذا فلا يطاق أن ينزع من تحت قدميه إلاَّ قِطَعاً ويبقى موضع قدمه ويناسب الآية التالية أيضاً وهي قوله تعالى : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ فإن ربط هذه الآية بما قبلها ، لا يخلو من صعوبة ، لو كان الضمير عائداً إلى الإنسان ولذلك تكلف صاحب (الميزان) في تفسير الآية وقال : « قوله تعالى : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ بمنزلة النتيجة لحجة الآية السابقة ، وتقريرها أن الإنسان لما كانت خلقته مبنية على كبد مظروفة له لا

ينال قط شيئاً مما يريد ، إلّا دون ما يريد ، أو غير ما يريد ، فهو محاط في خلقه ، مغلوب في إرادته ، مقهور فيما قدّر له من الأمر ، والذي يغلبه في إرادته ، ويقهره على التلبس بما قدر له ، هو الله سبحانه يقدر عليه من كل جهة ، فله أن يتصرف فيه بما يشاء ، ويأخذه إذا أراد ، فليس للإنسان أن يحسب أن لن يقدر عليه أحد ، فيدعوه ذلك إلى أن يعلو على الله ، ويستكبر عن عبادته ، أو يعصيه في بعض ما أمر به ، كالإنفاق في سبيله ، فيستكثره ويمتنّ به على الله ، أو يمكر به تعالى بعد ما عمله رياء وسمعة ، عملاً لوجهه الكريم فيقول ﴿ **أهلكت مالاً لبداً** ﴾ » انتهى .

وهذا الكلام ، وإن كان في نفسه كلاماً صحيحاً ، إلَّا أن انطباقه على الآية الشريفة لا يخلو عن تكلف كما ترى . وهذا بخلاف ما إذا قلنا بأن الكبد بمعنى الشدة ، كما ذكرنا ، وقد نزلت في أبي الأشدين. فمعناها حينئذٍ أيحسب ـ يعني أبا الأشدين ـ من قوته وبطشه أن لن يقدر عليه أحد ، أي يظن من شدته أن لا يقدر عليه الله ، ألم يعلم ذلك الشقي ، أن من خلق له القوة ، هو أقوى منه ، فتكون الآية في سياق قوله تعالى : ﴿ **وقالوا من أشد منّا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم أشد منهم قوة** ﴾ .

﴿ **يقول أهلكت مالاً لبدا** ﴾ :

يستفاد من الآية الشريفة أن ذلك الإنسان الجاهل لانهماكه في الدنيا لا يعتقد الآخرة ، ولا يرى أن الأعمال الصالحة في هذه الدنيا تفيده بعد هذه النشأة ، ولذلك يقول أهلكت مالاً لبداً . وضيَّعته .

قال الميبدي : « أي أنفقت مالاً كثيراً في عداوة محمد (ص). اللبد : الكثير الذي تراكب بعضه على البعض يقال : تلبد الشيء إذا كثر واجتمع ، ومنه اللبد . وكان الرجل كاذباً متسوّقاً في دعواه أنه أنفق مالاً كثيراً في عداوة النبي

فقال تعالى ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ انتهى .

فعلى ذلك ، مرجع الضمير هو أسيد بن كلدة الذي قيل إن الآية ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ نزلت فيه ، لأنه كان قوياً ولكن الطباطبائي (قدس سره) يقول سياق الآية وما يتلوها من الآيات إلى آخر السورة مشعر بأنه كان هناك بعض من أظهر الإسلام ، أو مال إليه فقد أنفق بعض ماله وامتنّ به مستكثراً له بقوله ﴿ أهلكت مالاً لبدا ﴾ فنزلت الآيات وردّ الله عليه بأن الفوز بميمنة الحياة ، لا يتم إلاّ باقتحام عقبة الإنفاق في سبيل الله والدخول في زمرة الذين آمنوا وتواصوا بالصبر والمرحمة ، ويؤيّد (قدس سره) ما ذكره بما في المجمع في الآية : قيل هو الحارث بن نوفل ابن عبد مناف وذلك أنه أذنب ذنباً فاستفتى رسول الله (ص) فأمره أن يكفّر فقال لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد (ص) ، عن مقاتل .

﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ :

لا شك في أن هذه إنكار لما هو لازم قول الإنسان اهلكت مالاً لبداً إنما الكلام في ربط هذا بذاك .

قال الطباطبائي (قد) : « ومحصل المعنى أن لازم إخبار الإنسان بإهلاكه مالاً لبداً أنه يحسب أنّا في غفلة وجهل بما أنفق ، وقد أخطأ في ذلك فالله سبحانه بصير بما أنفق » . انتهى .

ولكن على ما ذكرناه من الميبدي من أن الرجل كان كاذباً في دعواه أنه أنفق مالاً كثيراً في عداوة النبي (ص) تكون المناسبة بين الآيتين أوضح . فإن لازم الكذب أن يعتقد الكاذب بأن المخاطب لا علم له بحقيقة الحال ، وأما إذا علم بأنَّ المخاطب مطَّلع على أعماله فلا يكذب بل يستحيي من كذبه ، فالآية توبخ ذاك الإنسان بكذبه هذا ، وأن جرأته على هذا الكذب ناشىء من اعتقاده

بأنه لا يراه أحد ، فلا يعلم حقيقة أمره غيره ، فيكذب فالله سبحانه ينكر عليه ذلك بقوله ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين ﴾ :

النَّجد كما في المنجد : الوضوح والاستبانة . نَجَدَ الأمر : وضح واستبان . والنَّجْدُ أيضاً : ما أشرف من الأرض وارتفع . ولعل مرجع الثاني إلى الأول ونَجِدَ الرجل : عرق من عمل أو كرب فهو نَجِدْ . والمراد بالنجدين : طريق الخير وطريق الشر إما لوضوحهما واستبانتهما فالآية في سياق قوله تعالى : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ، وإما لما في سلوك كل منهما من الجهد والكدح .

« ألم نجعل له عينين » يبصر بهما « ولساناً » يعبّر به عما في ضميره « وشفتين » يستر بها ثغوره قاله الميبدي وفي التفسير ما لا يخفى : فإن الستر ليس فائدة للشفتين لتذكر مع العين واللسان كما هو ظاهر والظاهر والله العالم : إن الشفتين كجزء لا ينفك عن اللسان في الإستفادة منه فإنه لو أطبقت الشفتان فلا يقدر اللسان على التكلم أصلاً ولو كانتا مفتوحتين فلا يمكن التكلم بالحروف الشفوية فيبقى اللسان خالياً عن الفائدة التي هي الإخبار عمّا في الضمير . فإذاً ليس اللسان سبباً تاماً لما هو المقصود بل لا بد من انضمام الشفتين إليه ليتمم السببية له ولكن يمكن أن يقال أن العينين أيضاً كذلك بالنسبة إلى الجفنين فإنه لو [أطبق] الجفن تسقط العين عن الفائدة ففي الجانب السلبي تشارك العين مع اللسان في أنها ليست سبباً تاماً لفائدة الرؤية ، ولذلك ورد في الرواية أن الله يقول : « يا ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرّمت عليك فقد أعنتك بطبقين فاطبق ، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فاطبق » .

فإذا ما الوجه في عدم ذكر الجفنين ؟ .

والجواب : إنَّ العين ليست إسماً للحدقة فحسب بل كما في المنجد تطلق على مجموع الجَفن وما فيه من الحدقة فاغتنم .

﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ :

الإقتحام : الدخول في أمر بشدة . في المنجد اقتحم الأمر : رمى نفسه فيه بشدة ومشقة . والعقبة : المرقى الصعب من الجبال ، الطريق في أعلى الجبال .

فالمعنى إنَّ الإنسان لم يشكر تلك النعم الجليلة بالأعمال الصالحة وعبّر عنها بالعقبة وبالإقدام لها بالاقتحام لما في نفس الإنسان الكافر من صعوبة القيام بالأعمال الصالحة ، لأنها على خلاف هواه وسلوك هذا الطريق يستلزم مخالفة الشهوات النفسية المعبّر عنها بلسان النبي (ص) بالجهاد الأكبر .

وفي الآية إشارة إلى أن الصعود إلى المقامات العالية الروحية يستلزم صعوبة ومشقة ، ولا تحصل تلك المقامات بالكسل والتمتعات النفسية التي فيها راحة النفس ، فمن طلب العلى سهر الليالى وقال بعض المفسرين أن (لا) في المقام بمعنى ألا والمعنى على ما ذكره واضح أيضاً .

﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ :

هذا النوع من التعبير وقع متكرراً في القرآن وهو يعطي الأهمية والعظمة للمطلب ، وإنَّ العقبة أمر مهم وعظيمٌ والآيات التالية تبين المراد من العقبة ويفهم أيضاً أن الإتيان بهذه الأمور هو الإقتحام في العقبة وسلوك هذا الطريق .

﴿ فك رقبة ﴾ .

فك الشيء : أبان بعضه عن بعض . وفك العقدة : حلَّها . وفك

الأسير : خلّصه وأطلقه . والمراد هنا خلاص العبد من قيد الرقية . فمن المعلوم إنَّ العرب قبل الإسلام كانوا يعيشون على تربية الأغنام والمواشي ، ودخلت كثير من مصطلحاتهم في لسانهم ، واستعملوها في المعاني العالية ومن جملة تلك المصطلحات إنَّ أرباب المواشي إذا أرادوا أن يربطوا حيواناً بمكان ، ففي الأغلب يجعلون حبلاً في رقبته ويربطون الطرف الآخر للحبل بشجرة أو مسمار على جدار ونحو ذلك وإذا أرادوا أن يطلقوه فيحلون الحبل عن رقبته ، ففي المقام جعل قيد العبودية كالحبل المربوط ، وعتقه كحلّ القيد من رقبته ، ويحتمل كما قيل أن يكون المراد بفك الرقبة : أن يفك المرء رقبة نفسه من عذاب الله بالاشتغال بالأعمال الصالحة ، والاجتناب عن الأعمال السيئة ، حتى يصير بها إلى الجنة ، ويتخلص من النار كما أشار إليه الرسول (ص) في خطبة آخر شعبان : « أيها الناس إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكوها باستغفاركم » .

وأحسن من هذا ما قيل : أنْ يسعى الإنسان في فكاك قلبه عن قيد ما سوى الله وأسارة النفس ، فيصل إلى الحرية الكبرى ، فيكون قلبه سليماً على ما فسّره المعصوم (ع) بأنه قلب يلقى الله تعالى وليس فيه شيء سواه .

فعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴾ ذكراً لحدّ الأقل من الاقتحام وإنَّ من يعجز عن فك رقبةٍ ، فيطعم يتيماً أو مسكيناً ، فإن ذلك من أقرب الطرق إلى الله لما فيه من جبر قلوبهم المنكسرة ، والله تعالى يقول : « أنا عند المنكسرة قلوبهم » .

﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا متربة ﴾ :

هذه الآيات الثلاث تبين المرحلة الثانية من العقبة فأولها فكّ رقبة رقٍ أو فكّ رقبة نفسه عن العذاب والمرحلة الثانية هو الإطعام لهاتين الطائفتين .

لا ريب إنَّ الإطعام بنفسه أمر حسن ، مرغوب فيه عند العقل والشرع ،

ولا يختص بأفراد ولا زمان ولكنه يكون أحسن وأفضل إذا كان في ظروف وشرائط خاصة ، كما إذا كان الإطعام في زمان قحط وجوع وكان من يُطْعِم يتيماً ومن أقرباء المطعم ، أو مسكيناً قد لصق بالتراب من فقره وضره .

﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ :

هذه الآية تبين المرحلة الثالثة والرابعة للعقبة ، ولكن السياق قد تغيّر في هذه الآيات ، حيث كان التعبير في الآيات السابقة بالمصدر ، وكان السياق يقتضي أن يؤتى هنا أيضاً بالمصدر كقولنا . ثم الإيمان والوصية بالصبر والمرحمة ، ولكنه جيء بالفعل . فكأن الآية تعطي أن هذه الأعمال لا تقبل من أحد إلاّ إذا كان في زمرة المؤمنين الذي يوصي بعضهم بعضاً بالصبر على فرائض الله ، وأوامره والصبر عن ارتكاب المحرمات الذي هو أفضل أقسام الصبر ، ومن الذين يوصون بالرحمة والشفقة **﴿ أولئك ﴾** الموصوفون بهذه الصفات **﴿ أصحاب الميمنة ﴾** : أي الميامين على أنفسهم ، أو إنهم أصحاب اليمين أي يأخذون نحو اليمين إلى الجنة ويؤتون كتبهم بأيمانهم **﴿ وأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾** .

﴿ والذين كفروا بآياتنا ﴾ بمحمد وبالقرآن الذي نزّل عليه هم **﴿ أصحاب المشئمة ﴾** أي المشائيم على أنفسهم ، أو يؤخذون نحو الشمال إلى النار ، ويؤتون كتبهم بشمالهم **﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه هلك عني سلطانيه خذوه فغلّوه ثم الجحيم صلّوه ﴾** .

﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ : من أَصَدْتُ الباب وأَوْصدتُه : إذا أغلقته وأطبقته أي مطبَقَة أُغلقت عليهم أبوابُها فلا يخرج منها غم ولا يدخل فيها روح .

تكرار للدرس السابق به نكات لطيفة

﴿ وهديناه النجدين ﴾ :

قال أكثر المفسرين : يعني طريق الخير ، وطريق الشر المفضيان إلى الجنة والنار . فتكون الآية في سياق **﴿ إنا هديناه السبيل إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً ﴾** . والنَّجد كما في المنجد بمعنى الوضوح نَجَدَ الأمر وضح واستبان وأيضاً بمعنى ما أشرف من الأرض وارتفع وما سمي قسم من بلاد الحجاز بنجد لارتفاعه قال في المنجد : نَجْد : قسم من بلاد العرب مرتفع أعلاه تهامة ، واليمن ، وأسفله العراق ، والشام ، فعلى هذا ما فسّره أكثر المفسّرين يناسب معناه اللغوي أيضاً فإن طريق الخير والشر كالأرض المرتفعة ، واضح ومستبان يعرفه كل أحد ، ويميز أحدهما عن الآخر فالآية في معنى قوله تعالى : **﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾** .

﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ :

قال في المنجد : قحم في الأمر : رمى بنفسه فيه بلا روّية وقال أقحم فرسه النهر أدخله بعنف فيستفاد من الآية أن الأمور المذكورة فيما بعد تفسير للاقتحام من فك الرقبة أو الإطعام ينبغي أن تصدر من الإنسان من دون روّية فإنها خير محض ولا يحتاج إلى روّية بخلاف الأمور الدنيوية فإنها مختلطة بالخير والشر فلا بد من الرويّة والتأمل فيها فما كان الخير فيه غالباً على الشر فيأتي به وما كان الشر غالباً فيتركه بل ما كان الخير والشر فيه متساويان .

وبعبارة أخرى أي لا خير فيه ولا شر ، فالعاقل يتركه أيضاً ، ولا يضيع عمره فيما لا خير فيه ولكن أكثر الناس على خلاف ذلك فإنهم يقدمون على الأمور الدنيوية بلا روية أو بروية قليلة ولكن إذا عرض عليهم شيء من الأمور الأخروية فيتروّى فيه إلى حدّ ينجر الأمر إلى تركه .

وقيل في معنى الاقتحام الدخول في أمر شديد ومجاورته بصعوبة كما في المنجد اقتحم الأمر رمى نفسه فيه بشدة ومشقة فعلى هذا تدل الآية على أن المفسر به في الآية وهو فك رقبة أو إطعام . . . أمر شديد وعلى خلاف هوى النفس كما يستفاد هذا المعنى من لفظ العقبة أيضاً فإنها بمعنى الطريق الوعر الصعب . وفي المنجد العقبة المرقى الصعب من الجبال والطريق في أعلى الجبال فسواء أكانت العقبة بمعنى المرقى الصعب أو الطريق الذي يكون في أعلى الجبال تنبيء عن صعوبة الدخول في الأمر الذي لا بدّ من الاقتحام فيه كما ذكرنا .

﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ :

تعظيم لشأنها كما في نظائرها أو إن المراد ليس العقبة الصورية واقتحامها بلّ فك رقبة والرقبة اسم لعضو مخصوص من الجسم عبّر بها عن الجملة من باب تسمية الكل باسم جزئه كما يعبر عن الأغنام بالرأس وعن المركوب بالظهر فيقال له كذا رأس من الغنم أو كذا ظهر من الفرس وذهب الطباطبائي (قد) إلى أن فك رقبة خبر لمبتدأ محذوف والمبتدأ هو العقبة أي العقبة فك رقبة وقال فالمراد بالعقبة نفس الفك الذي هو العمل واقتحامه الإتيان به وبذلك ردّ قول من قال إنَّ هناك مضاف محذوف يعود الضمير إليه والتقدير وما أدارك ما اقتحام العقبة هو؟ أي الاقتحام فك رقبة وادعى (قدس سره) فساد هذا القول ولم نعرف وجهاً للفساد بل هذا القول أظهر لأن العقبة عين والفك فعل فلا يكون أحدهما تفسيراً للآخر وقيل :

إنَّ من المحتمل أن يكون المراد بفك الرقبة أن يفك المرء رقبة نفسه من عذاب الله بأن يشتغل بالأعمال الصالحة حتى يصير لها إلى الجنة ويتخلص من النار وهي الحرية الوسطى وأن يفك رقبة القلب من أسر النفس وقيد الهوى والتعلق بما سوى الله وهي الحرية الكبرى وهذا التفسير أنسب بمعنى

العقبة وتعظيم شأنها فعلى هذا قوله تعالى ﴿ **أو إطعام في يوم ذي مسغبة** ﴾ « أي في يوم المجاعة » ﴿ **يتيماً ذا مقربة** ﴾ « أي ذا قرابة في النسب » ﴿ **أو مسكيناً ذا متربة** ﴾ أي الملتصق بالتراب يكون من قبيل ذكر الخاص بعد العام وإشارة إلى مزيد فضل ذلك الخاص .

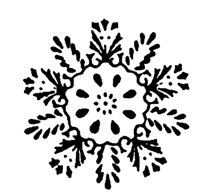
وللعارف الكاشاني في تأويلاته كلام لطيف في المقام قال (قدس سره) : « فك رقبة أي العقبة التي يجب اقتحامها تخليص رقبة القلب الأسير في قيد هوى النفس وفكها عن أسرها بالتجريد عن الميول الطبيعية بالكلية فإن لم يكن الفك بالكلية بالرياضة وإماتة القوى وقهر النفس فبتكلف الفضائل والتزام سلوك طريقها واكتسابها حتى يصير التطبع طباعاً وهو معنى قوله تعالى : ﴿ **أو إطعام في يوم ذي مسغبة إلى قوله وتواصوا بالمرحمة** ﴾ فإن الإطعام خصوصاً وقت شدة الاحتياج للمستحق الذي هو وضع في موضعه من باب فضيلة العفة بل أفضل أنواعها . والإيمان من فضيلة الحكمة ، وأشرفُ أنواعها وأجلُّها هو الإيمان العلمي اليقيني والصبر على الشدائد هو من أعظم أنواع الشجاعة وأخّره عن الإيمان لامتناع حصول فضيلة الشجاعة بدون اليقين والمرحمة أي التراحم والتعاطف من أفضل أنواع العدالة فانظر كيف عدد أجناس الفضائل الأربع التي يحصل بها كمال النفس بدأً بالعفة التي هي أولى الفضائل وعبّر عنها بمعظم أنواعها وأخص خصالها الذي هو السخاء ، ثم أورد الإيمان الذي هو الأصل والأساس وجاء بلفظة ثم لبعد مرتبته عن الأولى في الارتفاع والعلو ، وعبّر عن الحكمة به لكونه أمُّ سائر مراتبها وأنواعها ثم رتب عليه الصبر لامتناعه بدون اليقين وأخّر العدالة التي هي نهايتها ، واستغنى بذكر المرحمة التي هي صفة الرحمن عن سائر أنواعها ، كما استغنى بذكر الصبر عن سائر أنواع الشجاعة .

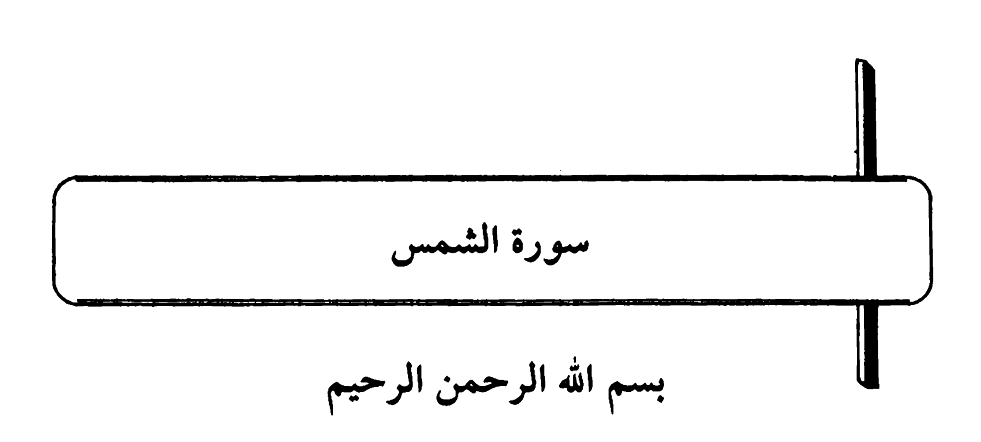
﴿ **أولئك أصحاب الميمنة** ﴾ :

أي الموصوفون بهذه الفضـائل هم السعـداء أصحاب اليُمن وسكّـان عالم القدس .

﴿ والذين كفروا بآياتنا ﴾ :

أي حجبوا عن هذه الصفات التي هي آيات الله الحقيقيـة التي تعرف بهـا ذاته هم أصحاب الشؤم وسكان عالم الرجس عليهم تستولي نار الطبيعـة الآثاريـة مطبقة عليهم أبوابها محبوسين فيها ممنوعين عن الروح والمراتب أبد الأبـدين والله أعلم . انتهى كلامه رفع مقامه .





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحٰيهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلٰيهَا * والنَّهَارِ إِذَا جَلَّٰهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشٰيهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَابَنٰهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّٰهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوٰهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوّٰيهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبٰهَا * ﴾ .

صدق الله العلي العظيم

في ثواب الأعمال والمجمع عن الصادق (ع) : من أكثر قراءة والشمس والليل والضحى وألم نشرح في يوم أو ليلة لم يبق شيء بحضرته إلا شهد له يوم القيامة ، حتىَ شعره وبشره ولحمه ودمه وعروقه وعصبه وعظامه ، وجميع ما أقلّت الأرض منه ، ويقول الرب تبارك وتعالى : قبلت شهادتكم بعبدي وأجزتها له ، انطلقوا به إلى جناني حتى يتخيّر منها حيثما أحب ، فأعطوه من غير منّ ولكن رحمة مني وفضلاً ، وهنيئاً لعبدي .

﴿ والشمس وضحاها ﴾ :

أقسم الله سبحانه بالشمس وهي من أكبر آيات الله ، وبضحاها أي إشراقها .

قال في المنجد : ضحا يضحو ضَحْواً ضُحُوّاً وضحيًّاً الرجل : برز للشمس وضحا الشيء : أصابته الشمس ، وبلوغها ضحىٰ النهار .

وإنما صار الضحى مقسماً به لأنه عند الضحى يكمل تجلّيها وظهورها ، وقيل ضحى : حين تطلع الشمس فيصفو ضوؤها .

وقال مقاتل : ضحاها أي حرّها ، كقوله تعالى في سورة طه : ﴿ وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[1] أي لا يؤذيك الحر .

﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ :

أي : تبعها إما في السير فيناسب ليلة الهلال لأنه يتبعها في الغروب فتغرب الشمس ثم يغرب الهلال ، ويمكن أن يراد أن القمرتِلْو الشمس في الطلوع والغروب بمعنى أن الشمس تغرب فيطلع تلو غروبها القمر وهو في الليالي الأواسط من العشر الثاني ، ولعل ذلك أنسب لأن القمر في تلك الليالي يكون بدراً وأشد ظهوراً ، أو أنه يتلوها في الإضاءة والنور الكامل كما قال الزجاج .

﴿ والنهار إذا جلّاها ﴾ :

قيل إن الضمير راجع إلى الأرض ، أي جلّىٰ الأرض ، كما عليه الطباطبائي أيضاً ، ولا شاهد له لعدم ذكرها فيما قبل ، أو أن الضمير

---

(١) سورة طه : الآية ١١٩ .

راجع إلى الشمس أي جلّى الشمس وكشفها بإضاءتها ، وهذا المعنى أصح من الأول ، غير أنه لا بد من القول بالتجوز لأن الشمس هي العلّة لوجود النهار وليس النهار موجباً لتجلّي الشمس بل الأمر بالعكس ، فحينئذٍ لا بد من القول بالمجاز في الإسناد كما هو كثير في لغة العرب ، وغيره من إسناد الأفعال إلى الأزمنة والأمكنة ، كقوله تعالى ﴿ **واسأل القرية التي كنا فيها** . . ﴾[1] أو قولهم : ليله قائم ونهاره صائم ، أو يقال إن البلد الفلاني يفسد الغريب إذا دخل والبلد الآخر يصلحه مثلاً ، مع أن المفسد والمصلح ليس نفس المكان بل أهله ، ولكن يستند الفعل إليه ، وهكذا في المقام ، فبدلاً من أن يقال الشمس متجلية في النهار قيل بأن النهار جلّاها .

﴿ **والليل إذا يغشاها** ﴾ :

أي : يغشى الشمس حين تغيب وتظلم الآفاق ، والكلام فيه هو الكلام في و﴿ **والشمس وضحاها** ﴾ فإن الليل لا يغشي الشمس بل الشمس بغيبوبتها توجد الليل ، ولكنه أسند إلى الليل مجازاً كأنه حجبها وغطاها ، وقيل في التعبير عن غشيان الليل بالمضارع وعن تجلية النهار بالماضي بعض الوجوه منها رعاية الفواصل كما اختاره الطباطبائي أيضاً ، وهذا الوجه غير صحيح لأنه يمكن أن يقال : والليل إذا غشاها بالتشديد ، والمعنى نفس المعنى ، لأن غشّى الشيء أي غطّاه كما أن غشى الأمر فلاناً أي غطّاه ، مضافاً إلى تناسبه مع جلّاها وزناً فلا بد من وجه آخر .

---

(١) سورة يوسف : الآية ٨٢ .

قال الطباطبائي (قدس سره): إن المضارع للدلالة على الحال وفيه إيماء إلى غشيان الفجور الأرض في الزمن الحاضر الذي هو أوائل ظهور الدعوة الإسلامية .

لما تقدم إن بين الأقسام وبين المقسم بها نوع اتصال وارتباط ، وما ذكره (قدس سره) وإن كان غير متوقف على رجوع الضمير إلى الأرض التي قلنا بأنها غير مذكورة في اللفظ فإنه على ما ذكرنا يمكن إرجاع الضمير إلى الشمس ، ويصح الوجه عليه أيضاً فيكون إيماءً إلى غشيان الفجور شمس الإيمان ونوره ، إلّا أن المضارع كما يدلّ على الحال يدلّ على الاستمرار أيضاً . اللهم إلا أن يقال بأن الاستمرار أيضاً ملحوظ في الآية ، وأن الغالب في كل زمان غشيان الظلمة على النور ، كما أشير إلى ذلك في موارد من القرآن الكريم من كثرة الجهّال والفسّاق ، كقوله تعالى : ﴿ . . وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] و ﴿ . . وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ ﴾[2] .

﴿ والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها ﴾ :

الطحو : كالدحو بمعنى البسط ، وإبدال الطاء بالدال جائز ، والتعبير عن الله سبحانه بلفظ ما عوضاً عن مَنْ. قال الطباطبائي (قده) لإيثار الإبهام المفيد للتضخيم والتعجيب والمعنى : وأقسم بالسماء والشيء القوي العجيب الذي بناها ، وأقسم بالأرض والشيء القوي العجيب الذي بسطها ، وأما الإقسام بالمخلوق تعظيماً وعطف الخالق عليه ليس

---

(١) سورة النحل : الآية ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

لاستوائهما في التعظيم بل النكتة فيه أن يتنبه المخاطب بوجود صانع العالم وكمال قدرته وعظمته ، ويظفر العقل بإدراك جلال الله وعظم شأنه حسب ما أمكنه ، فإنه تعالى لما أقسم بالشمس التي هي من أعظم المحسوسات شرفاً ونفعاً ، ووصفها بأوصافها الأربعة : وهي ضوؤها وكونها متبوعة للقمر ومتجلية عند ارتفاع النهار ومختفية ومغشّاة بالليل ، ثم أقسم بالسماء التي هي مسير الشمس ، وبالأرض التي تستفيد من نورها وإشراقها بحركتها الوضعية والانتقالية المحتاجة إلى صانع مدبر حكيم ، فيتوصل العقل حينئذٍ إلى كبرياء صانعها فكان الترتيب المذكور كالطريق إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى بقاع عالم الربوبية وبيداء كبريائه الصمديّة .

﴿ ونفس وما سواها ﴾ :

تنكير النفس للتفخيم ، وقيل : المراد منها آدم ، ولا يلائمه قوله تعالى : ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ إلا بالاستخدام على أنه لا موجب للتخصيص . والتسوية على ما قاله الفيض في تفسير قوله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾[1] الّذي خلق كلّ شيءٍ فسوّى خلقه . . بأن جعل له ما به يتأتى كمالُه ويتم معاشه ، فتسوية النفس هي جعل قواها وغرائزها وأعضائها وأجزائها متناسبة متكاملة بعضها ببعض ، ومساواة كل واحد منها بالآخر في الدلالة على صانعها ومدبرها . ثم إن الله سبحانه أقسم بالشمس مخلوقه العظيم وما يتبعها كما ذكرنا ، وهذه من المحسوسات ، وأردفه بالإقسام بمخلوق عظيم غير محسوس يشبه الشمس في أفعاله وهو

---

(١) سورة الأعلى : الآية ٢ .

النفس ، وكما أن الحياة الموجودة في الأرض من آثار إشراق الشمس وبركاتها ، كذلك الحياة الموجودة في أرض البدن من آثار إشراق شمس النفس وبركاتها ولها مشاركات أخرى معها تظهر بالتأمل .

﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ :

الإلهام : هو إعلام الله سبحانه أحداً شيئاً من دون تعب التعلم والتحصيل ، كما أن الوحي أيضاً يطلق على هذا النحو من الإلقاء والتلقين ، فالحيوانات تأخذ ضروريات معيشتها من طريق الوحي ، بحيث لو أراد البشر أن يتعلّموا ما تعمله النملة والنحلة وحتى العنكبوت في حياته يستغرقون قروناً في تعلّمه ، وقد كتب العلماء في القرن الأخير كتباً فيما تستخدمه الحيوانات الصغيرة والكبيرة لاستدامة حياتها ، فكل ذلك بإلهام من بارئها وخالقها .

والفجور : ضد التقوى ، فكما أن التقوى من الوقاية وبمعنى تملك الإنسان عنان نفسه في المقابلة بالشهوات والمعاصي ، كذلك الفجور عبارة عن استرخاء عنان النفس وتسليمها وكونها مطيعة بلا إرادة عند المعصية ، وقد توهم بعضٌ حيث إن الأقوام والأفراد البشرية يختلف بعضهم مع بعض في عاداتهم ورسومهم ، أن الحُسن والقبح أمران اعتباريان ليس لهما واقع ، وإنما يعتبرهما المجتمع أو الفرد على حسب ذوقه وسليقته ؛ فمثلاً بالنسبة إلى حسن الصورة والجمال بعضٌ يستحسنون الشعر الأصفر والذهبي اللون والعين الزرقاء السماوية الفيروزجية ، وآخرون يحبون الشعر الأسود والعين السوداء ، وهكذا يختلفون في تحسينهم زي الألبسة وأثاث البيت والرسوم والآداب وحتى في الأخلاق

والعادات والعقائد ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[1] . فهذا الاختلاف الموجود في الأقوام والمجتمعات ـ حتى قيل : محاسن قوم عند قوم مثالب ـ صار منشأ لإنكار الحسن والقبح العقليين ، وزعم قوم أنهما أمران اعتباريان يتبعان اعتبار المعتبر ، غفلة من أن كثيراً من الأمور المتداولة ليست كذلك ولا يختلف فيها اثنان ، بل تكون قضاوة أفراد البشر فيها على نحو واحد . ففي المثال المذكور في الجمال لا يوجد من لا يفرق بين المرأتين ذواتي الشعر والعينين السوداوين ، وأنّ إحداهما جميلة والأخرى غير جميلة ، سواء أكان من أولئك الذين يحبون الشعر والعين بهذا اللون أو من غيره ، كما أنه لا يوجد فرد من البشر تكون قبضة من الأوراد مساوية في نظره لقبضة من الشوك ، ولا يوجد أحد يكون صوت العندليب مساوياً عنده لصوت الغراب ، أو لا يرى قوس قزح أجمل من قطعة سحاب أسود .

والأمر في الحسن والقبح في الأخلاق أيضاً من هذا القبيل ، فلا يوجد إنسان لا يقبح الكذب والدجل والخيانة والظلم والسب وإيذاء الناس ، ولا يستحسن مقابلاتها من الصدق والأمانة والعدل والحق وأمثالها ، وهذه الأمور أمور متفق على حسنها أو قبحها عند جميع أفراد البشر ، فاتضح بما ذكرنا معنى قوله تعالى : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ .

ثم إن هذا الإلهام الفطري الأولي موجود عند كل أحد ولا يستثنى منه فرد من أفراد البشر ، أما ما يلهمه الله تعالى كثيراً من البشر بالتفكر

---

(١) سورة الروم : الآية ٣٢ .

والتـدبر والتـوجه إليـه تعالى وغيـر ذلك من مـوجبات تنـوّر الفكر وأخـذه بالإلهام من الله فكثير ، تشمل جميعه الآية الشريفة : ﴿ **فألهمها فجورها وتقـواهـا** ﴾ ، ولــولا ذلـك لم تتم الحجــة لله تعـالى : ﴿ **لله الحجــة البالغة** ﴾[1] . وفي غير واحدة من الروايات أن لله حجتين : حجة ظاهرة وحجة باطنة ، أما الحجة الظاهـرة فهي شرائـع الله ورسله ، وأما البـاطنة فهي العقل .

كان أبو عبدالله (ع) كثيراً ما يقول :

علم المحجّـة واضــح لمــريـده　　　وأرى القلوب عن المحجة في عمى

ولقــد عجبت لهـالِـك ونجـاتُـه　　　مـوجـودة ولقـد عجبت لمن نجـا

والعجب من النجـاة لندورهـا وكثرة الهـالكين ، وكل أمـرٍ نـادر ممّا يتعجب منه .

﴿ **قد أفلح من زكّاها** ﴾ :

جواب القسم ، قيل : إن فاعل زكّى الله كما أن فاعـل دسّى أيضاً الله ، فيكون المعنى قد أفلح من زكّاها الله وأصلحها وطهّرها من الذنوب ووفقهـا للطاعة ، وقـد خسـرت وخـابت نفس أذلّهـا الله وخيّبهـا من كـل خير .

ولكن الـظاهر أن فـاعـل زكّى « من » أي قـد أفلح من زكّى نفسـه فأصلحها وحملهـا على طاعـة الله عز وجل؛ وقد خـاب من دسّاهـا أي : خسـر من دسّى نفسه بمعصيتـه أي أخفاهـا ، قيل كـأن العاصي بـركوبـه المعصيـة أبداً يخفي نفسـه ويخمل ذكـره ، واللئيم أبداً خفي المكـان ،

(١) سورة الأنعام : الآية ١٤٩ .

والشريف مشهور المكان ، كذا نقله الميبدي في تفسيره عن الحسن .

ولا يخفى برودة هذا التوجيه في معنى دسّاها .

والأولى أن يقال : إن العاصي بركوبه المعصية أخفى نفسه بإخفاء ما فيها من الكمالات والاستعداد للصعود إلى أعلى مراتب الإنسانية وسقط إلى حضيض المرتبة الحيوانية ، وهذه هي الخيبة والخسارة الكبرى .

ثم إن من إقسام الله تعالى بهذه الأقسام الكثيرة التي هي منفردة في نوعها في القرآن الكريم ـ ولم يقسم الله سبحانه في مورد من القرآن بهذه الكثرة من القسم ـ تستفاد أهمية جواب القسم ، وأن تزكية النفس من أهم الأمور ولا بد من الاهتمام بها ، كيف والفلاح الأبدي منوط بها والخسران الدائمي نتيجة تركها ، ولذلك نشرح هذا الموضوع بشيء من الشرح لعل الله ينفعني وغيري به إن شاء الله ، فنقول ، مستمداً من الله سبحانه :

« رحم الله امرأً علم من أين وفي أين وإلى أين » .

وقبل أن نشرع في بيان التزكية وحقيقتها وكيفية الحصول عليها لا بد من الإشارة إلى مسائل :

الأولى : أن نعلم حقيقة الإنسان والمقام الأصلي والمنزلة الأولى له ، بمعنى أن نعلم ما هو أصل الإنسان وما هي صورته الأصلية .

والثانية : أن نعلم منزلة الإنسان في حياته الدنيوية وأنه حينما تنّزل إلى هذه الحياة الدنيوية صار في أي منزل وأي موقع .

والثالثة : أن نعلم من خلال علمنا بهاتين المسألتين أن الإنسان

من خلال حركته إلى الله والعبودية له وصعوده إليه والرجوع إلى ربه يمر إلى أية مراحل وينزل أي منزل .

وفي الأخير كيف يصل إلى موطنه الأصلي المعبّر عنه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون ﴾[1] و﴿ يا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ ﴾[2] .

وبعد الإشارة إلى هذه المسائل نبين كيفية التزكية ونشرح الطريق الموصل إلى الله ، وما لا بد له في هذا السلوك والصعود من الطهارة ليتحصل بالكمالات الفائتة منه أو المحجوبة عنه ، وينال حقيقته الأصلية والقرب من الله تعالى الذي هو المقصد الأعلى ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهىٰ ﴾[3] .

فنقول تمهيداً لذلك : قد ورد في الآيات والروايات التأكيد على ضرورة معرفة الإنسان نفسه وحقيقته ، ومعرفة ماضيه وحاله ومستقبله ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[4] .

وقد استفاد المفسر الكبير الطباطبائي (قده) من هذه الآية الشريفة لزوم معرفة النفس على نحو بديع ، ومحصّله أن للإنسان طريقاً يسلكه وهو حياته التي يبدأ بها من عالم الرحم وهو جنين فصبي فشاب فكهل فشيخ ، ثم يديم الحياة في البرزخ ، ثم يوم القيامة ، ثم ما

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٦ .

(٢) سورة الانشقاق : الآية ٦ .

(٣) سورة النجم : الآية ٤٢ .

(٤) سورة المائدة : الآية ١٠٥ .

بعده من جنة أو نار ، فأمر الله المؤمنين بلزوم أنفسهم ، فإن نفس المؤمن هو الطريق الذي يؤمر بسلوكه ولزومه ، فأمْره تعالى المؤمنين بلزوم أنفسهم في مقام التحفظ على طريق هدايتهم يفيد أن الطريق الذي يجب عليهم سلوكه ولزومه هو أنفسهم ، فنفس المؤمن هو طريقه الذي يسلكه إلى ربه وهو طريق هداه وهو المنتهي به إلى سعادته ، قال تعالى : ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ . . ﴾[1] فللنفس يوم وغد ، وهي في سير وحركة على مسافة ، والغاية هو الله سبحانه وعنده حسن الثواب وهو الجنة ، فعليها أن تدوم على ذكر ربها ولا تنساه فإنه سبحانه هو الغاية ، ونسيان الغاية يستتبع نسيان الطريق وهو النفس ، فمن نسي ربه نسي نفسه : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ . . ﴾[2] وهذا معنى ما رواه الفريقان عن النبي (ص) : « من عرف نفسه فقد عرف ربّه » وله ـ قدّس سره ـ في المقام مطالب جليلة من أراد فليراجع تفسيره القيّم .

فكما أن نسيان الله يستتبع نسيان النفس كذلك بالعكس النقيض عرفان النفس يستدعي عرفان الله تعالى . فيا له من مقام ما أرفعه !

وربما يقال بأن هذا من باب التعليق على المحال ، حيث إن معرفة الرب والإحاطة العلمية به مستحيلة ، ومعرفة النفس أيضاً تكون مُحالة لا مَحالة .

والجواب مضافاً إلى ما ورد من قوله (ص) في رواية أخرى :

---

(١) سورة الحشر : الآية ١٨ .

(٢) سورة الحشر : الآية ١٩ .

« أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه » فإنها صريحة في إمكان المعرفة بالنفس . إن الرواية في معنى عكس النقيض لقوله تعالى : ﴿ . . نسوا الله فأنساهم أنفسهم . . ﴾[1] كماذكرنا . هذا وقد أيد وأكد هذا الإمكان بأدل الدليل عليه وهو الوقوع والتحقق لأرباب القلوب وأصحاب اليقين من العرفاء الشامخين . وقال (ع) : « الكيّس من عرف نفسه وأخلص أعماله » فمن عرف نفسه وحقيقتها، وعلم أن الإنسان في حياته سائر في مصير نفسه اضطراراً لا يسعه التخطي عنها ولو بخطوة ولا الخروج منها ولو لحظة ﴿ . . يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾[2] وتذكّره هذه الحقيقة تذكراً لازماً بحيث لا يغفل عنها فإنه يجد نفسه منقطعة عن غير الله ومحتاجة إليه تعالى ليس لها من دون الله من وال ، فيتوجه إليه بتمام التوجه وتخلص أعماله لله سبحانه .

ولعله إلى ذلك أشار ما ورد عن علي (ع) كما في (الدرر والغرر) : « من عرف نفسه تجرّد » أي تجرد عن غير الله بالإخلاص لله جل شأنه . وعنه (ص) : « المعرفة بالنفس أنفع المعرفتين » الظاهر أن المراد بالمعرفتين المعرفة بالآيات الأنفسية والمعرفة بالآيات الآفاقية قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[4] . وأمّا كون المعرفة بالآيات الأنفسية فأنفع من غيرها ـ مع أن كلتا الآيتين

(١) سورة الحشر : الآية ١٩ .
(٢) سورة الانشقاق : الآية ٦ .
(٣) سورة فصّلت : الآية ٥٣ .
(٤) سورة الذاريات : الآيتان ٢٠ ، ٢١ .

تهـديان إلى الله تعـالى وتهديـان الإنسان إلى التمسـك بالحق والشـريعـة الإلهية لأنّ المعرفة بالله الحاصلة من السير في الآيـات الأنفسية لا تنفـك عادة من إصلاح أوصافها وأعمالها والتخلّق بـالأخلاق الحسنـة والملكات الفاضلة ، بخلاف المعرفة الحاصلة من التفكر في الآيات الآفاقية .

وبعبارة أخرى ومعنى أدق : المعرفة الحاصلة من النظر في الآيات الآفاقية علم حصولي ، بخلاف التفكر في النفس وقواها وحقيقتها ، فـإن المعـرفة الحـاصلة منه نتيجـة تجلّي النفس لصـاحبهـا فيحصـل لـه علم حضوري بالنفس وقـواها وأطـوار وجودهـا ، فيشاهـد حينئذٍ حقيقـة قولـه تعالى : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَىٰ اللَّهِ . . ﴾[1] ويشاهد فقرها إلى ربها ، وتدليهـا في جميع شؤونهـا : من الوجـود والحياة والعلم والقـدرة والسمع والبصر والإرادة والحب وسـائر الصفـات والأفعال ، ويجـدها في جميع ذلك متعلقة بالعظمة والكبرياء ، ومعلقة بعزّ القدس بما لا يتنـاهى بهـاء وسناء وجمـالاً وجلالاً وكمـالاً ، وقد أشيـر إلى ذلك في المنـاجـاة الشعبانية في قوله (عليه السلام) :

« إلهي هب لي كمـال الانقطاع إليـك ، وأنِر أبصـار قلوبنـا بضيـاء نظرها إليـك ، حتى تخرق أبصـار القلوب حجب النور فتصـل إلى معدن العظمة ، وتصير أرواحنا معلقة بعزّ قدسك » .

فإذا اشتغل الإنسان بآية نفسه ولم يشتغل خاطره بسواهـا وخلا بهـا انقـطع إلى ربه عن كـل شيء كمال الانقـطاع ، وعقب ذلك معـرفة ربـه معرفة بلا واسطة شيء ، وعلمـاً بلا تسبيب سبب ، لأن الانقـطاع يخرق

---

(١) سورة فاطر : الآية ١٥ .

الحجب فيتجلّى الله سبحانه بعظمته وكبريائه فيرى من البهاء والسناء والجمال والجلال ما لا يتناهى نتيجة قربه منه تعالى ، الذي أشير إليه في الحديث المتفق عليه بين العامة والخاصة : « لا يزال يتقرب إليّ عبدي بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به » . فبعين الله يشاهد جماله وجلاله ، وفي هذا المعنى روى المسعودي في إثبات الوصية عن أمير المؤمنين (ع) قال في خطبة له :

« سبحانك ، أي عين تقوم نصب بهاء نورك ، وترقى إلى نور ضياء قدرتك ، وأيّ فهم يفهم ما دون ذلك إلا أبصار كشفت عنها الأغطية ، وهتكت عنها الحجب العمية ، فرقت أرواحها على أطراف أجنحة الأرواح ، فناجوك في أركانك ، وولجوا بين أنوار بهائك ، ونظروا من مرتقى التربة إلى مستوى كبريائك ، فسمّاهم أهل الملكوت زواراً ، ودعاهم أهل الجبروت عمّاراً » .

وفي إرشاد القلوب للديلمي في حديث : « فمن عمل برضائي ألزمه ثلاث خصال : أعرّفه شكراً لا يخالطه الجهل وذكراً لا يخالطه النسيان ومحبّة لا يؤثر على محبّتي محبّة المخلوقين. فإذا أحبني أحببته ، وأفتح عين قلبه إلى جلالي ، ولا أخفي عليه خاصّة خلقي ، وأناجيه في ظلم الليل ونور النهار حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم ، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي ، وأعرفه السر الذي سترته عن خلقي ، وألبسه الحياء حتى يستحيي من الخلق كلهم ، ويمشي على الأرض مغفوراً له ، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً ، ولا أخفي عليه شيئاً من جنة ولا نار ، وأعرفه ما يمر على الناس في القيامة

من الهول والشدة ، وما أحاسب به الأغنياء والفقراء والجهال والعلماء ، وأنوّمه في قبره وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتى يسألاه ، ولا يرى غم الموت وظلمة القبر واللحد وهول المطلع ، ثم أنصب له ميزانه وأنشر ديوانه ، ثم أضع كتابه في يمينه فيقرأه منشوراً ، ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً ، فهذه صفات المحبين . يا أحمد : اجعل همك هماً واحداً ، واجعل لسانك لساناً واحداً ، واجعل بدنك حيّاً لا يغفل أبداً ، من يغفل عني لا أبالي بأي وادٍ هلك » .

وقد ذكر المجلسي (قده) في البحار بعد نقله هذا الحديث عن الإرشاد سندين له : فإذا اتصف العبد بصفات المحبين ، وكان الله سمعه وبصره وحصلت له المعرفة ، فهذه المعرفة هي معرفة الله بالله .

كما قاله الحكيم العارف الطباطبائي ، قال الإمام زين العابدين (ع) : « بك عرفتك وأنت دللتني عليك ، ولولا أنت لم أدر ما أنت » وقال علي (ع) : « يا من دلَّ على ذاته بذاته » ولعله إلى ذلك يشير ما ورد عن علي (ع) : « من عرف نفسه تجرّد » وهذه هي المعرفة الحقيقية فحسب .

ولذلك ورد أن غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه .

وأما غيرها الحاصلة من النظر في الآيات الأفاقية فهي معرفة بصورة ذهنية عن صورة ذهنية ، الحاصلة من قياس أو حدس أو غيرهما ، وجلّ الإله أن يحيط به ذهن أو تساوي ذاته صورة مختلقة اختلقها خلق من خليقته .

قال الصادق (ع) : « كلّ ما ميّزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مثلكم مردود إليكم » .

وفي التوحيد مسنداً عن عبدالأعلى عن الصادق (ع) في حديث : « ومن زعم أنه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك ، لأن الحجاب والصورة والمثال غيره ، وإنما هو واحد موحد، فكيف يوحد من زعم أنه يوحده بغيره ؟! إنما عرف الله من عرفه بالله فمن لم يعرفه به فليس يعرفه إنما يعرف غيره » . الحديث .

فعلى هذا عدّه (ع) إياها أنفع المعرفتين لا معرفة متعينة إنما هو لأن العامة من الناس قاصرة عن نيلها ، وقد أطبق الكتاب والسنة وجرت السيرة الطاهرة النبوية وسيرة أهل بيته الطاهرين على قبول من آمن بالله عن نظر آفاقي ، وهو النظر الشائع بين المؤمنين . فالطريقان نافعان جميعاً ، لكن النفع في طريق النفس أتم وأغزر ، ولذلك قال علي (ع) : « الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس » وقال (ع) : « من عرف نفسه فقد انتهى إلى غاية كل معرفة وعلم » .

هذه الروايات وغيرها تحث الإنسان غير الغافل عن سعادته على معرفة نفسه ، فمن أدرك لذّة هذه المعرفة هانت عليه المجاهدة في سبيلها وتحمل المشاق دونها .

بقدر الجد تكتسب المعالي فمن طلب العلى سهر الليالي

وسيأتي لذلك مزيد من توضيح إن شاء الله .

فبعد التمهيد بهذه المقدمة نشرع في المسائل التي ذكرنا أنه لا بد من الإشارة إليها قبل الشروع في بيان التزكية :

الأولى : أن تُعلم حقيقة الإنسان وصورته الأصلية ومنزلته الأولى .

فصل : قال مولانا أمير المؤمنين (ع) : رحم الله امرأً علم من

أين . . . لا يخفى أن من دواعي التـزكية وممـا يهيّج في الإنسـان روحية السعي إليهـا والجدّ في تحصيلهـا هو العلم بـالصورة الأصليّـة لـلإنسـان ومقـامه الأول ، فـإن الإنسان مهمـا شعر بفـوات شيء ثمين منـه وأمكنـه استرجاعه واسترداده فلا محالـة يسعى ويجدّ في النيـل ثانيـاً إلى ما فـات منـه ، وهذه الخصلة لعلّهـا من الفطريـات للإنسـان ، يشترك فيهـا العالم والجاهل وجميع أفراد البشر ، وكذلك نشاهـدها حتى في الأطفـال ، فإن الطفل إذا أخذ منه ما يراه ثميناً عنده يجـاهد في تحصيله ثـانياً ويبكي من فواته ، وإنما ترك من فات منه الثمين استرداده إمّا لغفلة عن قيمتـه وقدره أو لليأس من تحصيله ، ونحن إذا عرفنـا أصلنا ومـا كنّا عليـه من الصورة الأصلية ، وشعرنا بما فات منا من الجمال والبهاء لم نصبر دون استدراكه قـطعاً ، وهـذا الشعور يمكن تحصيله بـأمور منهـا : التـأمـل في الآيـات القرآنية والروايات الـواردة عن أهل البيت (عليهم السـلام) ، والكلمات المأثورة عن الحكماء الإلهيين والعرفاء الربانيين ، ونشير إلى بعضها :

أمّـا الآيات فكثيـرة منها قـوله تعـالى : ﴿ لَقَـدْ خَلَقْنَـا الإِنْسَـانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْـأَلُونَـكَ عَنِ الرُّوحِ قُـلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[2] والآيات النازلة في شأن آدم وتعليمه الأسمـاء ، وكونـه وسجود الملائكة له أجمعين في الجنـة التي لا يجـوع فيهـا ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى ، والنفخة الإلهية فيه بعد تسويته من روحـه ، فإن فيهـا أسـراراً مكنـونـة تنبىء عن النشـأة الأوليـة لـلإنسـان ، ومـوضعـه من الله سبحانه ، تنكشف بالتأمّل والتدبّر والفكر الصحيح البالغ .

---

(١) سورة التين : الآية ٤ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٨٥ .

وأما الروايات فكثيرة جداً ، منها ما ورد في شأن الروح وأنها من أمر الله سبحانه ، كما في الكافي عن أمير المؤمنين (ع) قال : « إن لله نهراً دون عرشه ودون النهر الذي دون عرشه نور نوره ، وإن في حافتي النهر روحين مخلوقين روح القدس وروح من أمره » الحديث .

وفي البصائر : « نور من نوره » .

ومنها الروايات الواردة في خلق الأرواح قبل الأبدان ، وفي بعضها كما في (العلل) و(التوحيد) عن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال : قلت لأبي عبد الله (ع): لأيّ علّة جعل الله عزّ وجل الأرواح في الأبدان بعد كونها في ملكوتها الأعلى في أرفع محل ؟ فقال (ع) : إنّ الله تبارك وتعالى علم أن الأرواح في شرفها وعلوّها متى ما تركت على حالها نزع أكثرها إلى دعوى الربوبية دونه عز وجل ،فجعلها بقدرته في الأبدان التي قدّر لها في ابتداء التقدير نظراً لها ورحمة بها ، وأحوج بعضها إلى بعض ، وعلق بعضها على بعض ، ورفع بعضها على بعض ، ورفع بعضها فوق بعض درجات ، وكفى بعضها ببعض ، وبعث إليهم رسله ، واتّخذ عليهم حججه مبشرين ومنذرين ، يأمرون بتعاطي العبودية والتواضع لمعبودهم بالأنواع التي تعبدهم بها ، ونصب لهم عقوبات في العاجل وعقوبات في الآجل ، ومثوبات في العاجل ومثوبات في الآجل ، يرغّبهم بذلك في الخير ويزهدهم في الشر ، وليذلهم بطلب المعاش والمكاسب ، فيعلموا بذلك أنهم لها مربوبون وعباد مخلوقون ، ويقبلوا على عبادته فيستحقوا بذلك نعيم الأبد وجنة الخلد ، ويأمنوا من النزوع إلى ما ليس لهم بحق » .

ثم قال (ع) : « يابن الفضل ، إن الله تبارك وتعالى أحسن نظراً

لعباده منهم لأنفسهم . ألا ترى أنك لا ترى فيهم إلاّ محبّاً للعلوّ على غيره حتى أنه يكون منهم لمن قد نزع إلى دعوى الربوبية ، ومنهم من نزع إلى دعوى النبوّة بغير حقها ، ومنهم من نزع إلى دعوى الإمامة بغير حقها ، وذلك مع ما يرون في أنفسهم من النقص والعجز والضعف والمهانة والحاجة والفقر والآلام ، والمناوبة عليهم والموت الغالب لهم والقاهر لجميعهم ، يابن الفضل : إن الله تبارك وتعالى لا يفعل بعباده إلاّ الأصلح لهم ، ولا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

والتأمل في هذه الرواية الشريفة يعطي للمتأمل ما يشتد به شوقه للرجوع إلى حالته الأولية ، واستدراكه لها ، فيا له من مقام ما أجلّه وأرفعه ، لا يطلبه إلاّ ذوو الهمم العالية التي جاوزت هممهم الأفلاك وتعلقت بالملكوت الأعلى ، وأما نحن ـ الغافلون ـ عن حقيقتنا ، المستغرقين في بحار الشهوات الدنيّة والمقتنعين بالمعيشة الحيوانيّة ،فقد رضينا بالحياة الدنيا واطمأننا بها ، وأخلدنا إلى الأرض واتّبعنا هوانا ، فأنى لنا بذلك ، وكيف يمكننا الوصول إلى ما فيه قرة عين الأولياء ومنى أنفسهم الزكية ؟ اللهم إليك المشتكى وأنت المستعان .

وأما كلمات الحكماء الإلهيين والعرفاء الشامخين في هذا المجال فهي مما يحرق القلوب ويذيب الأكباد ، فقد عبروا ـ رضوان الله عليهم عن لهب قلوبهم واشتياق أنفسهم بالشعر والنثر بما يثير في القلوب نيران الحب ، وينبّه الغافلين ويقرب المبعدين عنه .

قال بعض أهل المعرفة : « النفوس الإنسانية إنّما هبطت إلى هذا العالم من عالم آخر هو مأواها الطبيعي وموطنها الأصلي ، وهي كانت هناك حية مختارة لطيفة عالمة قادرة بقوّة مبدعها ، سائحة في عالمها ،

فرحانة مطمئنة عند بارئها ، في مقعد صدق ، وهي الجنة التي كانت فيها أبوها العقلي وأمها النفسية ، فإذا هبطت من هناك لخطيئة وقعت من أبيها وأمها ، وفرّت من سخط الله ، وانحطت إلى السفل ، وحوّلت إلى هذا العالم ، انقلبت حياتها موتاً ونورها ظلمة ، وتبدلت قدرتها عجزاً ، واختيارها اضطراراً ، واستقرارها اضطراباً ، ولطافتها كثافة ، وزالت كرامتها وشرفها وكمالها إلى المذلة والخسة والنقص ، وانجرّت جمعيتها ووحدتها إلى التفرقة والكثرة ، وهي ما لم تصل ثانياً إلى معادها الأصلي ولم تزل الكثرة والتفرقة عنها بالكلية كأنها لم تكن ، لم تسكن ولم تطمئن من انزعاجها واستفزازها »[1] .

قال أفلوطين في كتابه القيم أثولوجيا صفحة (٣٥): إني ربّما خلوت بنفسي وخلعت بدني جانباً وصرت كأنّي جوهر مجرد بلا بدني ، فأكون داخلاً في ذاتي ، راجياً إليها ، خارجاً من سائر الأشياء سواي ، فأكون العلم والعالم والمعلوم جميعاً ، فأرى في ذاتي من الحسن والبهاء والضياء ما أبقى له متعجباً ، فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الشريف الفاضل الإلهي ، ذو حياة فعالة ، فلما أيقنت بذلك ترقيت بذاتي من ذلك العالم إلى العالم الإلهي ، فصرت كأني موضوع فيها متعلق بها ، فأكون فوق العالم العقلي كله ، فأرى كأني واقف في ذلك الموقف الشريف الإلهي ، فأرى هناك من النور والبهاء ما لا تقدر الألسن على صفته ، ولا تعيه الأسماع ، فإذا استغرقني ذلك النور والبهاء ولم أقو على احتماله هبطت إلى عالم الفكرة ، فإذا صرت في عالم الفكرة حجبت الفكرة عني ذلك النور والبهاء ، فأبقى متعجباً أني كيف انحدرت من

(١) علم اليقين، للفيض صفحة ٣٩٦ .

ذلك الموضع الشامخ الإلهي وصرت في موضع الفكرة بعدٍ أن قويت نفسي على تحليق بدنها ، والرجوع إلى ذاتها ، والترقّي إلى العالم الإلهي ، حتى صارت في موضع البهاء والنور الذي هو علة كل نور وبهاء ، ومن العجب أني كيف رأيت نفسي ممتلئة نوراً وهي في البدن كهيئتها وهي غير خارجة منه . غير أني لما أطلت الفكرة وأَجَلْتُ الرأي وصرت كالمبهوت ذكرت عند ذلك أخي أرقليطوس ، فإنه أمر بالطلب والبحث عن جوهر النفس ، والحرص على الصعود إلى ذلك العالم الشريف الأعلى ، وقال : إن من حرص على ذلك وارتقى إلى العالم الأعلى جوزي بأحسن الجزاء اضطراراً ، فلا ينبغي لأحد أن يفتر عن الطلب والحرص في الارتقاء إلى ذلك العالم ، وإن تعب ونصب ، فإن أمامه الراحة التي لا تعب بعدها ولا نصب . . . .

وقال الحكيم فيلسوف الشرق ابن سينا في قصيدته العينية الرائعة :

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقاء ذات تعزّز وتمنّع
محجوبة عن كل مقلة عارف	وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربّما	كرهت فراقك وهي ذات تفجّع
أنفت وما ألفت ولما واصلت	ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى	ومنازلاً بفراقها لم تقنع

إلى قوله :

تبكي وقد نسيت عهوداً بالحمى	بمدامع تهمي ولما تقلع

روى المجلسي (قده) في البحار عن قرب الأسناد عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن زياد عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليهما السلام) : أن روح آدم (ع) لما أمرت أن تدخل فيه كرهته ،

فأمرها أن تدخل كرهاً وتخرج كرهاً .

قال المجلسي في شرحه : لا يبعد أن يكون المعنى أن الروح لما كانت من عالم الملكوت وهي لا تناسب البدن ، فلما خلقها الله خلقاً تحتاج في تصرفها وأعمالها وترقياتها إلى البدن فكأنها تعلقت به كرهاً ، فلما أنست به ونسيت ما كانت عليه صعبت عليها مفارقتها للبدن . . . .

أقول : وهذا بعينه رواية وشرحاً ما ذكرنا من شعر الحكيم ابن سينا وصلت . . .

وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلاً بفراقها لم تقنع
تبكي وقد نسيت عهوداً بالحمى بمدامع تهمي ولما تقلع

روى المجلسي عن فضالة عن جميل بن دراج عن زرارة عن أبي عبد الله (ع) في قول الله عز وجل : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ** . . . ﴾ قال : كان ذلك معاينة الله (وفي المصدر معاينة لله) فأنساهم المعاينة وأثبت الإقرار في قلوبهم ولولا ذلك ما عرف أحد خالقه ولا رازقه ، وهو قول الله : ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ .

حتى إذا قرب المسير إلى الحمى دون الرحيل إلى الفضاء الأوسع

قال العارف بالله ابن الفارض (قده) :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

إلى أن قال :

يقولون لي صفها فأنت بوصفها خبير أجل وعندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هواً ونور ولا نار وروح ولا جسم

تقـدم كـل الكـائنـات حـديثهـا   قـديمـاً ولا شكـل هنـاك ولا رسم
وقـامت بهـا الأشيـاء ثم لحكمـةٍ   بها احتجبت عن كل من ماله فهم
وهـامت بها روحي بحيث تمـازجا   اتـحــاداً ولا جــرم تخـلله جــرم
فـخـمــر ولا كــرم وآدم لـي أب   وكــرم ولا خـمــر ولي أمـهــا أم

وقال في قصيدته التائية المسماة بنظم السلوك :

سقتني حميّـا الحب راحـة مقلتي   وكأسي محيّا من عن الحسن جلّتِ

إلى أن قال :

ولـو أن ما بي بـالجبال وكـان طو   ر سيناء قبـل التـجلي لـدكـت
فـطوفان نـوح عند نـوحي كأدمعي   وإيقـــاد نيــران الخليــل كلوعتـي
ولــولا زفيــري أغــرقتني أدمـعي   ولــولا دمـوعي أحــرقتني زفـرتي
وحــزنـي مــا يعـقــوب بث أقـلّه   وكــل بـلى أيــوب بعض بـليّتـي

وقــال :

فمن فؤادي لهيـب ناب عن قبس   ومن جفـوني دمع فـاض كـالـديم
مــا حلت عنهم بسلوان ولا بــدل   ليس التبــدّل والسلوان من شيمي
آهاً لأيـامنــا بــالخيف لــو بقيت   عشـراً وواهاً عليهـا كيف لم تـدم
هيهـات واآسفي لـو كــان ينفعني   أو كان يجدي على ما فات واندمي

هذه الزفرات اللهيبة والأنّـات الموجعـة لألم الهجر والفـراق توجـد كثيـراً في كلمات العـرفاء بـالله كمـولانـا الـرومي ، والحـافظ الشيـرازي وغيرهما ، وليست إلا نتيجة تذكرهم بما كانوا عليـه من البهجة والجمـال والبهـــاء والسنـاء ، وقـــد رُدّوا إلى أسفـل ســافلين ، إلى ديـار الغــربـة والوحشة ، فهم يعرفون أين كانوا وأين حلّوا .

إيقاظ : قال الإمام الخميني دام ظله ، في كتابه القيّم الآداب المعنوية للصلاة : إن العلم بلا عمل لا قيمة له : والحجة على العالم أتم ، والمناقشة عليه أكثر ، فيا للأسف إننا محرومون بالكلية عن المعارف الإلهية والمقامات المعنوية لأهل الله ، والمدارج العالية لأصحاب القلوب ، فطائفة منّا ـ ولعلها الأكثر ـ تنكر المقامات كلها ، وترى أهلها على الخطأ والباطل ، وعاطلاً ، ومن ذكرهم بشيء أو دعا إلى مقاماتهم يحسبونه شاعراً ودعوته شطحاً ، ولا يرجى لهذه الطائفة من الناس أن يقدر أحد على توجيههم إلى نقصهم وعيبهم ، وإيقاظهم من نومهم الثقيل ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ . ﴿ **وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ** ﴾ نعم ، إن الذين هم كالكاتب المسكين ليس عندهم خبر عن شيء ، وليست قلوبهم حيّة بحياة المعرفة والمحبة الإلهية ، فهم أمواتٌ ، قبورهم البالية غلف أبدانهم ، وقد حجبهم غبار هذا الجسم ومضيقة البدن المظلم عن جميع عوالم النور ، ونور على نور ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ** ﴾ هذه الطائفة ، كلّ ما يقرأ عليهم من الحديث والقرآن في المحبة والعشق الإلهي وحبّ اللقاء والانقطاع إلى الحق ، فيقومون بتأويله وتوجيهه ، ويفسرونه على طبق آرائهم ، فيوجهون آيات اللقاء وحب الله على كثرتها إلى لقاء أشجار الجنة ونسائها الجميلة ولا أدري أن هؤلاء ماذا يصنعون بفقرات المناجاة الشعبانية حيث يقول (ع) : «إلهي هب لنا كمال الانقطاع إليك ، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك ، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور ، فتصل إلى معدن العظمة ، وتصير أرواحنا معلقة بعزّ قدسك . إلهي واجعلني ممن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك » .

فما هذه الحجب النورانية ؟ وهل المراد من النظر إلى الحق النظر إلى إجاص الجنة ؟ وهل معدن العظمة هو قصور الجنة ؟ وهل تعلق الأرواح بعز القدس هو التعلق بذيل الحور العين لقضاء الشهوة ؟ هل هذا الصعود والمحو من الجلال يعنى به جمال نساء الجنة ؟ وتلك الجذبات والأغشية التي حصلت لرسول الله (ص) في صلاة المعراج وكان يشاهد أنوار العظمة تلك وما فوقها في محفل ما كان الأمين جبرائيل محرماً لسرّه ، ولا يتجرأ للتقدم قيد أنملة ، هل كانت جذبة إحدى النساء الحسان في الجنة ؟ أو أنه (ص) كان يرى أنواراً كنور الشمس والقمر أو أشد منهما ، والقلب السليم الذي قال فيه المعصوم (ع) : « والسليم قلب لقي الله وليس فيه سواه » هل المقصود من غير الحق هو غير كرامة الحق التي يكون مرجعها ألّا يكون غير إجاص الجنة ومشمشها ؟ فيا ويلي ! فإن عنان القلم قد خرج من يدي واشتغل بالشطحات ولكن لعمر الحبيب إنه ليس لي مقصود في هذا الكلام إلا أن يحصل تنبه الإخوة الإيمانيين . وخصوصاً رجال العلم ، ولا ينكروا ـ على الأقل ـ مقامات أهل الله ، فإن هذا الإنكار منشأ جميع الشقاوات ، وليس مقصودنا أن نبيّن من هم أهل الله بل غرضنا أن لا ننكر المقامات ، وأما من هو صاحب المقامات فالله أعلم . وهذا أمر لا يطّلع عليه أحد إلا الله .

رحم الله أمرأً علم . . . وفي أين . .

المسألة الثانية : هي معرفة منزلة الإنسان في حياته الدنيوية .

اعلم يا عزيزي إنَّ عالم الدنيا والطبيعة أدنى العوالم المخلوقة لله تعالى وأخسّها ، كما يشير إلى ذلك تسميتها أيضاً ، فإنها مؤنث أدنى ،

ويكفي في خستها ودناءتها قوله تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ وقوله تعالى ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً ﴾ وقول النبي (ص) : « ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى فيها كافراً شربة ماء »[1] .

قال بعض الأكابر[2] من العرفاء : إن علم الله تعالى يتعلق بحقيقة الأشياء وواقعها ، فإذا لم تعدل الدنيا عند الله جناح بعوضة فيعلم من ذلك أنها في الواقع والحقيقة لم تعدل . انتهى .

وعن زيد الزراد عن الصادق (ع) قال في وصف المؤمنين :« والذي نفسي بيده إن في الأرض في أطرافها مؤمنين ما قدر الدنيا كلها عندهم تعدل جناح بعوضة ، ولو أن الدنيا بجميع ما فيها وعليها ذهبة حمراء على عنق أحدهم ثم سقط من عنقه ما شعر بها أي شيء كان على عنقه ، ولا أي شيء سقط عنها ، لهوانها عليهم . إلى أن قال : واشوقاه إلى مجالستهم ومحادثتهم ، يا كرباه لفقدهم ، ويا كشف كرباه لمجالستهم » .

وقال علي (ع) : « وممّا يدلك على دناءة الدنيا أن الله جل جلاله زواها عن أوليائه وأحبائه نظراً واختياراً ، وبسطها لأعدائه فتنة واختباراً ، فأكرم عنها محمداً نبيه (ص) حين عصب على بطنه من الجوع ، وحماها موسى نجيّه المكلم وكانت ترى خضرة البقل من صفاق بطنه من الهزال وساق (ع) الكلام في زهد الأنبياء (عليهم السلام) وتنزّههم عنها ، وأنهم أنزلوا الدنيا من أنفسهم كالميتة التي لا يحل لأحد أن يشبع منها

(١) سفينة البحار مادة دنا .
(٢) عبد الله القطب .

إلا في حال الضرورة إليها ، وأكلوا منها بقدر ما أبقى لهم النفس وأمسك الروح ، وجعلوها بمنزلة الجيفة التي اشتد نتنها فكل من مرّ بها أمسك على فمه ، فهم يتبلغون بأدنى البلاغ ولا ينتهون إلى الشبع من النتن ، ويتعجبون من المتمتع منها شبعاً والراضي بها نصيباً . إخواني والله لهي في العاجلة والآجلة ، لمن ناصح نفسه في النظر وأخلص لها الفكر أنتن من الجيفة وأكره من الميتة غير أن الذي نشأ في دباغ الإهاب لا يجد نتنه ولا تؤذيه رائحته ما تؤذي المارّ به والجالس عنده »[1] الخ .

فإذا تفكر الإنسان قليلاً في حقيقة الدنيا وتقلبها على أهلها يتنور قلبه ، ويستيقظ من نومه ، ويتنبه من غفلته ، ولا يتعلق قلبه بها ، والآيات والروايات كثيرة التي ترغب الإنسان في الفكر ، إنما هي لأهمية ما ينتجه الفكر ، ولعله في العشرات من الآيات الشريفة رغبنا الله سبحانه في الفكر وقال : « لعلكم تتفكرون » أو « لعلهم يتفكرون » . فالفكر ينير القلب ، بالفكر جلاء العقل ، والفكر يوجب الاعتبار ويؤمن العثار ويثمر الاستظهار ، والتفكر حياة قلب البصير ، وكان أكثر عبادة أبي ذر رحمه الله التفكر والاعتبار . وعن الحسن بن الصيقل قال : قلت لأبي عبد الله : تفكر ساعة خير من قيام ليلة ؟ قال : نعم ، قال رسول الله (ص) : تفكر ساعة خير من قيام ليلة ، قلت : كيف يتفكر ؟ قال : يمرّ بالدور الخربة فيقول : أين بانوك ، أين ساكنوك ، مالك لا تتكلمين ؟ **﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون ﴾**[2] انتهى .

(١) سفينة البحار ـ مادة دنا .

(٢) سورة الروم : الآية ٩

ومن وصايا أمير المؤمنين (ع) لابنه الحسن : « يا بني إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي ، فقد نظرت في أعمارهم ، وفكرت في أخبارهم ، وسرت في آثارهم ، حتى عدت كأحدهم بل كأنّي بما انتهى إليّ من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم » انتهى .

في الذاهبين الأولين — من القرون لنا بصائر
لمّا رأيت موارداً — للموت ليس لها مصادر
لا يرجع الماضي إليّ — ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة — حيث صار القوم صائر[1]

فالإنسان الذي تعلق قلبه بدنيا هذه صفتها فيكتسب القلب أوصافها وتغشيه ظلمتها ، فيكدر صفوه وترين صفحته، فيحتجب عن المعارف والمقامات وعن رؤية الحقائق ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾[2] .

مثل النفس في احتجابها بالطبيعة والتعلق بها كنور يشع في فضاء واسع ، فتقع مقابله زجاجة ذات لون كدر ، فينفذ النور منها ولكن تحدد سعته الوجودية وينقص صفاء لونه وينكدر ، وإذا مرّ بزجاجة أخرى ونفذ منها يفقد صفاءه أكثر ، وهكذا كلما كانت الزجاجات أكثر يكون النور أكدر ، بحيث لا يبقى في المرحلة الأخيرة إلاّ ما ربّما يتخيّل أنه ليس بنور ولا من سنخه ، فلو أراد النور الرجوع إلى حالته الأولية فلا بد له حينئذٍ من كسر الزجاجات ورفع الحجب ، فكلما انكسرت زجاجة رأى نفسه

---

(١) من قس بن ساعدة الأيادي الخطيب المعروف للعرب توفي سنة ٦٠٠ ميلادية أدرك زمان النبي (ص) ولكنه مات قبل بعثته بتسع سنين .
(٢) سورة المطففين : الآيتان ١٤ ، ١٥ .

أصفى مما قبل وأنور ، وهكذا إلى أن يصل إلى أصله وحالته التي كان فيها نورانياً مشعشعاً واسعاً ، فترتفع الحجب والحدود منه ، ويرجع إلى أصله وصورته التي خلقه الله عليها .

وفي رواية قال الصادق (ع) : « إن روح المؤمن لأشد اتّصالاً بروح الله من اتّصال شعاع الشمس بها »[1] . وبالتأمل في المثال يعلم أن حركة النور من المرتبة الأخيرة إلى مبدئه ليست إلا حركة منه وفيه وإليه ؛ فالسالك كان هو النور ، ومنازل السلوك كانت مراتب نفسه ؛ ونهاية السلوك أيضاً لم تكن خارجة من ذاته ، فالحجاب كان من نفسه لنفسه ، لذلك قيل : « وجودك ذنب لا يقاس به ذنب » .

وصل : قد دار على لسان العرفاء والحكماء تقسيم الحجب النفسانية إلى النورانية والظلمانية ، وقد ورد نظير ذلك في الروايات أيضاً .

وقد عقد المولى المجلسي (قده) في كتابه القيم بحار الأنوار باباً عنونه بباب الحجب والأستار والسرادقات ، وروى فيه الروايات عن العامّة والخاصّة ، وفيما ذكره عن التوحيد والخصال ، أنه سئل أمير المؤمنين (ع) عن الحجب فقال : « أول الحجب سبعة ، غلظ كل حجاب منها خمسمائة عام ، وبين كل حجابين مسيرة خمسمائة عام ، والحجاب التالي سبعون حجاباً ، بين كل حجابين مسيرة خمسمائة عام ، حجبة كل حجاب منها سبعون ألف ملك ، قوّة كل ملك منهم قوّة الثقلين ، منها ظلمة ، ومنها نور ، ومنها نار » . الحديث بطوله .

وفي التوحيد عن أبي عبد الله (ع) قال : « الشمس جزء من سبعين

---

(١) الكافي والتوحيد .

جزءاً من نور الكرسي ، والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ، والعـرش جزء من سبعين جـزءاً من نور الحجـاب ، والحجـاب جـزء من سبعين جزءاً من نور الستر » . الخبر .

وعن سهـل بن سعد وعبـد الله بـن عمر قـالا : قـال رسـول الله : « دون الله سبعون ألف حجاب من نور وظلمة ، لا يسمـع من نفس « من حسّ » تلك الحجب إلا زهقت نفســه » . وفي حـديث المعـراج عـن النبي : « فخـرجت من سـدرة المنتهى حتى وصلت إلى حجـاب مـن حجب العـزة ، ثم إلى حجاب آخر حتى قطعت سبعين حجـاباً وأنـا على البـراق ، وبين كل حجـاب وحجاب مسيـرة خمسمائـة سنة ، ورأيت في علّيين بحـاراً وأنواراً وحجبـاً وغيرهـا ، لـولا تلك لاحتـرق كـل مـا تحت العرش من نور العرش ». قال : وفي الحـديث أن جبرئيـل (ع) قال : لله دون العرش سبعون حجـاباً لـو دنونـا من أحدهـا لأحرقتنـا سبحات وجـه ربّنا . وغير ذلك من الأحاديث .

وقـال المجلسي في بيان تلك الأحـاديث : اعلم إنَّه قـد تضافـرت الأخبار العاميّة والخاصيّـة في وجود الحجب والسـرادقات وكثـرتها ، وفي القاموس ، السرادق : الذي يمد فوق صحن البيت والجمع سرادقـات ، والبيت من الكـرسف ، وبيت سـردق : أعـلاه وأسفله مشـدود كله ، وفي النهـايـة السـرادق ، كـل مـا أحـاط بشيء من حـائط أو مضـرب أو خباء . انتهى .

قال المجلسي : وظاهر أكثر الأخبـار أنها تحت العـرش ، ويلوح من بعضها أنها فوقه ، ولا تنافي بينهما .

وروي من طـريق المخالفين عن النبي (ص) أن لله تبـارك وتعـالى

سبعين ألف حجاب من نور وظلمة ، لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه ما دونه . ثم ذكر روايات أخرى ، ومعاني سبحات الوجه وقال : وأقرب من هذا كله أن المعنى : لو انكشف من أنوار الله التي تحجب العباد عنه شيء لأهلك كل من وقع عليه ذلك النور ، كما خرّ موسى صعقاً ، وتقطع الجبال دكاً لما تجلّى الله سبحانه وتعالى ، إلى أن قال (قده) : والتحقيق أن لتلك الأخبار ظهراً وبطناً ، وكلاهما حق . فأما ظهرها فإنه سبحانه كما خلق العرش والكرسي مع عدم احتياجه إليهما كذلك خلق عندها أستاراً وحجباً وسرادقات وحشاها من أنواره الغريبة المخلوقة له ، ليظهر لمن يشاهدها من الملائكة وبعض النبيين ، ولمن يسمعها من غيرهم عظمة قدرته وجلال هيبته وسعة فيضه ورحمته ، ولعلّ اختلاف الأعداد باعتبار أن في بعض الإطلاقات اعتبرت الأنواع ، وفي بعضها الأصناف ، وفي بعضها الأشخاص ؛ أو ضمّ بعضها إلى بعض في بعض التعبيرات ، أو اكتفي بذكر بعضها في بعض الروايات .

وأما بطنها فلأن الحجب المانعة عن وصول الخلق إلى معرفة كنه ذاته وصفاته أمور كثيرة ؛ منها ما يرجع إلى نقص المخلوق وقواه ومداركه ، بسبب الإمكان والافتقار والاحتياج والحدوث ، وما يتبع ذلك من جهات النقص والعجز ، وهي الحجب الظلمانية ؛ ومنها ما يرجع إلى نوريته وتجرّده وتقدسه ووجوب وجوده وكماله وعظمته وجلاله وسائر ما يتبع ذلك ، وهي الحجب النورانية ؛ وارتفاع تلك الحجب بنوعيها محال ، فلو ارتفعت لم يبق بغير ذات الحق شيء . أو المراد بكشفها رفعها في الجملة بالتخلي عن الصفات الشهوانية والأخلاق الحيوانية ، والتخلق بالأخلاق الربانية بكثرة العبادات والرياضات والمجاهدات ، وممارسة العلوم الحقة ، فترتفع الحجب بينه وبين ربّه سبحانه في

الجملة ، فيحرق ما يظهر عليهم من أنوار جلاله تعيناتهم وإراداتهم وشهواتهم ، فيرون بعين اليقين كماله سبحانه ونقصهم ، وبقاءه وفناءهم وذلهم ، وغناه وافتقارهم ، بل يرون وجودهم المستعار في جنب وجوده الكامل عدماً، وقدرتهم الناقصة في جنب قدرته الكاملة عجزاً ، بل يتخلّون عن إرادتهم وعلمهم وقدرتهم فيتصرف فيهم بإرادته وقدرته وعلمه سبحانه ، فلا يشاؤون إلا أن يشاء الله ، ولا يريدون سوى ما أراد الله ، ويتصرفون في الأشياء بقدرة الله ، فيحيون الموتى ويردّون الشمس ويشقون القمر ، كما قال أمير المؤمنين (ع) : « ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية بل بقوة ربانية » .

والمعنى الذي يمكن فهمه ولا ينافي أصول الدين من الفناء في الله والبقاء بالله هو هذا المعنى . وبعبارة أخرى : الحجب النورانية : الموانع التي للعبد عن الوصول إلى قربه ، وغاية ما يمكنه من معرفته سبحانه من جهة العبادات كالرياء والعجب والسمعة والمراء وأشباهها ، والظلمانية : ما يحجبه من المعاصي عن الوصول إليه ، فإذا ارتفعت تلك الحجب تجلّى الله له في قلبه وأحرق محبة ما سواه ، حتى نفسه عن نفسه .

وسيأتي تمام القول في ذلك في كتاب الإيمان والكفر إن شاء الله[1] .

أقول : لقد أجاد (قده) فيما أفاد وجاء بالتحقيق والإرشاد ، ولكن لا يخفى ما في قوله : وبعبارة أخرى الحجب النورانية إلى قوله عن

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٥ ص ٤٧ .

الوصول إليه ، فإن المعنى : قد تنزلت من العرش إلى الفرش وليس ما ذكره عبارة أخرى لما سبق ذكره منه ، بل هو معنى بسيط عامي لا ينطبق على ما ذكره من قبل ، مضافاً إلى ما في نفس المعنى من الخطأ ، فإنه كيف يمكن أن يعدّ الرياء والعجب والسمعة وغيرها التي هي من أكبر المعاصي وبعضها شرك بالله تعالى كالرياء على ما حقق في محله من الحجب النورانية إلّا بتوجيه بارد وبعيد غاية البعد ؟! . فمن المحتمل أن تكون العبارة دخيلة في كلامه وهي من غير كلام المصنف (قده) ، ممن لا حظّ له في العلم والمعرفة ، ولو أردت تصديق ذلك ففكر فيما ذكره قبل ذلك : « فترتفع الحجب بينه وبين ربّه سبحانه إلى آخر ما قال » .

ثم تفكر فيما ذكره بعد قوله عن الوصول إليه فإن المعنى يعرج ثانياً إلى أوج العرفان ويلتئم بسابقه بقوله : « تجلّى الله في قلبه وأحرق محبة ما سواه حتى نفسه عن نفسه » ولعله بما ذكرنا من احتمال تدخل غيره في كلماته تنحلّ مشكلة ما يوجد كثيراً في كلمات هذا المحدث الجليل من التناقض في القول بالنسبة إلى المعارف الجليلة الواردة في لسان الأخبار والأحاديث والأدعية ، فينسبها تارة إلى مصطلحات الصوفية وأخرى إلى الجعل والكذب ، مع أنه (قده) كثيراً ما ينقل عن والده العالم العارف ما هو أعظم من تلك المعارف التي أنكرها ويثني على والده (قده) أحسن الثناء ، ويتلقى ما ذكره منه بالقبول .

فالدقة في جميع ما ذكر تقتضي عدم نفي احتمال أن يكون بعض ما في البحار من البيانات لغير المصنف (قده) من الكتّاب وأعوانه[1] .

---

(١) ويؤيد الاحتمال المذكور ما ذكره العلامة النوري في الفيض القدسي بعد ردّه ما اشتهر من أنه كان له أعوان كثيرون على جمع الأخبار ولم يكن له حظ من تصانيفه إلا ذكر العنوان وصدر=

وقال الإمام الخميني في بيان مالكية الحق تعالى في تفسير قوله تعالى : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ :

« اعلم أن مالكية الحق تعالى ليست كمالكية العباد مملوكاتهم ، ولا كمالكية السلاطين ممالكهم ، لأنها إضافات اعتبارية ، وليست إضافة الحق إلى الخلق من هذا القبيل ، وإن كان هذا النحو من المالكية ثابتاً للحق تعالى طولاً عند علماء الفقه ، وهو لا ينافي ما هو ملحوظ ومذكور في هذا النظر .

= الخبر ، والباقي يكتبه من حضر عنده ، وقال في آخر كلامه : واعلم أن من الخامس عشر إلى آخره غير مجلد ، الصلاة والمزار لم يخرج من السواد إلى البياض في عهده (ره) ، ولا يوجد في بيان الأخبار سوى بعض الأخبار في الخامس عشر ، وأبواب الكافي في أبواب العشرة .
وقد علّق في الطبعة الأخيرة على هذا القول بما يلي :
والذي ظهر لنا بعد التتبع في أجزاء نسخة الأصل التي كانت بخط يده (قده) وقد عثرنا عليها وجعلناها أصلاً لطبعتنا هذه الرائقة النفيسة أنه قد كان للعلاّمة المجلسي (قده) كتّاب يكتبون بإشارته وتحت إشرافه ، وقد عرفنا منهم اثنين : أحدهما ملاّ ذو الفقار ، والآخر ملاّ محمد رضا ، وهما غير معدودين في عداد العلماء . إلى أن يقول : فلو كانت نسخ كتاب البحار ، أعني نسخ المؤلف (قده) كلها بخط كتّابه وأعوانه كانت نسبة الكتاب وتأليفه وترصيفه وتنسيقه إلى العلامة المجلسي نسبة صحيحة تامّة لا ريب فيها ، كيف وقد عرفت أن نسخة الأصل من كل جذوة رأيناها كانت أكثرها بخط يده (قده) ونقل عن السيد عبدالله أنه قال في إجازته الكبيرة : ورأيت عنده « أي السيد نصر الله » من الكتب العربية ما لم أر عند غيره . من جملتها تمام مجلدات بحار الأنوار ، فإن الموجود المتداول منها كتاب العقل والعلم ، إلى أن قال : وأما بقية الكتب مثل كتاب القرآن والدعاء وكتاب الزيّ والتجمل وكتاب العشرة وكتاب الإجازات وتتمة الفروع فيقال إنها بقيت في المسودة لم تخرج إلى البياض ، فسألت عن مأخذها فقال : إن الميرزا عبد الله بن عيسى الأفندي كان له اختصاص لبعض ورثة المولى المجلسي ، وهو الذي قد صارت هذه الأجزاء في سهمه عند تقسيم الكتب بينهم ، فاستعارها منه ونقلها إلى البياض بنفسه ، لأنها كانت مغشوشة جداً لا يقدر كل كاتب على نقلها صحيحاً ، وكان يستتر بها مدة حياته ، ومن ثم لم تستنسخ ولم تشتهر . ثم لمّا قسمت كتب الميرزا عبد الله بين ورثته وحصل لي اختصاص بالذي وقعت هذه الكتب في سهمه ساومته أولاً بالبيع ، فلما لم يرض استعرتها منه واستكتبتها ، وكنت يومئذٍ لا أملك درهماً واحداً ، فسخر الله رجلاً من ذوي المروّات ببذل المؤونة كلها حتى تمت . انتهى .

وليست من قبيل مالكية الإنسان أعضاؤه وجوارحه ، وليست أيضاً من قبيل مالكيته قواه الظاهرية والباطنية ، وإن كانت هذه المالكية أقرب إلى مالكيته تعالى من سائر أنواع المالكية المذكورة سابقاً . وليست من قبيل مالكية النفس لأفعالها الذاتية التي هي من شؤون النفس ، كإيجاد الصور الذهنية التي يكون قبضها وبسطها إلى حدّ تحت إرادة النفس أيضاً ، وليست أيضاً من قبيل مالكية العوالم العقلية ما دونها ، وإن كانت تلك العوالم متصرفة في هذه العوالم بالإيجاد والإعدام ، لأن جميع دار التحقق الإمكانية الثابت في ناصيتها ذل الفقر محدودة بحدود ومقدرة بقدر ، وَلَوْ بالحدّ الماهوي ، وكل ما كان محدوداً بحد يكون بينه وبين فعله بينونة عزلية على قدر محدوديته ، وليس له إحاطة قيومية حقانية ، فجميع الأشياء متباينة مع منفعلاتها ومتقابلة معها بحسب مرتبة ذاتها ، ولهذه الجهة ليست لها إحاطة ذاتية قيّومية ، وأمّا مالكية الحق تعالى التي هي بالإضافة الإشراقية والإحاطة القيومية مالكية ذاتية حقيقية حقة ، بحيث ليست شائبة البينونة العزليّة بوجه من الوجوه في ذاته وصفاته لموجود من الموجودات ، وإن مالكية الذات المقدسة لجميع العوالم على السواء من دون أن يتفاوت بوجه لموجود من الموجودات ، أو أن تكون إحاطته بعوالم الغيب والمجردات أكثر أو أقرب من العوالم الأخر ، لأنه يستلزم المحدودية والبينونة العزلية ويلازم الافتقار والإمكان ؛ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً . كما أنه يمكن أن تكون الإشارة إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾[1] و ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[2] و ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[3]

(١) سورة الواقعة : الآية ٨٥ .

(٢) سورة (ق) : الآية ١٦ .

و ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلٰهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلٰهٌ ﴾[1] و ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[2] وقول رسول الله على ما نقل : « لو دليتم بحبل إلى الأرضين السفلى لهبطتم على الله » . وقول الصادق (ع) في رواية الكافي : « لايخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان » . وقول الإمام علي النقي (ع) : « واعلم أنه إذا كان في السماء الدنيا فهو كما هو على العرش والأشياء كلها له سواء علماً وقدرة وملكاً وإحاطة » .

ومع أن مالكية الذات المقدسة لجميع الأشياء ولجميع العوالم على السواء ، مع ذلك يقول في الآية الشريفة ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ . . وهذا الاختصاص يمكن أن يكون إمّا لأجل أن يوم الدين هو يوم الجمع ، فلهذه الجهة مالك يوم الدين الذي هو يوم الجمع مالك سائر الأيام المتفرقات ، والمتفرقات في النشأة الملكية هي مجتمعات في النشأة الملكوتية ، وإمّا لأن ظهور مالكية الحق وقاهريته ـ تعالى مجده ـ هو في يوم الجمع الذي هو يوم رجوع الممكنات إلى باب الله ، وصعود الموجودات إلى فناء الله .

وتفصيل هذا الإجمال على وجه يناسب هذه الرسالة هو أن نور الوجود وشمس الحقيقة ما دامت في السير التنزّليّ والنزول عن مكامن الغيب إلى عالم الشهادة ، يكون سيرها في الاحتجاب والغيبة ، وبعبارة أخرى: في كل تنزّل وفي كل تعيّن وتقيّد حجاب ، والإنسان حيث إنه

=(٣) سورة النور : الآية ٣٥ .

(١) سورة الزخرف : الآية ٨٤ .

(٢) سورة الحديد : الآية ٢ .

مجتمع التعيّنات والتقيّدات فهو محتجب بجميع الحجب السبعة الظلمانية والحجب السبعة النورانية التي هي الأرضون السبع والسموات السبع على حسب التأويل ، ولعل الرد إلى أسفل السافلين أيضاً عبارة عن الاحتجاب بجميع أنواع الحجب ، ويمكن أن يعبّر بالليل وليلة القدر عن هذا الاحتجاب لشمس الوجود وصرف النور في أفق التعينات ، وما دام الإنسان محتجباً في تلك الحجب فهو محجوب عن مشاهدة جمال الأزل ومعاينة النور الأول ، وحيث إن جميع الموجودات ، في السير الصعودي عن المنازل السافلة لعالم الطبيعة بالحركات الطبيعية التي هي في جبلّة ذاتها ، وأودعت فيها من جاذبة فطرة الله بتقدير من الفيض الأقدس في الحضرة العلمية ، إذا رجعت إلى الوطن الأصلي والميعاد الحقيقي ، كما أشير إلى ذلك كثيراً في الآيات الشريفة ، فإنها تتخلص ثانياً من الحجب النورانية والظلمانية، وتتجلّى مالكيّة الحق تعالى وقاهريته ، ويتجلّى الحق بالوحدة والقاهرية ، وعند ذلك إذا رجع الآخر إلى الأول ، واتصل الظاهر بالباطن ، وسقط حكم الظهور وتجلّت حكومة الباطن فيجيء الخطاب عن المالك على الإطلاق ، وليس له مخاطب سوى ذاته المقدسة : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ . . ﴾[1] وحيث إنه ليس ثمة مجيب ، فيقول نفسه : ﴿ لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ ﴾[2] وهذا اليوم المطلق الذي هو يوم خروج شمس الحقيقة عن حجاب أفق التعينات ، يوم الدين بمعنى ، لأن كلّ موجود من الموجودات في ظلّ الاسم المناسب له يفنى في الحق ، فإذا نفخ في الصور فيظهر من ذلك الاسم ويقترن مع توابع ذلك الاسم « فريق في الجنة وفريق في السعير » .

(١، ٢) سورة غافر : الآية ١٦ .

والإنسـان الكـامـل في هـذا العـالـم ـ على حسب السلوك إلى الله والهجـرة إليه ـ يخـرج من هذه الحجب، وتـظهر وتثبت لـه أحكام القيـامة والساعة ويوم الـدين ، فيظهـر الحق على قلبه بمـالكيته في هـذا المعراج الصـلاتي ، ويكون لسـانه تـرجمانـاً لقلبه ، وظـاهره لسـاناً لمشـاهـدات باطنه ، وهذا أحد أسرار اختصاص المالكية بيوم الدين »[1] .

أقـول : لا ريب في أن الإنسان في هـذا العالم ـ أي عـالـم المادة والـطبيعـة ـ يتمكن من السيـر إلى التكـامــل ، لأن السيـر هــو مقتضى الحـركة ، وعـالم الطبيعـة عالم الحـركة ، فللمـوجودات في هـذا العالم حـركة لا محـالة إمـا إلى جهة العلو والتكـامل أو إلى النـزول والنقص ، والنفس الإنسانية ليست مستثناة من هذه القـاعدة ، فـإنها من أجـزاء هذا العالم ، فهي إما تنزل عما هي عليـه وتهبط عن مقامهـا الإنساني وتصيـر كالأنعام بل أضل ، ويكون قلبها ولبها كالحجارة أو أشد قسوة ، كما نطق بـذلك القـرآن الكـريم ، أو أنهـا تصعـد وتعـرج وتصـل إلى مقـام « دنـا فتدلى » فتكون من ربها « قاب قـوسين أو أدنى » . فالإنسـان طول عمـره في هذه الدنيـا في السفر والسيـر إمّا إلى الله أو إلى الشيـطان ، وإمّا إلى السعادة والجنة أو إلى الشقاوة والنار ، وهذا السفر ليس سفراً خارجياً عن ذاته بل هو في ذاته ونفسـه ، ومنازل السيـر هي المراتب التي تحصـل له في ذاتـه صعوداً ونـزولاً ، فـإذا كـان سيـره سيـراً صعـوديـاً وسفـراً نحـو الكمال ، وما دام الإنسان السالـك إلى الله يسلك منازل النفس ويقـطعها واحدة بعد الأخرى فهو في الحجاب الظلماني ، فكلما خرق حجاباً من الحجب النفسـانيـة بـالتخلص من صفـة من صفـاتهـا الـرذيلة ، كـالكبـر

---

(١) الآداب المعنوية للصلاة المترجم إلى العربية بواسطة المؤلف صفحة ٤٢٤ ـ ٤٢٧ .

والعجب والرياء والبخل وغيرها ، اقترب من عـالم التجرد الـذي كله نور وضياء ، واكتسب من قربه لعالم التجرد نوراً وبهـاءً : ﴿ **أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتـاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَـاتِ** ﴾[١] وهكذا يتكامـل ويترقّى إلى أن يخرج من عـالم النفس بالكليـة ويصل إلى عالم التجرد ، ولكن فليعلم أن الوصول إلى هـذا العالم بعيـد المدى ولا يتيسر لكلّ أحد .

كان العارف الكامل الحاج الشيخ جواد الأنصاري (قده) يقول : إن عالم النفس وإن كان متناهياً في الحقيقـة لكنه من سعتـه يتخيل للسـالك أنـه غير متنـاه ، ولا يمكن للسالـك أن يتم هذا السفـر ويخـرج من هـذه المنازل بقدمه السلوكية ، فإنها بـطيئة السيـر ومركب لا يتحمـل طيّ هذه المراحل البعيدة ، بل لا بـدّ له من البـراق الذي يسيـر كالبـرق الخاطف والجذبات الإلهية ، التي ورد فيها أن جـذبة من جـذبات الـرحمن توازي عمل الثقلين ، فإذا أدركته العناية الإلهية وأتم هذا السفر ووصل إلى مقام معـرفـة النفس فيـدخـل في عـالم التجـرد ، ويكـون جليسـاً للمجـردات والملائكة المقربين ، ويشاهد من أنوار الملكوت ما يملأ قلبه بهـاء ونوراً وسروراً ، ولكن لا بدّ للسالك أن لا يقتنـع بذلـك بل يـديم سيره ، فـإن أمامه عوالم كثيرة نورية لا بد له من العبـور منها ، وتلك العـوالم النوريـة هي الحجب النورية بينه وبين الجمال المـطلق والكمال المحض ، فـإذا خرق تلك الحجبِ بعناية الله وجذباته ودخل في عالم الأنـوار فيتجلى الله تعالى له بأسمائه الفعلية ، ثم بأسمائه الصفاتيـة ، ثم بأسمـائه الـذاتية ،

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ .

فحينئذٍ يندكّ جبل إنيّة السالك ويصل إلى معدن العظمة ، وتصير روحه معلقة بعزّ قدسه ، كما أشير إلى ذلك في المناجاة الشعبانية :

« إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك ، وأنِر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك ، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة ، وتصير أرواحنا معلقة بعزّ قدسك » .

وقال بعض المحققين : الحدود اللازمة لكل مرتبة ، العارضة لحقيقة وجود الشيء الذي في تلك المرتبة ، هي التي تحجب ذلك الشيء من الوصول إلى المرتبة العالية ، وإدراك ما لها من الكمال والعظمة ، فإذا خرج الشيء عن هذه الحدود وخلع تلك القيود أمكنه الترقي إلى ما فوقه ، فيرى عندئذٍ ذاته متعلقة به غير مستقلة عنه ، ويعرف ماله من البهاء والشرف والكمال والعظمة ، فتلك الحدود هي الحاجبة عن حقيقة الوجود، المطلقة عن كل قيد ، فالنفس الوالهة إلى اللذائذ المادية هي المتوغلة في ظلمات الحدود وغواشي القيود ، وهي أبعد النفوس عن الحق تعالى ، فكلما انخلعت من القيود المادية وقطعت تعلقها عن زخارف هذه الدنيا الدنيّة اقتربت من عالم النور والسرور والبهاء والحبور ، حتى تتجرد تجرداً سامياً فتشاهد نفسها جوهراً مجرداً عن المادة والصورة ، وعند ذلك تخرج عن الحجب الظلمانية ، وهي حقيقة الذنوب والمعاصي والأخلاق الذميمة ، ورأسها حب الدنيا والإخلاد إلى أرض الطبيعة .

وقد روى الفريقان عن النبي (ص) : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » لكنها بعد محتجبة بالحجب النورانية ، وهي ألطف وأرق ، ولذا كان تشخيصها أصعب ومعرفتها إلى الدقة والحذاقة أحوج ، فربّ سالك

في هذه المسالك لما شاهد بعض المراتب الدانية زعم أنه وصل إلى أقصى الكمالات وأرفع الدرجات ، وصار ذلك سبباً لتوقفه في تلك المرتبة واحتجابه بها . ونعم ما قيل :

رق الزجاج ورقت الخمر فتشاكلا وتشابه الأمر
فكأنها خمر ولا قدح وكأنّه قدح ولا خمر

فمن شملته عناية الحق وساعده التوفيق فخصّه الله بعبادته ، وهيّم قلبه لإرادته ، وفرّغ فؤاده لمحبته ، وأزال محبة الأغيار عن قلبه ، وأشرق له نوره ، وكشف له سبحات وجهه ، ورفع عنه حجب كبريائه وسرادقات عزّه وجلاله ، وتجلى له في سرّه ، ثم وفّقه للاستقامة في أمره والتمكن في مقامه ، فارتفع عنه كل حجاب ، وتعلق بعز قدس رب الأرباب ، فقد هنأ عيشه وطابت حياته ، فطوبى له ثم طوبى له .

وقد ظهر مما ذكرنا أن معنى ارتفاع الحجاب مشاهدة عدم استقلال النفس ، فلا يوجب ارتفاع الحجب كلّاً انعدام العالم رأساً ، بل إنما يوجب معاينة ما سوى الله تعالى متعلقاً به غير مستقل بنفسه ، فلا يلزم منه محال ، ولا ينافي شيئاً من أصول الدين ، والله الهادي والمعين . انتهى[1] .

أقول : لقد أجاد فيما أفاد فجزاه الله عن الإسلام خيراً ، ولكن ذلك مبلغنا من العلم وما أوتينا من العلم إلا قليلاً : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾[2] .

---

(١) بحار الأنوار : المجلد ٥٥ الصفحة ٤٩ .

(٢) سورة الحديد : الآية ٣ .

فتلخص من جميع ما ذكرنا أن الفلاح الحقيقي لا يتحقق لأحد إلا بالتزكية التامة ، وهي الخروج من الحجب الظلمانية والنورانية بأجمعها ، وأن التزكية لها مراتب كما أن الحجب أيضاً كثيرة ، فبالتزكية لكل مرتبة يخرق حجاباً من الحجب ويفلح السالك حسب مرتبته وتزكيته ، إلى أن يصل أعلاها ويربح الفلاح المطلق ، وهو الفناء في الله والبقاء به ، وحيث أنّا المسجونين في سجن الأخلاق الذميمة والأوصاف الخبيثة والمعاصي القلبية والقالبية ، لا تنال أيدينا تلك المقامات العالية ، فعلينا أن نجاهد أنفسنا بتوفيق الله سبحانه في مقامها الأدنى ، ونتخلق بالأخلاق الحسنة ، ونعمل الأعمال الصالحة ، لعل الله سبحانه برحمته الواسعة يرحمنا ويأخذ بأيدينا ، فإنه بالغافلين عن ذكره رحيم رؤوف وبجذبهم إلى بابه ودود عطوف : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[1] .

فصل : اعلم أيها الأخ في الله وفقك الله لمراضيه أن الإنسان أعجوبة الكون والخلقة ، وهو ذو نشأتين وذو عالمين هما : النشأة الظاهرية الملكية الدنيوية وهي جسمه ، والنشأة الباطنية الغيبية الملكوتية التي هي من غير هذا العالم ومن عالم الغيب والملكوت .

وللنفس الإنسانية مقامات ودرجات قد قسمها نحواً كلياً بأقسام فتارة إلى سبعة ، وأخرى إلى أربعة ، وثالثة بثلاثة ، ورابعة بقسمين على ما أفاده الإمام الخميني (دام ظله) .

وقد فسرت مقامات النفس السبعة ودرجاتها التي عبرت عنها على

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٣ .

لسان الحكماء والعرفاء بالأطوار السبعة واللطائف السبعة النفسانية تفاسير مختلفة ، وباصطلاحات متفاوتة أشهرها :

١ ـ الطبع ، ٢ ـ النفس ، ٣ ـ القلب ، ٤ ـ الروح ، ٥ ـ السر ، ٦ ـ الخفي ، ٧ ـ الأخفى .

وغرضهم من السير في الأطوار السبعة القلبية أن للسالك في مراحل سيره وسلوكه حالات تناسب كل واحدة منها إحدى هذه المقامات السبعة ، فإنه ما دام في مقام الطبع له حالات مخصوصة بمقام الطبع وعالم الطبيعة ، فإذا ترقى من هذه المرتبة وجاوزها فيصل إلى عالم النفس ، وهو ما دام سالكاً في عالم النفس له حالات غير ما كان عليها من قبل ، وهكذا إلى آخر مراحل السير والسلوك وهي مرحلة الأخفى للإنسانية وهو مقام الفناء ، ولهذا سمى الشيخ العطار في كتابه(منطق الطير) هذه المراحل بالأودية وقال :

١ ـ وادي الطلب ، ٢ ـ وادي العشق ، ٣ ـ وادي المعرفة ، ٤ ـ وادي الاستغناء ، ٥ ـ وادي التوحيد ، ٦ ـ وادي الحيرة ، ٧ ـ وادي الفناء .

وجعل العارف المعروف خواجة عبد الله الأنصاري كتابه المعروف بمنازل السائرين على ثلاثمائة مقام أو درجة تتشكل من عشرة أقسام ، وكل قسم من عشرة أبواب ، وكل باب له ثلاث درجات .

والعارف المولى جلال الدين الرومي قسّم مراتب النفس إلى أربع وهي : ١ ـ الجسم ، ٢ ـ الروح ، ٣ ـ العقل ، ٤ ـ روح الوحي .

وبيّن أن الجسم بمنزلة الكُمّ والروح كاليد المختفية في الكم ،

والعقل أخفى منها ، كما أن روح الوحي أخفى من العقل أيضاً ،ولذلك نرى أن جسم أحمد (ص) وروحه وعقله كانت مدرَكة للناس بخلاف روح الوحي منه (ص) ، فإنه لم يطلع عليها إلا الأقلون[1] .

وهو يعتقد أن ما فوق هذه المراتب الأربع وهو السر والخفي والأخفى غير قابل للبيان ، أو على الأقل لا بدّ من أن يكتم ولا يبين ، وجعل في بعض الموارد القلب في المرتبة الرابعة ، والعقل في الثالثة وجعله ظلاً للقلب ،، وجعل الروح في الثانية وجعلها ظلاً للعقل ، والمرتبة الأولى وهي الجسم ظلاً ضئيلاً وشبحاً ضعيفاً للعقل ، ويمثل لذلك بطيران الطير في الهواء فيقع منه ظل على وجه الأرض ، فالجسم إذاً ظل ظل القلب ، وأنىٰ له الوصول إلى مقام القلب . يقول :

درهواى غيب مرغى مي پرد سايهء أو برزمينى مي فتد
جسم سايهء سايهء سايهء دل است جسم كى اندر خورپايهء دل است

الترجمة :

حينما طير بأفْق الغيب طار . ظلّه فوق الثرى حطّ وسار
فغدا جسمٌ لقلبٍ في المثال كظلالٍ لظلالٍ لظلال
فمتى يمكن للجسم الصعود لمقام القلب. .حتّى بالجهود ؟

وقال العارف الكامل الشاه آبادي أستاذ الإمام الخميني في العلوم الإلهية في بيان مراتب النفس بتوضيح منا :

اعلم أن للإنسان ظهراً وبطناً ، أي جهتين : جهة ظاهرية وجهة باطنية ، فما هو منه ظاهر كالجسم وآثاره فهو الجهة الظاهرية ، وما منه

---

(١) راجع المجلد الثاني من كتاب المثنوي الصفحة ١٨٥ طبع ايران رشدية .

غير ظاهر بل خفي كالعقل ونحوه فهو باطن الإنسان وجهته الباطنية ، وباطن الإنسان له سبع مراتب ويعبر عنها باللطائف السبع ، وهي : النفس والعقل والقلب والروح والسر والخفي والأخفى .

أما المرتبة الأولى : وهي مرتبة حسه ونفسه الناظرة إلى الحياة الدنيا ، ويكون همها هذه الحياة الدنية ، ولم تكن ناظرة إلى المولى وأوامره .

وبعبارة أخرى : ليس للإنسان في هذه المرتبة غرض إلا تنظيم معيشته وتأمين مشتهياته بأي نحو كان ومن أي طريق حصل ، وقد أشارت إلى هذه المشتهيات الآية الشريفة : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرْثِ** . . ﴾[1] .

والإنسان في هذه المرحلة حكمه حكم البهائم ، همها علفها ، وهو واقع في مراتع البهائم وخالد فيها ، ويصرف جميع قواه العاملة التي منحها الله سبحانه في هذا الطريق ، ولسان حاله : ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ** ﴾[2] و ﴿ . . **وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ** ﴾[3] ونظائرها كثير في القرآن ، فعلى الإنسان السالك المجاهد أن يتدبّر في أحوال هؤلاء وسوء عاقبتهم ليكون معرضاً عنهم وعن أفعالهم .

المرتبة الثانية : هي مرتبة عقله النظري ، وتنوّره بالمعارف الإلهية

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٠٠ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٢٠ .

من المعرفة بالمبدأ والمعاد ، وأسماء الله تعالى وصفاته ، وعرفان النبوة والولاية وما بين المبدأ والمعاد من الحسنات والسيئات ، وأوامر الله تعالى ونواهيه ، وما يترتب على امتثال أوامره وعصيانه تعالى فيما نهى عنه ، والوعد والوعيد عليها إجمالاً أو تفصيلاً ، فإذا استفاد الإنسان من عقله ما ذُكر فيكون شائقاً إلى اللذات الباقية والحشر مع الملائكة ، بل ربما يحصل له الجمع بين اللذتين ، ويكون لسانه ما بيّنه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[1] .

وكان الصادق (ع) إذا رأى بعض أصحابه يقول : « وقد يجمعهما الله لأقوام » ومقتضى هذه اللطيفة الإلهية الخروج من مرتع البهائم والدخول في حوزة الكرائم من الأنبياء والأولياء الأعاظم فيؤثر العقل في النفس ويأخذ زمامها بيده فلا تتحرك إلا بإشارته وهدايته ، ويكون تحركها نحو ما ينبغي فعله كماً وكيفاً ، وهذه المرتبة هي الإسلام ؛ فإن الإسلام هو التسليم ، أي : التسليم بأوامر العقل المستلهم من الشارع الحكيم ، ولا يحصل ذلك إلا بعد ما ذكرنا من معرفة المبدأ والمعاد وما بينهما من الحسنات والسيئات ، وما يترتب عليها من الوعد والوعيد إجمالاً أو تفصيلاً ، ونتيجة هذا الائتمار وخضوع النفس للعقل وعلى ما يعبر العارف الشاه آبادي (مناكحة العقل والنفس) يتولّد قلب نفساني نوراني ، فيصل الإنسان السالك إلى المرتبة الثالثة وهي مرتبة القلب .

المرتبة الثالثة : وإذا نال السالك هذا المقام وظهر القلب النوراني

---

(١) سورة البقرة : الاية ٢٠١ .

له في عالم الوجود ففي هذه المرحلة يدرك حضور جميع الأعمال وجميع الأشياء لدى الحق ، ويراها في محضره تعالى ، وذلك لأن القلب في هذه المرحلة يدرك أن الموجودات كلها مظاهر الحق تعالى وجلواته وآياته ، كما قال تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقّ** . . ﴾[1] ومن البديهي أن ظهور كل شيء هو عين حضور ذلك الشيء ، ولا يغيب الظاهر عن ظهوره أبداً ؛ فالقلب النوراني للسالك يرى أن جميع الأشياء علوياتها وسفلياتها هي نفس الحضور ولا تغيب عنه تعالى أبداً ، ويصل إلى مقام : « وإن لم تكن تراه فإنه يراك » ولسان هذه المرتبة قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ** . . ﴾[2] وقوله : ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** . . ﴾[3] .

وبعبارة أخرى : العقل ربما يصدّق بما جاء به النبي (ص) ، إما بسبب خارجي كالمعجزة والآية ، أو بسبب داخلي نفساني كسكون نفسه واطمئنان ضميره بأن هذا الرسول ليس بكاذب ، وكل ما أخبر به فهو من قبل الله سبحانه ، فيؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وهذا القبول أيضاً تارة يكون بصورة إجمالية وعلى الوجه الكلّي ، أو يكون بصورة تفصيلية وهو أن يصدق بآحاد أخبار الصادق بالمبدأ والمعاد وما بينهما من الحسنات والسيئات وما يترتب عليها وعلى تفاصيلها ، فهذا النحو من التصديق سواءً أكان إجمالياً أو تفصيلياً ربما يوجب العبودية أيضاً ، فيأتي

---

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣ .

(٢) سورة الحديد : الآية ٢٨ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٥ .

بالأعمال الصالحة ؛ ولكن هذا التصديق على ما يعبر عنه الإمام الخميني (دام ظله) حظ العقل وليس حظ القلب ، ولذلك لا يترتب عليه جميع آثار التصديق وقد مثّل لذلك الإمام الخميني (دام ظله) بأنّ الإنسان ربما يعتقد أن الميت لا يملك ضراً ولا نفعاً وإنما هو جماد كبقية الجمادات ، ولكن مع ذلك يخاف أن يبيت معه ليلاً في بيت وحده ، وهذا من جهة أن القلب لم ينل حظه من مدركه العقلي ، وهذا بخلاف ما إذا تكرر صدور هذا الفعل منه ، فيدخل الإيمان بأن الميت لا يقدر على إضرار الغير قلبه ، وإذا دخل هذا الإيمان قلبه فلا يخاف من البيتوتة عنده ، وهكذا الإنسان المدرك بعقله صدق النبي وما جاء به من الله ، ولكن حيث إن الإيمان لمّا يدخل في قلبه فلا يترتب عليه جميع آثاره التي من جملتها أن يرى نفسه وأعماله حاضرة عند الله سبحانه ولكن إذا دخل الإيمان القلب ، ووصل العبد إلى مرحلة القلب ، وتولد القلب النوراني فحينئذٍ يرى نفسه وأعماله بل جميع الأشياء في حضرة المعبود ، فيصل إلى مقام : « وإن لم تكن تراه فإنه يراك » . فإذا وصل إلى هذا المقام ودخل الإيمان قلبه وصار مؤمناً حقيقياً يخاطب من الله سبحانه بخطابه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ** . . ﴾[1] ويتلقى البشارة من الله سبحانه الخاصة للمؤمنين بقوله : ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** . . ﴾[2] فهذا مقام الإيمان ؛ كما أن المقام السابق كان مقام الإسلام : ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي**

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥ .

قُلُوبِكُمْ . . ﴾[1] .

المرتبة الرابعة : المقام الرابع والمرحلة الرابعة مقام الروح ومرتبتها ، وهو أن يعلم السالك حضور الحق تعالى ، كما أن المرحلة الثالثة كانت علماً منه بمحضر الحق تعالى ، وهذا هو الفرق بين المقامين فإن السالك في مقام القلب نتيجة استحضاره العقائد وتنوّر نفسه بنور العبادة يلتفت ويتوجه بأن نفسه وعبادته والأشياء كلها في محضر الحَق تعالى ، وفي مقام الروح يترفع عن هذا المقام ويعلم بحضوره تعالى . ولتوضيح المقام نقول :

الإنسان تارة يرى نفسه في حضور السلطان ، ويرى ويشاهد السلطان وحضوره وعظمته وجلاله ، وأخرى لا يشاهد السلطان ولا يرى حضوره ولكن يعلم أنه في محضر السلطان ، أي أن السلطان في مقره الخاص مشرف عليه وعلى أعماله ولا يخفى عليه شيء من حركاته . فحال هذا الشخص في الصورة الأولى حال من يراعي الحضور وفي الثانية من يراعي المحضر ، فكأن الصادق (ع) في قوله لإسحق بن عمار : « يا إسحق خف الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » أشار إلى هذين المقامين ؛ بأنه لا بد وأن تكون حالتك حالة من « كأنه يرى الله سبحانه ويراعي أدب حضوره » وإن كنت دون هذه الحالة ولم تصل إلى هذا المقام فعلى الأقل تحصل على المرحلة الثانية التي هي دون الأولى ، وهي « أنه يراك » ولا بد لك حينئذٍ من مراعاة أدب المحضر .

وفي قضية موسى والخضر التي وردت في القرآن وقد وقع

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٤ .

الاختلاف بينهما ، وصارت أعمال الخضر مورداً للاعتراض من موسى (ع) وأجابه عنه الخضر بما هو مذكور في القرآن ، يرى العارف الكامل الشاه آبادي أن الاختلاف كان مرتبطاً بما ذكرنا من الحضور والمحضر ، فالخضر كان يدرك الحضور وكان مأموراً للحضور وحفظ آدابه، وموسى (ع) كان يدرك المحضر وكان مأموراً لحفظ المحضر، فوقع التنازع بينهما ، وحيث إن مأمور الحضور أقرب إلى المولى من مأمور المحضر فكان اطّلاعه على المصالح والمفاسد أكثر ، فيجب على مأمور المحضر متابعته .

وبعبارة أخرى : الخضر (ع) كان يرى الآمر وأمره ، وموسى كان متوجهاً إلى المأمور به ولعل في قوله (ع) : ﴿ **سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً** ﴾[1] إشارة إلى ذلك ، فتأمل تعرف بإذن الله .

يقول العارف المذكور : إن زيد بن حارثة قد تشرّف بهذا المقام حيث قال له رسول الله (ص) كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . فقال (ص) : إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا ـ بالراء المعجمة ـ بمعنى أعرضت عنها ، أو عرفت نفسي الدنيا بالتخفيف والتشديد بمعنى عرفت عيبها)، فتساوى عندي ذهبها وحجرها ومدرها ثم قال : كأني أنظر إلى عرش الرحمن بارزاً . . إلى أن قال (ص) عرفت فالزم .

وهذه المرتبة مرتبة أن تعبد الله كأنك تراه .

وللشيخ العارف الشاه آبادي في هذا المقام وبقية المقامات : أي

---

(١) سورة الكهف : الآية ٧٨ .

الخامس والسادس والسابع : السر والخفي والأخفى مطالب تجلّ عن فهمي . ومن أراد الإطلاع عليها فليراجع كتابه (رشحات البحار) .

وقال المحدث الجليل المجلسي (رضوان الله عليه) في البحار[1] نقلاً عن شرح المقاصد : إن المشهور أن مراتب النفس أربع ، لأنه إما كمال وإما استعداد نحو الكمال (وهذا الاستعداد) إما قوي وإما متوسط أو ضعيف ، فالضعيف وهومحض قابلية النفس للإدراكات تسمى عقلاً هيولانياً ، تشبيهاً بالهيولى الأولى الخالية في نفسها عن جميع الصور القابلة لها ، بمنزلة قوة الطفل للكتابة ، والمتوسط وهو استعدادها لتحصيل النظريات بعد حصول الضروريات تسمى عقلاً بالملكة ، لما حصل لها من ملكة الانتقال إلى النظريات ، بمنزلة الشخص المستعد لتعلم الكتابة . وهذا بخلاف الأول فإنه كان بمنزلة الطفل في قوته للكتابة ، وتختلف مراتب الناس في ذلك اختلافاً عظيماً بحسب اختلاف درجات الاستعدادات والقوى، وهو الاقتدار على استحضار النظريات متى شاء من غير افتقار إلى كسب جديد،لكونها مكتسبة مخزونة تحضر بمجرد الالتفات بمنزلة القادر على الكتابة حين لا يكتب ، وله أن يكتب ، متى شاء ، ويسمى عقلاً بالفعل لشدة قربه من الفعل ، وأما الكمال فهو أن يحصل النظريات مشاهدة بمنزلة الكاتب حين يكتب ويسمى عقلاً مستفاداً ، أي من خارج هو العقل الفعال الذي يخرج نفوسنا من القوة إلى الفعل فيما له من الكمالات . إلى آخر ما قال (قدس سره) .

وقال جمع من الحكماء : إن للنفس ثلاث نشآت : نشأة الصور

---

(١) بحار الأنوار المجلد ٥٨ الصفحة ١١٩ .

الحسية الطبيعية ومظهرها الحواس الخمس الظاهرة ، ويقال لها الدنيا أيضاً . والثانية : نشأة الأشباح والصور الغائبة عن الحواس ومظهرها الحواس الباطنية ، ويطلق عليها عالم الغيب والآخرة أيضاً ، والثالثة : النشأة العقلية وهي دار المقربين ودار العقل والمعقول ، ومظهرها القوة العاقلة . وربما يقال إن للنفس نشأتين : الغيب والشهادة أو المُلك والملكوت . ولعله إلى ما ذكرنا أشار الإمام الخميني (دام ظله) في شرحه الحديث النبوي الشريف المعروف : « مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر ، فقيل : يا رسول الله وما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد النفس » قال (دام ظله): وللنفس التي هي من عالم الغيب والملكوت مقامات ودرجات ، قد قسمها العلماء نحواً كلياً تارة إلى سبعة أقسام وأخرى إلى أربعة وثالثة إلى ثلاثة ورابعة إلى قسمين ، ولكل من هذه المقامات والدرجات جنود رحمانية وعقلية تجذبها إلى الملكوت الأعلى وتدعوها إلى السعادة ، وجنود شيطانية وجهلية تجذبها إلى الملكوت السفلي وتدعوها إلى الشقاوة ، والتنازع بين الجندين قائم على ساقه دائماً في ميدان الإنسان . إلى آخر ما أفاد (دام ظله) .

ويمكن أن يفسر كلام الإمام (دام ظله) من تقسيم النفس إلى أربعة أقسام بما ذكر في الرواية المروية عن كميل بن زياد أنه قال : سألت مولانا أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) فقلت : يا أمير المؤمنين أريد أن تعرفني نفسي . قال : يا كميل وأي الأنفس تريد أن أعرفك ؟ قلت : يا مولاي هل هي إلاّ نفس واحدة ؟ قال : يا كميل إنما هي أربعة : النامية النباتية والحسية الحيوانية والناطقة القدسية والكلية الإلهية ولكل واحدة من هذه خمس قوى وخاصيتان . فالنامية النباتية لها خمس قوى : ماسكة

وجاذبة وهاضمة ودافعة ومربية . ولها خاصيتان : الزيادة والنقصان ، وانبعاثها من الكبد ، والحسية الحيوانية لها خمس قوى : سمع وبصر وشم وذوق ولمس ، ولها خاصيتان : الرضا والغضب ، وانبعاثها من القلب ، والناطقة القدسية لها خمس قوى : فكر وذكر وعلم وحلم ونباهة ، وليس لها انبعاث فهي أشبه الأشياء بالنفوس الملكية ، ولها خاصيتان : النزاهة والحكمة ، والكلّية الإلهية لها خمس قوى : بقاء في فناء ونعيم في شقاء وعزّ في ذلّ وفقر في غنى وصبر في بلاء ، ولها خاصيتان : الرضا والتسليم ، وهذه التي مبدأها من الله وإليه تعود . قال الله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾[2] والعقل وسط الكل . انتهى .

قال المجلسي (ره) في البحار المجلد « ٥٨ » في ذكر هذا الحديث : وقد روى بعض الصوفية في كتبهم عن كميل بن زياد أنه قال: الحديث ، وبعد ذكره الحديث قال : أقول : هذه الاصطلاحات لم تكد توجد في الأخبار المعتبرة المتداولة ، وهي شبيهة بأضغاث أحلام الصوفية . ثم قال : وقال بعضهم في شرح هذا الخبر : النفسان الأوليان في كلامه (ع) مختصتان بالجهة الحيوانية ، التي هي محل اللذة والألم في الدنيا والآخرة ، والأخيرتان بالجهة الإنسانية وهما سعيدة في النشأتين وسيما الأخيرة فإنها لا حظّ لها من الشقاء ، لأنها ليست من عالم الشقاء بل هي منفوخة من روح الله ، فلا يتطرق إليها ألم هناك من

(١) سورة صّ : الآية ٧٢ .

(٢) سورة الفجر : الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

وجه ، وليست هي موجودة في أكثر النـاس ، بل ربمـا لم يبلغ من ألوف كثيرة واحد إليها ، وكذلك الأعضاء والجوارح بمعزل عن اللذة والألم ألا ترى إلى المريض إذا نـام وهو حي والحس عنـده موجـود والجرح الـذي يتألم به في يقظته موجود في العضو ومع هذا لا يجد ألمـاً ، لأن الواجـد للألـم قد صرف وجهه عن عالم الشهادة إلى البرزخ فما عنده خبر ، فـإذا استيقظ المريض أي رجع إلى عالم الشهادة ونزل منزل الحواس قامت به الأوجـاع والآلام ، فإن كـان في البـرزخ في ألم كمـا في رؤيـا مفـزعـة مؤلمـة ، أو في لذة كمـا في رؤيـا حسنـة ملذة ، انتقـل منـه الألم واللذة حيث انتقل ، وكذلك حاله في الآخرة . انتهى .

أقول : والإنصاف أن الرواية مشتملة على مطالب عاليـة وصحيحة والشرح المذكور أيضاً شرح في غاية المتانة والصحة ، لم يتبيّن لنـا وجه ما نسبه (قده)في الرواية إلى أضغاث أحلام الصوفية!!وإن تعجب فعجب قوله (قده) : « وقد روي بعض الصوفية في كتبهم ثم قـوله (ره) : وقـال بعضهم في شرح هذا الخبـر » مع أن الـراوي للخبر هـو العالم المتبحـر الحكيم العـارف المحـدث المـولى محسن الكاشـاني في كتـابـه (عين اليقين) الذي قال في حقه المحدث القمي (قده) : الفيض لقب العالم الفـاضل الكـامل العـارف المحدث المحقق المـدقق الحكيم المتألـه محمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن الكاشاني صـاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة كـالوافي والصـافي والشافي والمفـاتيح والنخبـة والحقائق وعلم اليقين وعين اليقين وخـلاصـة الأذكـار وبشـارة الشيعـة والمحجـة البيضاء في إحياء الأحياء ، إلى غير ذلك مما يقـرب من مائـة مصنّـف ثم ذكر أبياتاً من شعره وقال : وبالجملة أمره في الفضل والأدب وطـول الباع

وكثرة الاطلاع وجودة التعبير وحسن التحرير والإحاطة بمراتب المعقول والمنقول أشهر من أن يخفى ، تفرق الناس فرقاً في مدحه والقدح فيه والتعصّب له أو عليه ، وذلك دليل على وفور فضله وتقدمه على أقرانه ، والكامل من عدت سقطاته ، والسعيد من حسبت هفواته ـ إلى آخر ما قال .

ولو شككنا في نسبة المجلسي الحديث المذكور إلى الفيض (قده) واحتملنا أن المجلسي (قده) نقل الرواية عن كتاب من كتب الصوفية ، فلا نشك في أن مراده من قوله : وقال بعضهم (أي بعض (الصوفية) هو الفيض ، لأن الشرح المذكور بعينه موجود في كتابه (عين اليقين) بعد ذكر الرواية ، فكيف يمكن لنا التصديق بأن عالماً جليلاً كالمجلسي (قده) يحسب الرواية المذكورة من أضغاث أحلام الصوفية ، مع ما نعهد منه (قده) في البحار وغيرها من التوجيهات اللطيفة والعميقة للروايات التي هي أبعد بكثير عن الاصطلاحات المتعارفة في هذه الرواية لفظاً ، وأدق منها معنىً ، ومع نقله التوجيه الذي ذكره بعد الرواية بلا فصل ، هذا مع أن الفيض (قده) من مشايخ حديثه ومجيزيه في الرواية[1] .

وقال هو (قده) في المجلد ١٠٧ الصحيفة ١٢٤ صورة ما كتبه لنا من الإجازة المولى الجليل العالم العارف الرباني مولانا محمد محسن الكاشاني رحمه الله ، وهي بخطه الشريف : بسم الله الرحمن الرحيم إلى اخره : فكيف نصدق بعد ذلك ما ذكر منه من القول في حق شيخه

(١) راجع الفيض القدسي للمحدث النوري المطبوع في المجلد ١٠٢ من بحار الأنوار : الطبعة الجديدة صفحة ٨١ .

بتلك العبارة الموهنة ؟ لا ، ما هكذا الظن به ولا المعروف من فضله وعلمه وتقواه وحسن تأدبه بالآداب الإلهية ، فلا بد من التوجيه بما ذكرناه آنفاً أو بغيره في كل ما نجده منسوباً إليه (قده) مما لا يليق بمقامه القدوسي .

« **رحم الله امرأً علم . . . . . وإلى أين . .** » .

فصل : اعلم أن الإنسان الكامل خليفة الله في أرضه المشار إليه بقوله عز وجل : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[1] وهذا الإنسان الكامل له مراتب أعلاها الرسالة ، ولا يكون إنسان رسولاً حتى يكون نبيّاً ، ولا يكون نبيّاً حتى يكون ولياً ، وهذه المراتب على حسب الوظيفة التي يعيّنها الله سبحانه بعلمه وحكمته لعباده ، وكل رسول نبي ولا عكس ، وكل رسول أو نبي فهو ولي ولا عكس .

وبعبارةٍ أخرى : لا نبيّ إلاّ وولايته أقدم من نبوّته ولا رسول إلاّ ونبوته أقدم من رسالته أما الإمامة فلها بحث مستقل شرحناه في رسالتنا المستقلة المطبوعة حول الولاية والإمامة ، فالولاية باطن النبوة والنبوة باطن الرسالة وباطن كل شيء أشرف وأعظم من ظاهره ، لأن الظاهر محتاج إلى الباطن في قدره وشرافته ولا عكس ، ولأن الباطن أقرب إلى الحق ، وإن شئت قلت : الملاك الأهم في القرب هو الباطن ، ثم الظاهر ، ولذلك ورد أن الله سبحانه لا ينظر إلى صوركم بل ينظر إلى قلوبكم ، وقال بعض المحققين في وجه شرافة الباطن على الظاهر : إن كلاً من النبوة والولاية صادرة عن الله ومتعلقة بالله وكلاً من الرسالة

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

والإمامة صادرة عن الله ومتعلقة بعباد الله ، فيكون الأوليـان أفضل، وأيضـاً كل من الرسالة والإمامة متعلق بمصلحة الوقت ، والنبوة والولايـة لا تعلق لهما بوقت دون وقت ، ومع ذلك كله فليس يجب أن يكون الولي أعـظم من النبي ولا من الرسول ولا من الإمام ، ولا النبي أعظم من الرسول بل الأمر في الكل بالعكس في ولي يتبع نبياً أو رسولاً أو إماماً ، أو نبي يتبع رسـولاً ، لأن لكل من النبي والإمـام مرتبتين وللرسـول ثـلاث مـراتب ، وللولي واحـدة ، فمن قال إن الـولي فـوق النبي فـإنمـا يعني بـذلـك في شخص واحـد ، بمعنى أن النبي من حيث إنه ولي أشـرف منـه من حيث كونه نبياً ورسولاً ، وكذا الإمام من حيث إنه ولي أشرف منه من حيث إنه إمـام ، وكيف يكون الـولي أفضل مـطلقاً ولا ولي إلا وهـو تـابـع لنبي أو إمام ، والتابع لا يدرك المتبوع أبداً فيمـا هو تابع له فيه ، إذ لو أدركه لم يكن تـابعاً . نعم . قـد يكون ولي أفضـل من نبي إذا لم يكن تابعـاً له ، كمـا كـان أميـر المؤمنين (ع) أعـظم من جميـع الأنبيـاء والأوليـاء بعـد نبينا (ص) وكذا أولاده المعصومون . انتهى .

وبالجملة : من هذه المـراتب الساميـة للإنسـان قد انتهت بحكمـة الله وتقديره ثـلاث مراتب وهي النبـوة والرسـالة والإمـامة ، فـالنبوة تمهـد أصلهـا بـآدم ولا تـزال تنمـو وتكمـل حتى بلغ كمـالهـا إلى نبـينـا محمـد (ص) ، فكان خـاتم النبيين والمرسلين واللبنـة الأخيرة ، وهكـذا الإمامة تـدرجت إلى الكمال حتى بلغت غـايتها إلى أميـر المؤمنين وسيد الـوصيين ومنه إلى أولاده المعصـومين ، وهي اليـوم متمثلة في المهـدي الموعود ظهوره ، الذي وعد الله به الأمم ليجمع به الكلم ، وهو صاحب الأمـر في هـذا العصـر ، وبقيـة الله اليـوم في بـلاده وعبـاده صلوات الله

وسلامه عليه وعلى آبائه المعصومين ، فبهم اختتمت الإمامة اللازمة للولاية المطلقة الكلية ، وليس لغيرهم فيها نصيب ، أما الولاية المقيدة والجزئية فأبوابها للطالبين ـ بعد ـ مفتوحة ، وسبيلها ، للراغبين إليها شارعة ، فعليك أيها السالك الراغب أن تجدّ في الطلب وتعلو همتك ولا تقنع بالأرذل الأدنى ، كما قال علي (ع) في كلام له : « ألا حرّ يدع هذه اللماظة لأهلها[1] ، إنه ليس لأنفسكم ثمناً إلا الجنة ، فلا تبيعوها إلا بها » .

فشمّر يا أخي عن ذيل همتك وجاهد نفسك وزكّها تفز بالفوز العظيم والفلاح الدائم ، فإن الله سبحانه أقسم بآياته الباهرة أن الفلاح والنجاة لمن زكى نفسه ، والخيبة والخسران لمن دسّاها .

فصل : اعلم يا أخي العزيز إنَّ العمدة في التزكية وإن كانت هي تزكية الروح والقلب وتطهيرها عن القذارات الخلقية والملكات الخبيثة ، ولكن هذه التزكية لا تحصل ما لم يزك السالك ظاهره وما لم يطهره من دنس الذنوب والأعمال السيئة ، وذلك لأن النفس الناطقة الإنسانية في عين وحدتها وكمال بساطتها ذات نشآت عمدتها ثلاث : النشأة الملكية الدنيوية الظاهرة ، والنشأة البرزخية المتوسطة ، والنشأة الغيبية الباطنية ، ونسبة كل من هذه المراتب إلى الأخرى نسبة الظاهرية والباطنية ونسبة التجلي والمتجلي ، ومن هذه الجهة تسري الآثار والخواص والانفعالات من مرتبة إلى أخرى : فمثلاً إذا حصلت للقلب حالة الخجل والانفعال فيؤثر في الظاهر ويحمر الوجه ويعرق الجبين ، وإذا حصلت له حالة الخوف يصفر الوجه وترتعد الفرائص ، وبالعكس من ذلك إذا أدركت

(١) اللماظة : بقية الطعام في الفم .

حاسة البصر شيئاً يقع منه أثـر في الحس البصري البـاطني القلبي يناسب تلك النشأة ، فمن هذه الجهة يكون لجميع الآداب الصوريـة في الباطـن أثر بل آثار ، ولكل من الأخلاق الجميلة والسيئة آثار في الظاهر ،كما هو المشاهد خارجاً ومطابق للوجدان والبرهان ، فمن زعم أن إصلاح الباطن يتم مع عدم إصـلاح الظاهـر ، وليس لإصلاح الـظاهر دخـل في إصلاح البـاطن فقد وقـع في فخ النفس الأمـارة بالسـوء والشيطان المضـل وضل وغـوى ، وقد أشيـر إلى ما ذكـرنا في الآيـات والروايـات الكثيـرة . فمن الآيات قولـه تعالى : ﴿ ثُمَّ كَـانَ عَاقِبَـةَ الَّذِينَ أَسَـاؤُوا السُّوأَى أَنْ كَـذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وكَانُوا بِها يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[1] وقوله تعـالى : ﴿ ذَلِكَ بِـأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُـمَّ كفَـرُوا فَـطُبِـعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُـونَ ﴾[2] وغيـر ذلـك من الآيات .

ومن الروايات مـا رواه في الكافي والعيـاشي عن الباقـر (ع) قال : « ما من عبد مؤمن إلا وفي قلبـه نكتة بيضـاء ، فإذا أذنب خـرج في تلك النكتـة نكـتـة سـوداء ، فـإن تـاب ذهـب ذلـك السـواد ، فـإن تـمـادى في الـذنوب زاد ذلـك السواد حتى يغـطي البياض ، فـإذا غـطى البيـاض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً » . وهـو قول الله عـز وجل : ﴿ كَـلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3] ولعل في قوله تعالى : ﴿ كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُـلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّـارٍ ﴾[4] إشارة إلى مضمـون هذه الـرواية . فتدبر تعرف .

---

(١) سورة الروم : الآية ١٠ .

(٢) سورة المنافقون : الآية ٣ .

(٣) سورة المطففين : الآية ١٤ .

(٤) سورة غافر (المؤمن) : الآية ٣٥ .

إذاً فلا بد من تهذيب الظاهر أولاً ، وذلك باستعمال الشرائع والتقيد بقيودها ، والائتمار بأوامر الله والانتهاء عن نواهيه ، وإضافة إلى ذلك بالالتزام بفعل النوافل من الصيام والقيام والصدقات والحضور في الجماعات وسائر الآداب والسنن ، ثم تهذيب الباطن من الأخلاق الرذيلة والملكات الرديئة ، من الشهوة والغضب فيما يسخط الله تعالى ، والحرص والحسد والبخل والعجب والغرور والكبر وغير ذلك من الصفات والهيئات التي هي من المبعدات عن ساحة قرب الحق تعالى ، والساترة للحق سبحانه ، والزائغة عن الصراط المستقيم ، وتسمى هذه المرحلة بالتخلية ، أحد الأركان الثلاثة للتهذيب ، وهي التخلية والتجلية والتحلية ، قال بعض المحققين في المقام : فإن الإنسان كما أنه مركب من حيث المادة البدنيّة من أمزجة مختلفة وكيفيّات متضادة كذلك مركب من حيث الصورة النفسانية من قوى متخالفة متضادة ، كقوة الشهوة والغضب والوهم والعقل . والشهوة كالبهيمة ، والغضب كالسبع ، والوهم كالشيطان ، والعقل كالملك ، والناظر بعين البصيرة يرى قوة الشهوة بهيمة بالحقيقة ، وكذا يشاهد قوة الغضب إذا اشتدت بعينها كلباً عقوراً أو سبعاً ضارياً ، وكذا قوة الوهم إذا لم يكن في طاعة العقل وتسخيره شيطاناً مغوياً لما دريت أن الحقائق للأشياء هي صورتها المعنوية لا موادها الحسية ، فإذا كان في باطن الإنسان بهائم وشياطين وله حاجة في طريق سلوكه وسفره إلى الله إلى استخدامها فإن في فقدها بالكلية خلافاً لمصلحة السفر وأخذ الزاد ، فلا بدّ للعقل أن يسخرها ويستخدمها ويتعامل معها تعامل السلطان العادل مع المردة من رؤساء مملكته ، ويداريها مداراة الفسوني للحيّة التي يريد أن ينتفع من ترياقها ولا يتضرر

من سمها المهلك ، ليحصل له حسن القلب وسلامة القلب لتهيؤ قلبه بذلك لنور المعرفة وتسمى هاتان المرتبتان بالتجلية بالجيم والتخلية بالخاء المعجمة وإليهما أشير بقوله سبحانه : ﴿ **وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ** . . ﴾[1] ويقول النبي (ص) : « إن أدنى درجات الإيمان إماطة الأذى عن الطريق » .

ثم تصوير النفس بالصور القدسية العلمية ، وتحلّيها بالصفات الحميدة والأخلاق المرضية من التوبة والإنابة والصبر والشكر والرضا والزهد الحقيقي ، والتوكل والأنس والمحبة والتوجه بالكلية إلى الحق ، والمواظبة على الطهارة التامة ، والذكر والمراقبة والمحاسبة والوجد والسكر والوله والشوق والعشق والهيمان ، وغير ذلك من نتائج القرب والمعارفة بالحق تعالى سبحانه ، وتسمى هذه المرتبة بالتحلية بالحاء المهملة ، ثم بعد ذلك مرتبة فناء النفس عن ذاتها ، وقصر النظر على ملاحظة الحق سبحانه ، وكبريائه وآثار قدرته وعلمه وإرادته وسمعه وبصره ، لتؤكد علاقتها معه واتصالها به ، بحيث يصح أن يشير إلى مبدئها الحقيقي وجاعلها التام إشارة روحانية بأنا حين اضمحلال ذاتها وخرورها عند اندكاك جبل إنيّتها ، وإلى صفاتها التي هي عين ذاته من السمع والبصر والقدرة وغيرها ، بأنها سمعي وبصري وقدرتي ، فبه يبصر الأشياء ، وبه يسمع وبه يقتدر .

كما ورد في الحديث القدسي بالأسانيد الصحيحة من طريقنا وطريق العامة : « ما تقرّب إليّ عبد بشيء أفضل مما افترضت عليه ، ولا

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٠ .

يزال يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر بـه ، ويده التي يبـطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي » .

فقـد تحقق لها حنيئـذٍ التخلق بـأخـلاق الله بـالحقيقـة ، لا بمعنى صيرورة صفات الله التي هي عين ذاته أعراضاً قائمـة بذات النفس ، بـل بمعنى علاقة أخرى شديدة أتم من علاقة النفس مع البدن وصفاته الكونية المادية ، إذ تلك هي العلاقة التي بين الفاعل الحقيقي ومجعوله ، وهـذه علاقة ضعيفة ستقطع بالموت الـطبيعي أو الإرادي ، ولهذا يصـح للنفس أن تقـول مشيرة إلى ذاتهـا وجـوهـرهـا : أنـا سمعت وبصـرت واشتهيت وتحركت وسكنت وغير ذلك من صفات بدنه وقواه بحسب الحقيقة ، من غيـر لزوم تجـرم وتكثف يعتريهـا ، فما ظنـك بنفس تجردت بـالكلية عن البدن وعن التعلق بغير الله ، واتصلت به اتصالاً معنوياً لاهوتياً ، وقصرت النظر على ملاحظة جماله ، فتشاهده في كل مـا تسمع وتـرى ، وتلاحظ وجهه في كل ما يظهر ويخفى .

قـال العـلامــة المحقق نصيـر الـدين الـطوسي (ره) في شـرح الإشارات : العارف إذا انقطع عن نفسه واتصـل بالحق . رأى كـل قدرة مستغرقة في قدرته المتعلقة بجميع المقـدورات ، وكل علم مستغـرقاً في علمه الذي لا يعزب عنه شيء من الموجودات ، وكل أرادة مستغرقـة في إرادته التي لا يتأبى عنه شيء من الممكنات ، بل كل وجـود وكل كمـال وجود فهو صادر عنه فائض من لدنه ، فصار الحق حينئـذٍ بصره الـذي به يبصر ، وسمعه الذي به يسمع ، وقدرته التي بها يفعل ، وعلمه الـذي به يعلم ، ووجوده الذي به يوجد ، فصار العارف حينئذٍ متخلقاً بأخـلاق الله

بالحقيقة . هذا كلامه (ره) وهذه المرتبة هي نهاية السير إلى الله على صراط النفس . وبعد هذه المراتب الأربع منازل ومراحل ليست أقل من درجات ما قبله لكن أوثر فيها الاختصار ، لأنها كما قيل لا يفهمها الحديث ولا تشرحها العبارة ولا يكشف المقال عنها غير الخيال ، ومن أحب أن يتعرفها فليتدرج إلى أن يصير من أهل المشاهدة دون المشافهة ، ومن الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر . انتهى كلامه رفع في الخلد مقامه .

أقول :

قوله : ومن أحب إلى آخره من كلام الشيخ الرئيس في أواخر النمط التاسع من كتاب الإشارات ، أقول ما ذكره قدس سره هو المعبر عنه بقرب النوافل ، وقد تكرر ذلك في كلام الإمام الخميني (دام ظله) واستدل عليه بالرواية المذكورة ، وهذه الرواية من الروايات المجمع عليها عند العامة والخاصة لا مجال لأحد في إنكارها ، وقد تصدى جمع من العلماء لبيان المراد منها وتحقيق معانيها غير اللذين ذكرناهما .

منهم المحقق الجليل السيد علي خان آل منصور في كتابه (رياض السالكين) قال في الروضة السادسة في توضيح هذا الحديث الشريف ، قال في شرح دعاء علي بن الحسين (ع) في دعاء الصباح « مستعملاً لمحبتك » قال : وبحسب الترقي في درجات العرفان تزداد المحبة إلى أن يستولي سلطان الحب على قلب المؤمن فيشغله عن الالتفات إلى غيره ، ويغني عن حظوظ نفسه ، فبه يسمع وبه يبصر وبه ينطق وبه يبطش وبه يمشي ، ولا يفعل إلا ما أحبه وأراده ، ولا يختار إلا ما أمره ورضيه ، ولا يثق إلا به ، ولا يسكن إلا إليه ، ولا يتكلم إلا

عنـه ، ولا يتفكر إلا فيـه ، ولا يتنفس إلا معـه ، وهذه أحـوال تلطف عن العبارة وتدق عن الإشارة ، إلى أن قال : قال بعض أرباب العرفان : كما أن لمحبـة المحب مـراتب متفـاضلة كـذلـك لمحبـة المحبـوب درجـات متفاوتة ، فمحبته للعوام باختصاصهم بـالرحمـة والغفران والتجلي عليهم بالأفعال والآيات ، ومحبته للخواص باختصاصهم بتجلي صفات الجمال وستر ظلمة صفاتهم بأنوار صفاته ، ومحبته لأخص الخواص باختصاصهم بالجذبات وستر ظلمة وجودهم بأنوار الوجود الحقيقي ، فيتجلى أولاً بنـار الجـلال فيحرق من قلبهم جميـع ما كـان فيه ، ثم يتجلى بنـور الجمـال فيمحـوهم عنهم ويثبتهم به ويسلب عنهم السمـع والبصر والنـطق ، كمـا ورد في الحديث الصحيح المشهور بين الخاصـة والعامـة : « وإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الـذي ينطق به ، ويده التي يبطش بها ، إن دعاني أجبته ، وإن سألني أعطيته » .

ومنهم العلامة شيخنـا البهائي (قده) قال في شـرح الأربعين في ذيل هـذا الحـديث : والمـراد والله أعلم أني إذا أحببت عبـدي جـذبتـه إلى محـل الأنس وصـرفتـه إلى عـالم القـدس وصيّـرت ذكـره مستغـرقـاً في أسـرار الملكوت ، وحواسه مقصورة على اجتلاء أنوار الجبـروت ، فتثبت حينئذٍ في مقام القرب قدمه ، ويمتزج بالمحبـة لحمه ودمـه ، إلى أن يغيب عن نفسـه ويذهـل عن حسه وتتـلاشىٰ الأغيار في نـظره ، حتى يكون بمنـزلة سمعه وبصره كما قال من قال :

جنـــوني فيـــك لا يخـفى   ونـــاري منـــك لا تخبـــو
فـــأنت السمـــع والأبصـــار   والأركـــان والـــقـلـــب

انتهى .

ومنهم صدر المتألهين فيلسوف الإسلام ، قال في معنى الحديث في تفسير سورة الفاتحة : إن هذا الحديث ناظر إلى مقام المحو والصحو ، فقوله « حتى أحبه » إشارة إلى مقام المحو ، وقوله : « كنت سمعه » كناية عن مقام الصحو ، وهو مقام الممثلية والمندوبية . انتهى .

وقال بعض المحققين المعاصرين : إن الحديث كله ناظر إلى مقام المحو والفناء في الله تعالى ، وهو مقام تخلي العبد عن وجوده ودخوله تحت ظل وجود الحق تعالى ، فهو فانٍ عن نفسه وباق بالله تعالى ، وفي هذا المقام يكون الحق تعالى سمعه وبصره ويده ، فبعد التحقق بهذا المقام إذا رجع فيعبر عنه بالصحو ، وهو مقام الخلافة جزئية أو كلية وعامة أو خاصة ، ففي حالة الفناء والمحو يكون الحق تعالى سمعه وبصره ، ولكن في حالة البقاء والصحو يكون الإنسان عين الحق تعالى وسمعه ، وكم فرق بين أن يكون الله عين أحد أو يكون هو عين الله ، ففي المرحلة الأولى يكون السالك بمنزلة الطفل ، فهو في عين الوصل ناقص ، بخلاف المرحلة الثانية ، ثم يضرب هذا المحقق مثلاً لطيفاً لتوضيح هذا المطلب الجليل، قال : افرض أن لك طفلاً في حداثة السن وهو لا يعرف الآداب الاجتماعية وكيفية تزاور الناس ومعاشرتهم ، فيكون حضوره في المجالس بتبعك ، وبعبارة أخرى : يحضر في المجالس وهو في حضنك وعاتقك ، ويمشي برجلك ، ويأخذ الأشياء بيدك ، وإذا خاطبه أحد وسأل عن صحته وأحواله فتجيب أنت السائل عنه وتشكره ، لأن الطفل لا يعرف كيف يجيب وكيف يشكر من يتفقد عن حاله ، فحينئذٍ تنوب أنت عن طفلك وتقول : أشكركم ، فهنا كنت لسان الطفل الذي ينطق به ، وتلقمه بيدك ، ولو أراده أحد بسوء فتتدخل وتدافع

وتكـون يده التي يبـطش بها ، فهـذه النيابـة عنه مـوجودة مـا لم يبلغ حد الكمـال ، فإذا بلغ حـد الكمال وعـرف آداب المعـاشـرة فـربمـا ينعكس الأمر ، فهو يـزور من قبلك ويشكرهم ، وهـو يوقـع الوثـائق عنك ويعقـد العقود وغير ذلك من الأمـور ، فحينئذٍ يكون هو سمعك الذي تسمع به ، ويـدك التي تبطش بهـا ، ولسانـك الذي تنـطق به ، فبهـذا البيان يتضـح الفـرق بين الـروايــة المتفق عليهـا عنــد الفـريقين السنــة والشيعـة عن رسول الله (ص) : « ما تقرب إليّ عبد بشيء أحب ممـا افترضت عليـه ، وإنه ليتقرب إليّ بالنافلة حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الـذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر بـه ، ولسانـه الذي ينـطق به ، ويـده التي يبطش بهـا » ـ وبين ما ورد في حق علي (ع) أنـه عين الله ويد الله كمـا ورد في زيارته المأثورة : « السلام عليك يـا عين الله الناظـرة ويده البـاسطة وأذنـه الواعية » .

وفي الكـافي المجلد الأول صفحـة ٢٥٦ عن أبي جعفـر (ع) قال : «نحن المثاني الذي أعـطاه الله نبينا ـ إلى أن قـال ـ : ونحن عين الله في خلقه ويده المبسوطة بالرحمة على عباده » .

وفيه قال أبو عبدالله (ع) : « إن الله خلقنا فأحسن خلقنا ، وصوَّرنـا فأحسن صُوَرَنا ، وجعلنا عينه في عباده ، ولسانه الناطق في خلقه ، ويده المبسوطة على عباده بالرأفة والرحمة » .

وفيه عن أسود بن سعيد قال : كنت عند أبي جعفر (ع) فأنشأ يقول ابتـداء منه من غيـر أن أسـألـه : « نحن حجـة الله ونحن بـاب الله ونحن لسان الله ونحن وجه الله ونحن عين الله في خلقـه ونحن ولاة أمر الله في عباده » .

وفيه عن هاشم بن أبي عمارة قال : سمعت أمير المؤمنين (ع) يقول : « أنا عين الله وأنا يد الله وأنا جنب الله وأنا باب الله » .

وفي حديث النورانية : « لا تسمونا أرباباً وقولوا في فضلنا ما شئتم ، فإنكم لن تبلغوا من فضلنا كُنْهَ ما جعله الله لنا ولا معشار العشر ، لأنّا أمان الله ودلائله وحجج الله وخلفاؤه . . . . وعين الله ولسان الله . . . . » الحديث .

فصل : إذا عرفت أيها الأخ الإيماني مقامك وميزك وما تتمكن منه من العروج إلى المقامات والكمالات ؛ فإن كنت من أهل الهمم العالية وأردت أن تكون من أهل المعرفة وتكون إنساناً روحانياً وسهيماً وشريكاً للملائكة ، وجليساً مع الأنبياء والأولياء فشمر عن ذيل همتك واتخذ طريق الشرع ـ وهو الصراط المستقيم ـ مسلكاً ومسيراً ، وزكّ نفسك عن صفات الحيوانات ، وتخلّق بأخلاق الروحانيين ، لعلك تصل إلى حقيقة العلم بالله وملائكته ورسله ومبدئك ومعادك ، وتعرف حقيقتك ونفسك التي بين جنبيك ، فقد ورد عنهم (ع) : « ليس العلم في السماء فينزل إليكم [لينزل إليكم] ولا في الأرض ليصعد لكم بل هو مجبول في قلوبكم . تخلّقوا بأخلاق الروحانيين يظهر لكم » . فإذا زكّيت نفسك بالتخلي عن الأوصاف الرذيلة والتحلّي بالصفات الحسنة والأخلاق الحميدة تكن موجوداً بما هو إنسان دون أن تكون إنساناً بما هو حيوان .

وقد روى علم الهدى (رض) في (الغرر والدرر) عن علي (ع) : حينما سئل عن العالم العلوي قال : « صور عارية عن المواد ـ إلى أن قال ـ : خلق الإنسان ذا نفس ناطقة إن زكّاها بالعلم والعمل فقد شابهت

جواهر أوائل عللها ، وإذا اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد فقد شارك بها السبع الشداد » .

وروى الفيض (قده) في الصافي عن علي (ع) وابن أبي جمهور الاحسائي في المجلّي عن الصادق (ع) : « الصورة الإنسانية هي أكبر حجج الله على خلقه ، وهي الكتاب الذي كتبه بيده ، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته ، وهي مجموع صور العالمين ، وهي المختصر من اللوح المحفوظ ، وهي الشاهدة على كل غائب ، وهي الحجة على كل جاحد ، وهي الطريق المستقيم إلى كل خير ، وهي الجسر (الصراط) الممدود بين الجنة والنار »[1] .

روى البهائي (قده)في كشكوله : الصفحة (٥٩٤) أن علياً (ع) قال لحبر من أحبار اليهود وعلمائهم : « من اعتدلت طباعه صفي مزاجه ، ومن صفي مزاجه قوي أثر النفس فيه ، ومن قوي أثر النفس فيه سما إلى ما يرتقيه ، ومن سما إلى ما يرتقيه فقد تخلق بالأخلاق النفسانية ، ومن تخلق بالأخلاق النفسانية فقد صار موجوداً بما هو إنسان دون أن يكون موجوداً بما هو حيوان ، ودخل في الباب الملكي وليس له عن هذه الحالة مغيّر » . انتهى .

وإذا حصلت هذه الدولة لأحد وخرج عن عوالم الطبيعة المظلمة ووصل إلى معرفة نفسه : بمعنى أنه شاهد حقيقة نفسه وروحه بالكشف والعيان ، فيشاهد آنذاك أن نفسه موجودة مجردة ، وأن معرفتها مفتاح معرفة الربّ تعالى،وأنه قد خرج من الحجب الظلمانية ولم يبق بينه وبين

---

(١) شرح نهج البلاغة للخوئي : المجلد ١٩ الصفحة ٢٨٩ .

المقام الذي يمكنه الوصول إليه من معرفة الله إلا الحجب النورانية ، وله في طي هذه الحجب والوصول إلى ذلك المقام المنيع لذائذ وابتهاجات وعوالم ولوازم لا يدركها أحد غير الواصلين إليها ، وتلك اللذات الحاصلة عند شهود هذه المراتب هي التي أشير إليها في حديث الكافي عن الصادق (ع) بإسناده عن جميل بن درّاج أنه قال : « لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدّوا أعينهم إلى ما متع به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها، وكانت دنياهم عندهم أقل مما يطأونه بأرجلهم ، ولتنعّموا بمعرفة الله وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنات (الجنان) مع أولياء الله . إن معرفة الله أنس من كل وحشة ، وصاحب من كل وحدة ، ونور من كل ظلمة ، وقوة من كل ضعف ، وشفاء من كل سقم ، قال (ع) : «قد كان قبلكم قوم يقتلون ويُحرقون ويُنشرون بالمناشير ، وتضيق عليهم الأرض برحبها ، فما يردّهم عمّا هم عليه شيء ومما هم فيه ، من غير ترةٍ وتروا من فعل ذلك بهم ، ولا أذى مما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، فاسألوا ربكم درجاتهم ، واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم »[1] .

وفي مصباح الشريعة : العارف ، شخصه مع الخلق وقلبه مع الله ، لو سها قلبه عن الله طرفة عين لمات شوقاً إليه ، والعارف أمين ودائع الله ، وكنز أسراره ومعدن نوره ودليل رحمته على خلقه ، ومطيّة علومه وميزان فضله وعدله ، قد غني عن الخلق والمراد والدنيا ، لا مؤنس له سوى الله ، ولا نطق (ولا منطق) ولا إشارة ولا نفس إلا بالله

(١) باب ثواب العالم والمتعلم : المجلد الأول ـ الوافي الصفحة ٤٢ .

(و) لله (و) من الله (و) مع الله فهو في رياض قدسه متردد ، ومن لطائف فضله إليه متزود ، والمعرفة أصل وفرعه الإيمان .

وقال المعلم الثاني أبو نصير الفارابي (رض) في (الفصوص) : إن لك منك غطاء فضلاً عن لباسك من البدن ، فاجهد أن ترفع الحجاب ، فحينئذٍ تلحق فلا تسأل عما تباشره فإن ألمت فويل وإن سلمت فطوبى لك ، ونفسك وأنت في بدنك كأنك لست في بدنك ، وكأنك في صقع الملكوت ، فترى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فاتخذ لك عند الحق عهداً إلى أن تأتيه فرداً .

قال العلامة حسن زاده في رسالته اللقائية بعد نقل هذا الكلام قلت : قوله : فلا تسأل عما تباشره ، كلام عميق بعيد الغور يفسره قول الشيخ الرئيس في آخر النمط التاسع في مقامات العارفين ، والعارف ربما ذهل فيما يصار به إليه فغفل عن كل شيء فهو في حكم من لا يكلف ، وكيف والتكليف لمن يعقل التكليف حالما يعقله ،ولمن اجترح بخطيئة إن لم يعقل التكليف .

وقال الخواجة نصير الدين الطوسي (في الشرح) والمراد أن العارف ربما ذهل في حال اتصاله بعالم القدس عن هذا العالم فغفل عن كل ما في هذا العالم وصدر عنه إخلال بالتكاليف الشرعية فهو لا يصير بذلك متأثراً لأنه في حكم من لا يكلف ، لأن التكليف لا يتعلق إلا بمن يعقل التكليف في وقت تعقّله ذلك ، أو بمن يتأثم بترك التكليف إن لم يكن يعقل التكليف ، كالنائمين والغافلين والصبيان الذين هم في حكم المكلفين .

ثم استشهد لذلك بكلام من الخواجة عبدالله الأنصاري وبشعر من الحافظ الشيرازي . انتهى .

أقول : ما ذكر في توجيه قول المعلم الثاني وإن كان صحيحاً في محله ، حتى بالنظر إلى القواعد الفقهية لدينا ، ولكنه ربما لا يكشف عن علوّ مقام العارف المذكور ، ولذلك لم ينقل ولم يعهد من أحد من الأئمة المعصومين (ع) ولا من الذين يحذون حذوهم من أجلّاء العرفاء بالله كابن طاووس وأمثاله فوت تكليف من التكاليف منهم للجهة المذكورة ، مع ما لهم من القرب من الله والمنزلة عنده والمعرفة به ، وقد خطر ببالي القاصر معنى آخر لكلام الفارابي ، سليماً من الإشكال المذكور ، وهو أن السالك نتيجة قربه من الله تعالى وتحصله قرب النوافل الذي من آثاره أن يكون الرب تعالى سمعه وبصره ويده ورجله كما مرّ ذلك ، فما يصدر منه من الأعمال يكون بأمر من الله تعالى ، ويصبح من العباد المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، فلا يسأل عما يباشره كما شرط ذلك الخضر (ع) على موسى (ع) بقوله : ﴿**فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ**﴾[1] . وأعطاه موسى العهد بذلك ، وبعدما خالف عهده قال الخضر في آخر كلامه له : ﴿ **وما فعلته عن أمري** ﴾[2] .

فلنرجع إلى ما كنّا فيه ، قال الصادق (ع) : المشتاق لا يشتهي طعاماً ولا يستلذ شراباً ولا يستطيب رقاداً ولا يأنس جمعاً ولا يأوي داراً ولا يسكن عمراناً ولا يلبس ليناً ولا يقر قراراً ويعبد الله ليلاً ونهاراً راجياً أن يصل إلى ما يشتاق إليه ويناجيه بلسان شوقه معبّراً عما في سريرته ،

---

(١) سورة الكهف : الآية ٧٠ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٨٢ .

كما أخبر الله عن موسى بن عمران في ميعاد ربه بقوله : ﴿ . . وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[1] .

وفسر النبي (ص) عن حاله أنه ما أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوماً شوقاً إلى ربه ، فإذا دخلت ميدان الشوق فكبّر على نفسك ومرادك من الدنيا ، ودع المألوفات وأحرم عن سوى مشوقك ، ولبّ بين حياتك وموتك . . الحديث إلى آخره .

وفي علل الشرائع عن النبي (ص) : « إن شعيباً بكى من حب الله عز وجل حتى عمي فرد الله عليه بصره ، ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره ، ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره ، فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه : يا شعيب إلى متى يكون هذا منك أبداً ؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك ، وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك ، فقال : إلهي وسيدي أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك ولا شوقاً إلى جنتك ، ولكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر أو أراك . فأوحى الله جل جلاله : أما إذا كان هذا هكذا فمن أجل ذلك سأخدمك كليمي موسى بن عمران » .

وفي حديث المعراج في (الوافي) قال : يا رب ما أول العبادة ؟ قال : الصمت والصوم . قال : تعلم يا أحمد ما ميراث الصوم ؟ قال : لا يا ربي . قال : ميراث الصوم قلة الأكل وقلة الكلام . والعبادة الثانية الصمت ويورث الصمت الحكمة ، وتورث الحكمة المعرفة ، وتورث المعرفة اليقين ، وإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح بعسر أم بيسر ،

---

(١) سورة طه : الآية ٨٤ .

فهـذا مقام الـراضين . فمن عمل رضـاي ألزمتـه ثلاث خصـال : أعرّفـه شكراً لا يخالطه الجهل ، وذكراً لا يخالطه النسيان ، ومحبـة لا يؤثر على محبتي محبـة المخلوقين ، وإذا أحبني أحببته وحبّبتـه إلى خلقي ، وأفتح عين قلبـه إلى عـظمتي وجـلالي فـلا أخفي عليـه علم خـاصـة خلقي ، وأنـاجيه في ظلم الليـل وضوء النهـار حتى ينقطع حـديثه مـع المخلوقين ومجالسته معهم ، وأُسمعه كلامي وكلام ملائكتي ، وأعـرفه سـري الذي سترته عن خلقي . . إلى أن قـال : ثم أرفع الحجب بيني وبينـه فأنعمـه بكـلامي وألذذه بـالنظر إليّ . . إلى أن قـال : ولأجعلن ملك هـذا العبـد فوق ملك الملوك حتى يتضعضع له كل ملك ، ويهابه كـل سلطان جائـر وجبار عنيد ، ويتمسح له كل سبع ضار ، ولأشوّقنّ إليه الجنة ومـا فيها ، ولأستغـرقنّ عقله بمعرفتي ، ولأقـومنّ لـه مقـام عقله ، ثم لأهـوّننّ عليـه الموت وسكراته وحرارته وفزعه حتى يساق إلى الجنة سوقاً ، وإذا نزل به ملك المـوت يقول : مـرحباً بـك فطوبى لـك طوبى لـك ، إن الله إليك مشتاق . اعلم يا ولي الله أن الأبـواب التي كان يصعـد منها عملك تبكي عليـك ، وأن محـرابـك ومصـلّاك يبكيـان عليـك ، ويقـول : أنـا راضٍ برضوان الله وبكـرامته ، فيخـرج الروح من بـدنه كمـا تخرج الشعـرة من العجين ، وإن الملائكة يقومون عنـد رأسه بيـدي كل ملك كـأس من ماء الكوثر وكأس من الخمر ، يسقون روحه حتى يـذهب سكرتـه وحرارتـه ، ويبشرونه بـالبشارة العـظمىٰ فيقولـون : طبت وطاب مثـواك ، إنك تقـدم على العزيز الكـريم الحبيب القريب ، فيـطير الـروح من أيدي المـلائكة فيسرع إلى الله في أسرع من طرفة عين ، فلا يبقى حجاب ولا ستـر بينـه وبين الله تعـالى ، والله تعالى إليـه لمشتاق ، فيجلس على عين عن يمين

العرش ، ثم يقال لـه : أيّـها الـروح كيف تركت الـدنيا ؟ فيقـول : إلهي وسيدي ، وعزتك وجلالك لا علم لي بالدنيا ، أنـا منذ خلقتني إلى هـذه الغـاية خـائف منـك . فيقـول الله : صـدقت كنت بجسمـك في الـدنيـا وبروحك معي ، فأنت بعيني أعلم سرك وعلانيتك ، سل أعطك ، وتمنّ علي فأكرمك ، هذه جنتي فتبحبح فيها، وهذا جواري فـاسكنه ، فيقـول الروح : إلهي عرّفتني نفسك فاستغنيت بها عن جميع خلقـك ، وعزتـك وجلالك لو كان رضاك في أن أقطع إرباً إرباً أو أقتل سبعين قتلة بأشـد ما يقتـل به النـاس لكـان رضـاك أحبّ إليّ . . إلى أن قـال : قـال الله عـز وجل : وعزتي وجلالي لا أحجب بيني وبينك في وقت من الأوقات حتى تدخل عليّ أي وقت شئت ، وكذلك أفعل بأحبائي .

ثم قال (ص) في تفسير الحياة الباقية : وإن الله يفعل بصاحبها كذا وكذا إلى أن قال : وأفتح عين قلبه وسمعـه حتى يسمع بقلبـه منّي وينظر بقلبه إلى عظمتي وجلالي ، وأيضاً في هذا الحديث : إن أدنى ما أعطي الزاهدين في الآخرة أن أعطيهم مفاتيح الجنان كلها حتى يفتحوا أي باب شاؤوا . ولا أحجب عنهم وجهي ولأنعّمنّهم بأنواع التلذذ من كلامي .

قال السيد الجليل ابن طاووس (رض) في (فـلاح السائـل) : فقد روي أن مـولانا جعفـر بن محمد الصـادق (ع) كان يتلو القـرآن في صلاة فغشي عليه ، فلما أفاق سئل : مـا الذي أوجب مـا انتهت حالتـك إليه ؟ فقال (ع) ما معناه : ما زلت أكرر آيات القرآن حتى بلغت إلى حال كأنني سمعتهـا مشافهـة ممن أنزلهـا على المكـاشفـة والعيـان ، فلم تقم القـوة البشرية لمكاشفة الجلالة الإلهية .

وإياك يا من لا تعرف حقيقة ذلك أن تستبعده أو يجعل الشيطان في

تجويز الذي رويناه عندك شكاً ، بل كن به مصدقاً . أما سمعت الله يقول : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً . . ﴾[1] .

وقال العلامة البهائي (قده) في آخر الكشكول الصفحة ٦٢٥ من طبع نجم الدولة :

روى العارف الرباني المولى عبد الرزاق الكاشاني في تأويلاته أن الصادق جعفر بن محمد (ع) خرّ مغشياً عليه في الصلاة ، فسئل عن ذلك فقال : ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها .

ثم قال : نقل الفاضل الميبدي في شرح الديوان عن الشيخ السهروردي أنه قال بعد نقل هذه الحكاية عن الصادق (ع) : إن لسان الإمام في ذلك الوقت كان كشجرة موسى عند قول : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴾ وهو مذكور في الأحياء في تلاوة القرآن . انتهى .

قال العارف الواصل المولى ميرزا جواد الملكي في رسالته (لقاء الله) ما ترجمته :

لو أراد الإنسان أن يحصل بهذه العوالم بالكشف والشهود يلزم أولاً أن يعين عظمة المقصود بقدره وبمقدار ما يمكنه من تعيينها ، ويعلم أنه ماذا يطلب ، وما قدر عظمة مطلوبه حتى يكون جده في الطلب لائقاً لمطلوبه . مثلاً : من كان طالباً أن يكون مختاراً لقرية لا يكون سعيه وجدّه بمقدار من يطلب السلطنة على العالم ، ولكن لما كانت عظمة هذا المطلوب (أي معرفة الله) في الشرف والنور والبهاء والسلطنة واللذة بحيث لا يمكن لأحد ـ وللمبتدىء خاصة ـ تصوير كنهها ، بل كل ما

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٤٣ .

يتصوره الإنسان لا تكون نسبته إلى حقيقته نسبة الواحد إلى الألوف بل تكون أقل من ذلك ، فلا بد له من القياس الإجمالي على قدر معقولاته ومعلوماته . فمثلاً : يفرض الشرف الموجود في عالم الحس والشهادة للأعاظم وقرب السلاطين ونفس السلطنة وسلطنة جميع العالم ، ثم يقارن بينها والسلطنة على السموات فيحاسب ما يرى من العظمة والشرف ، ثم يقارن العالم المحسوس وعالم الغيب ، ثم يرجع ويفكر في كمية سلطنة سلاطين الدنيا ويقارن بينها وبين السلطنة المعنوية ، فيرى أن مدة سلطنة هؤلاء السلاطين إنما هي سنون معدودة ، فماذا تكون نسبتها إلى السلطنة الأبدية ، ثم إنها ترجح السلطنة الدنيوية من جهة الكيفية أيضاً ، فإن في السلطنة الدنيوية آلافاً من المنقصات إما موجودة أو متوقعة ، وأما السلطنة المعنوية فهي السلطنة الحقيقية ، نظير سلطنة الإنسان على أعضائه وقواه وخياله ، فمثلاً : يلاحظ ما ورد من الأخبار في وصف سلطنة أهل الجنة : منها أنه يؤتى بكتاب من الله تعالى مكتوب فيه : جعلتك حيّاً لا تموت ، وتقول للشيء كن فيكون .

أقول : لفظ الخبر الوارد هكذا أن الملك يأتي إليهم فيقول لهم بعد أن يستأذن عليهم في الدخول ، فإذا دخل ناولهم كتاباً من عند الله بعد أن يسلم عليهم من الله ، وإذا في الكتاب : لكل إنسان يخاطب به من الحي القيوم الذي لا يموت إلى الحي القيوم الذي لا يموت ، أما بعد فإني أقول للشيء كن فيكون وقد جعلتك . . . . . .

نعود إلى ترجمة كلام العارف المذكور :

وبالجملة : ما أعطاه الله من السلطنة لكل إنسان صحيح المشاعر في إحداث الصور الخيالية يعطي مثله أو أعلى منه لعباده الخاصّين من

الأنبياء والأولياء في هذه الدنيا ، ولعامّة أهل الجنة أو جميعهم في الآخرة ، في إحداثهم وإيجادهم الأعيان الخارجية بإذن الله ، وأهل المعرفة يثبتون الإعجاز للأنبياء والأئمة بهذا الطريق .

وخلاصة القول : إن الإنسان إذا وازن المعاني بعقله ليرى أن الدرجات وحدود الأشياء كلها في محلها وعلى أساس العدل ، وإذا تنحى عن العقل فإذاً تبطل الحكمة ولا يبقى فرق بين النور والظلمة والخير والشر والشريف والوضيع .

وبالجملة : هذا المقدار يكفي في المقارنة بين هذا المطلوب والمطلوبات الأخرى ، وهكذا إذا أردت أن تتصور لذة هذا المطلوب وبهجته فيكفيك كنموذج من لذات ذاك العالم ما ذكره بعض أهل المعرفة : من أن ذاك المقام هو دار الحيوان والحياة الحقيقية كأنها حياة تغلي وتفور ، ويحصل لأهل هذا المقام جميع أنواع اللذات دون أن يتداخل بعضها ببعض ، أو يحصل بالكسر والانكسار كيفية أخرى فيها ، فمثلاً جميع لذات جميع أفراد الأطعمة وهكذا لذات جميع المرئيات والمسموعات والمشمومات والملموسات في كل آن موجودة من دون أن تؤثر إحداها في الأخرى أو تبطلها ، ثم إن هذه كلها من قبيل اللذات للعوالم الحسية وجنة النعيم ، وأما لو تصورت على هذا القياس اللذات والبهجات لتجليات أنوار الجمال والجلال لحضرة الجميل والجليل تعالى فلعله يكفيك هذا التصور في بَذْلِكَ كل طاقتك وجهدك في سبيل نيل هذا المطلوب .

انتهى ما أردناه من نقل كلامه الشريف ، ويكفيك قوله تعالى :

﴿ لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[1] مع العلم بأن ما تشاؤه النفس غير متناه .

أخذ التصميم للرجوع إلى الله والشروع فيه

فصل : اعلم أيها الأخ العزيز أن أول منزل من منازل السالكين إلى الله تعالى هو منزل اليقظة . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى . . ﴾[2] وقال العارف خواجة عبدالله الأنصاري : القومة لله هي اليقظة من سنة الغفلة والنهوض عن ورطة الفترة وهي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه . انتهى .

فإذا تفكرت فيما ذكرناه في هذه الأوراق وهو قليل من كثير وقطرة من بحر ، وأمعنت النظر فيه بإخلاص لله سبحانه وتضرع إليه ، لتنبّه قلبك بإذن الله من نوم الغفلة قبل أن يتنبه بالموت والخروج عن هذا العالم ، ومهما شعرت في نفسك الاستيقاظ ورأيت فيه آثاره التي منها جذب النفع إليها ودفع الضرر عنها ، وشعرت في نفسك الرغبة إلى العبادات والأعمال الصالحة ، والرغبة عن المعاصي والأعمال السيئة فبشّر نفسك بعناية الله وفضله ، واعلم أنك دخلت المنزل الأول من منازل السلوك ، وأدِّ لله تعالى شكر هذه النعمة العظمى بالمواظبة على يقظتك ليزيدك من فضله وعنايته ، فإنه سبحانه قد وعد في كتابه الكريم بالتأكيد الأكيد بقوله : ﴿ . . لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ . . ﴾[3] ولا يخلف

---

(١) سورة قٓ : الآية ٣٥ .

(٢) سورة سبأ : الآية ٤٦ .

(٣) سورة إبراهيم : الآية ٧ .

الله وعده ، والمزيد في هذه النعمة أن تدخل المنزل الثاني للسلوك وهو التوبة ، وسنشرح بتوفيق الله ما يلزم للسالك في هذا المنزل ، ولا بدّ له من تهيئته وأخذه زاداً لهذا السفر المبارك الميمون .

فصل : اعلم يا عزيزي أن للتوبة مراتب بحسب مراتب التائبين ، كما قال الصادق (ع) في (مصباح الشريعة) : « التوبة حبل الله ومدد عنايته ، ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال ، وكل فرقة من العباد لها توبة ، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر ، وتوبة الأصفياء من التنفيس (النفس) وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات ، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله ، وتوبة العام من الذنوب » .

أقول : السير إلى الله كما أشرنا إليه إنما هو في النفس ، ومنازل السلوك ليست خارجة عنها ، وبعبارة أوضح : السير في المنازل الخارجية غالباً يتحقق بأن المسافر يخرج من منزل ويدخل في آخر ، والمسافر من بلد إلى بلد آخر يترك الأول لا محالة حينما أراد السفر إلى الثاني ، وأما السير في منازل النفس ليس كذلك ، بل مسافر هذا السفر إذا دخل في منزل فلا يلازم دخوله في منزل آخر خروجه من المنزل الذي دخله ، بل لا بدّ من الوقوف في بعض المنازل دائماً ، فمثلاً : اليقظة التي ذكرنا أنها أول منزل من منازل السير إلى الله ، فالمسافر إلى الله إذا قدم هذا المنزل فليس له أن يتركه ، وإلا لا يمكنه الدخول في المنزل الثاني وهو التوبة ، وهكذا منزل التوبة فلا بدّ أن يكون له منزلاً دائماً ولا يجوز له الخروج منه ، فالسير في المنازل الأخرى لا ينافي البقاء في هذا المنزل أيضاً ، ولذلك قال الصادق (ع) : «ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال». غاية الأمر أن مراتب المنازل مختلفة ،

فيمكن أن يكون لمنزل واحد مراتب متعددة تختص كل فرقة ببعضها كما أشار (ع) إلى ذلك بقوله: « وكل فرقة من العباد لها توبة » .

فالأنبياء ربما يجدون في سرهم وباطنهم اضطراباً فلا تنعكس أنوار الملكوت في باطنهم تماماً ، كعدم انعكاس نور القمر والكواكب في الماء الصافي إذا لم يكن ساكناً ، بل يشاهد النور فيه غير تام عند اضطراب الماء وحركته ، فإذا وجد الأنبياء (ع) اضطراباً في سرهم فيتوبون إلى الله تعالى ليستقر الباطن وتنعكس الأنوار فيه تماماً .

وأما الأولياء (ع) فحيث إنهم طهروا قلوبهم عما سوى الله ، وليس في قلوبهم سوى ذكر الله ، ولا يخطر ببالهم ذكر غيره فربما أخذتهم الغفلة لاقتضاء البشرية ، ويرون تلوث خاطرهم بالتوجه إلى غير الله ، فيتوبون إلى الله ويغسلون لوث الغفلة بماء التوبة لتعود إليهم الطهارة القلبية هذا إذا كان لفظ الرواية وتوبة الأولياء من تلوث الخاطر ، وأما إذا كان لفظ الحديث تلوين الخطرات كما في بعض النسخ فيمكن أن يكون إشارة إلى ما اصطلح عليه العرفاء بأن الحالات الشريفة التي تعرض على القلب كالرضا والتوكل ومراتب التوحيد وغيرها إذا لم تكن ثابتة في القلب يسمونها بالتلوينات ، وأما إذا كانت ثابتة فيسمونها بالمقامات ، والأولياء تكون طلبتهم الحصول بالمقامات ، وأما التلوينات فلا يهتمون بها بل يتوبون إلى الله منها .

وأما الأصفياء ، فحيث إن من أعظم العوامل لتمحيص القلوب وتصفية الباطن والقرب من الله سبحانه ما يبتلى به عباد الله الصالحون من أنواع البلاء الذي قدر الله سبحانه لهم وحكمته ورحمته ، وكلما كان ابتلاء المؤمن أشدّ كان قربه من الله أكثر ، حتى ورد عنهم (ع) : « إن

أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » فإذا حصل لهم تنفيس من كرب يرون ذلك إبطاءً في سيرهم إلى الله وتأخيراً في الوصول إلى مقصدهم ، فيتوبون إلى الله من التنفيس الحاصل لهم ليتابعوا مسيرتهم ، وفي بعض النسخ : النَفَسْ مكان التنفيس ، فمعناه حنيئذٍ أنهم إذا تنفسوا نفساً بغير ذكر الله فيتوبون إلى الله من ذلك النفس .

وأما الخواص فإنهم يتوبون من الاشتغال بغير الله ويجدّون في أن تكون جميع أعمالهم وجملة اشتغالهم بالله ولله ، كما أشير إلى ذلك في رواية عنوان البصري ، وهي رواية شريفة لعلنا نذكرها في مورد مناسب لها حيث قال الصادق (ع) فيها في أوصاف العبد أن يكون جملة اشتغاله فيما أمر الله ونهاه .

فهذه المراتب الأربع لا تخصنا وانما هي لغيرنا ، والذي يخصنا هو الخامس مما ذكره (ع) وهو توبة العام، فإنها تكون من الذنوب صغيرها وكبيرها ، ولكن هذه أيضاً لا تتحقق بمجرد قول : « أستغفر الله ربي وأتوب إليه » بل لها شرائط يجمعها قول أمير المؤمنين (ع) أنه قال لقائل بحضرته أستغفر الله : «ثكلتك أمك ، أتدري ما الاستغفار ؟ إنّ الاستغفار درجة العلّيين ، وهو اسم واقع على ستة معان : أولها الندم على ما مضى ، والثاني العزم على ترك العود عليه أبداً ، والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها تؤدي حقها ، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد ، والسادس أن تذيق الجسم ألم

الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : « أستغفر الله »[1] .

وتفسير هذا الإجمال أن الإنسان إذا عرف عظم ضرر الذنوب ، وأن الذنوب هي الحجاب بين العبد وبين كل ما يحبه ويطلبه في حياته الأبدية من النيل إلى اللذات الروحية والجسمية وما هو أعظم من ذلك ، وأن جميع ما وعده الله سبحانه بلسان أنبيائه وقرآنه الكريم إنما هو للمتقين ، والجنة التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وهذه المعرفة تحصل بالعلم بتأثير المعاصي بالروح وتبعاتها في عالمي البرزخ والقيامة ومعقولاً ومنقولاً ، وقد ثبت عند أهل المعرفة وورد في كثير من أحاديث أهل بيت العصمة أيضاً أن للمعاصي في البرزخ والقيامة صوراً تناسبها ، ولها حياة وإرادة وتعذب صاحبها عن شعور وإرادة ، كما أن نار جهنم أيضاً تحرق أهلها عن شعور وإرادة ، فإن عالم الآخرة دار الحياة ليس من الموت فيها أثر حتى أن من تمنيات أهل النار الموت ولا ينالونه ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[2] ليس في جهنم موت ولا حياة يتمتع بها صاحبها ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾[3] ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾[4] وكل شيء في عالم الآخرة له حياة وشعور ، وقد نطق القرآن بذلك وقال : ﴿ . . وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . . ﴾[5] وقال في وصف جهنم : ﴿ إِذَا

---

(١) أورده الشريف الرضي في النهج ـ باب المختار من الحكم تحت رقم ٤١٧ .
(٢) سورة الزخرف : الآية ٧٧ .
(٣) سورة الأعلى : الآية ١٣ .
(٤) سورة إبراهيم : الآية ١٧ .
(٥) سورة العنكبوت : الآية ٦٤ .

رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾[2] فجهنم تنطق وتشعر ، ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . ﴾[3] فكل شيء ناطق في عالم الآخرة ، وهو عالم تفور وتغلي منه الحياة ، كما قاله بعض أهل المعرفة ، فتصور الأعمال بالصور المناسبة لها حسناً وقبحاً في الآخرة ، مما ثبت في الأحاديث الشريفة والآيات القرآنية تصريحاً وتلميحاً ، وممّا توافقه مشاهدات أهل السلوك والعرفان ، ومن الآيات قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ . . ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾[5] وغيرها من الآيات .

وأما الأحاديث فكثيرة جداً نذكر بعضها تيمناً : قال الكليني (قده) في الكافي بإسناده إلى أبي عبدالله (ع) قال : ما من قبر إلا وهو ينطق كل يوم . . . ـ إلى أن قال ـ ويخرج من ذلك رجل لم تر عيناه شيئاً أحسن منه فيقول : يا عبدالله ما رأيت شيئاً قط أحسن منك ، فيقول : أنا رأيك الحسن الذي كنت عليه وعملك الصالح الذي كنت تعمله . قال : ثم تؤخذ روحه فتوضع في الجنة . . . ـ إلى أن قال في الكافر ـ ثم إنه يخرج معه رجل أقبح من رأى قط ، قال : فيقول : يا عبد الله من أنت ؟ ما رأيت شيئاً أقبح منك ، قال فيقول : أنا عملك السيّىء الذي كنت تعمله

---

(١) سورة الفرقان : الآية ١٢ .
(٢) سورة قٓ : الآية ٣٠ .
(٣) سورة فصّلت : الآية ٢١ .
(٤) سورة آل عمران : الآية ٣٠ .
(٥) سورة الزلزلة : الآيتان ٧ ـ ٨ .

ورأيك الخبيث . قال : ثم تؤخذ روحه فتوضع حيث رأى مقعده من النار ، ثم لم تزل نفحة من النار تصيب جسده فيجد ألمها وحرها في جسده إلى يوم البعث ، ويسلّط الله على روحه تسعة وتسعين تنّيناً[1] تنهشه ليس فيها تنين ينفخ على وجه الأرض فتنبت شيئاً .

ومنها ما روى أصحابنا (رض) عن قيس بن عاصم قال : وفدت مع جماعة من بني تميم على النبي (ص) فدخلت عليه وعنده الصلصال بن الدلهمس فقلت : يا نبي الله عظنا موعظة ننتفع بها ، فإنا قوم نعيش في البرية ، فقال رسول الله (ص) : يا قيس ، إن مع العز ذلاً وإن مع الحياة موتاً وإن مع الدنيا آخرة ، وإن لكل شيء رقيباً وعلى كل شيء حسيباً ، وإن لكل أجل كتاباً، وإنه لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حيّ وتدفن معه وأنت ميت ، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسأمك ، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه ، ولا تسأل إلا عنه فلا تجعله إلا صالحاً ، فإنه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلاّ منه وهو فعلك . فقال : يا نبي الله ، أحب أن يكون هذا الكلام في أبيات من الشعر نفتخر به على من يلينا من العرب وندخره ، فأمر النبي (ص) من يأتيه بحسان ، قال الصلصال : فاستبان لي القول قبل مجيء حسان فقلت : يا رسول الله قد حضرني أبيات أحسبها توافق ما تريد فقلت :

تخيّر خليطاً من فعالك إنما
قرين الفتى في القبر ما كان يفعل
ولا بد بعد الموت من أن تعده
ليوم ينادى المرء فيه فيقبل

---

(١) سر عدد تسعة وتسعين يستفاد من تفسيرنا قوله تعالى : ﴿ **سبّح اسم ربّك الأعلى** ﴾ فراجع

فـإن كنـت مشغـولاً بـشيء فـلا تـكن
بغيـر الـذي يـرضىٰ بـه الله تشـغـل
فلن يصحب الإنسـان من بعـد مـوتـه
ومـن قـبـله إلا الـذي كـان يعمـل
ألا إنـمـا الإنـسـان ضـيـف لأهـله
يـقـيـم قـليـلاً عـنـدهـم ثـم يـرحـل

والروايات في ذلك متواترة ، ومشاهدات الأولياء وأصحاب القلوب أيضاً كثيرة يطول الكلام بذكرها .

وبالجملة : إذا عرف الإنسان هذه التأثيرات للمعاصي وما فوتته من السعادات والكرامات معرفة حقيقية وبيقين غالب على قلبه يحصل من هذه المعرفة تألّم بالقلب لا محالة ، وذلك لأن القلب إذا شعر بفوات محبوبه تألم ، فإن كان فواته بفعله الاختياري تأسف على الفعل المفوِّت وندم على صدور هذا الفعل منه ، وتكون شدة الندامة والتأسف على حسب أهمية محبوبه ، فكلما كان محبوبه الفائت أهم وأعظم كانت ندامته أكثر وأشد ، ثم إنه بمقدار ندامته تنبعث في القلب الإرادة على ترك العود إلى مثله وعدم تكراره منه ، مثلاً : إذا عامل تاجر معاملة تستغرق جميع ما يملكه من النقود ثم خسر في تلك المعاملة بحيث لم يبق من رأس ماله شيء وأصبح فقيراً لا مال له ، ففي مثل هذه الحالة ومع ما له من الندامة على ما دفع منه فلا يعقل أن يقدم على مثل تلك المعاملة مرة ثانية ـ لو فرضنا أنه صار صاحب مال ثانياً ـ وأن يتكرر منه هذا العمل . وهذا المثال الذي ذكرناه من باب تشبيه الكامل بالناقص ، وإلّا أين ضرر الذنوب من هذا ! وكيف تقاس الشقاوة الأخروية الأبدية

بالفقر في الدنيا الذي يتحمّل ويزول بسرعة ، حتى لو كان لازماً لصاحبه جميع عمره فإنه كما قال أمير المؤمنين (ع) : « ما أسرع الساعات في اليوم وأسرع الأيام في الشهر وأسرع الشهور في السنة وأسرع السنين في العمر » ثم إن هذا الرجل النادم الذي ذكرناه مضافاً إلى عزمه بأن لا تتكرر المعاملة المذكورة منه مرة ثانية يكون في صدد جبران ما توجّه إليه من الضرر لا محالة ، فإنه لو أمكنه فسخ المعاملة مثلاً واسترداد ما دفع من المال لفعل ذلك يقيناً ، وإن لم يتيسر له استرداد جميع ما دفع فبمقدار ما تيسر ، فإن جبران بعض الضرر أيضاً نفع ، فالعمدة في التصميم على ترك العود إلى ما صدر منه ، وجبران ما فات منه من النفع وما توجه إليه من الضرر هي الندامة ، وهي الأصل لما يتبعها من الأمور التي ذكرها أمير المؤمنين ، ولذلك ورد في كثير من الروايات أن التوبة هي الندم ، وذلك لأصالته واستتباعه جميع ما تحتاج إليه التوبة الصحيحة ، وبعبارة أخرى : لا يخلو الندم من علم أوجبه وأثمره ، وعن عزم يتبعه ويتلوه ، فيكون الندم محفوفاً بطرفيه : أعني ثمرته ومثمره .

فصل : موعظة بليغة من الإمام الخميني في الحث على التوبة ما ترجمته :

قال الإمام الخميني (دام ظله) : يلزم لسالك طريق النجاة والهداية التنبه إلى نكتة مهمة : وهي أن التوفيق لتوبة صحيحة كاملة مع حفظ شرائطها كما يُذكر، من الأمور الصعبة ، وقلما ينال الإنسان هذا المقصد ، بل الدخول في المعاصي ـ وخصوصاً الكبائر منها ـ يوجب الغفلة عن ذكر التوبة بالمرّة ؛ فلو نمت شجرة المعاصي في مزرعة القلب وقويت وأثمرت واستحكمت جذورها فلها تبعات مخوفة ، ومنها

أن الإنسان ينصرف عن التوبة تماماً ، ولو تذكرها أحياناً يسوّفها يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر ، ويحدّث نفسه بأنه سيتوب في آخر عمره وأيام كهولته توبة صحيحة ، غفلةً عن أن هذا مكر لله تعالى ، والله خير الماكرين ؛ فلا تظنن أن الإنسان تتيسر له التوبة بعدما استحكمت فيه جذور المعاصي ، أو أنه يستطيع القيام بشرائطها ، فربيع التوبة أيام الشباب التي تكون أوزار المعاصي فيها أقل ، والكدورة القلبية والظلمة الباطنية أنقص ، وشرائط التوبة أسهل ، فإن الحرص والطمع وحب المال والجاه وطول الأمل في حال الشيخوخة أكثر منها في عهد الشباب ، وهذا مجرب . والحديث الشريف النبوي شاهد على ذلك : « يشيب ابن آدم ويشب فيه خصلتان : الحرص وطول الأمل » ولو فرضنا أن الإنسان يتمكن في عهد الكبر والكهولة من القيام بهذا الأمر ، فمن أين يعلم أنه يصل إلى الهرم ، وأن الأجل الموعود يمهله في عهد شبابه ولا يختطفه حين اشتغاله بمخالفة الله سبحانه ؟ إنّ قلّة الهرمين في المجتمعات دليل على أن الموت أقرب إلى الشباب منه إلى الشيوخ ، ففي بلد يبلغ ساكنوه خمسين ألف نسمة ربما لا يرى فيه خمسون إنساناً ابن ثمانين سنة ، فاحذر يا عزيزي من مكائد الشيطان ، ولا تمكر ربك وخالقك وتزعم أنك تعصي الله سبحانه خمسين سنة أو أكثر وتشتغل بالشهوات ، ثم في ساعة الموت تجبر ما سلف بكلمة « أستغفر الله » فهذا خيال واهٍ ، ولو رأيت أو سمعت حديثاً أن الله تعالى تفضل على هذه الأمة بقبول توبتهم قبل أن يعاينوا آثار الموت فذلك صحيح ، ولكن هيهات أن تتأتى التوبة من الإنسان في ذلك الوقت ، إن التوبة ليست مجرد لفظ ، والقيام بأمر التوبة متعب يلزمه الرجوع والعزم على عدم

العود والرياضات العلميـة والعملية ، وقلمـا يتفق أن يفكر الإنسـان بدون هذه الرياضات في التوبة أو يوفق إليها ، أو إذا وفق يقوم بشرائط صحتها وقبولها أو يقوم بشرائط كمـالها ، فـربما لا يمهله الأجـل فيدركـه قبل أن يفكر في التوبة أو قبل أن يقوم بها عملياً ، وينتقل الإنسان من هذه النشأة وعليه أثقال الذنوب والمعـاصي وظلمتها الـلامتناهيـة ، فعند ذلـك يصيبه من البلاء والشقاء ما لا يعلمه إلا الله ، فإن جبران المعاصي في ذلك العالم ـ لو فرضنا أنه من أهل النجاة وكانت عاقبة أمره خيراً ـ ليس أمراً سهـلاً ، بل يلازم الضغطات وأنواع العذاب والاحتراقـات حتى يستأهـل للشفاعـة ويكون مورداً لرحمة أرحم الراحمين .

فيـا أيها العـزيز ، شمّـر ذيلك بأسـرع ما يكـون واحكم العزم وقـوّ الإرادة وتب إلى الله تعالى من المعاصي ما كنت شابـاً أو ما دمت حيـاً ، ولا تفـوّت الفرصـة التي أعطاكهـا الله ، ولا تعتن بالتسـويلات الشيـطانية وبمكائد النفس الأمارة ، ولا بدّ لك من التوجـه إلى نكتة مهمـة أخرى : وهي أن التـائب بعد التـوبة أيضـاً لا يبقى له الصفـاء الباطني الـروحـاني والنور الخالص الفطري ، كصفحة قرطاس اسودّت ثم أزيل عنهـا السواد فربما لا ترجع إلى حـالتها الأولى ، أو كـإناء مكسـور يُشْكل رجـوعه إلى حالته الأولى بعد الإصلاح ، فشتّان بين خليل عاملك طول عمره بالصفاء والخلوص وبين خليل خانك ثم اعتذر عن خيـانته ، هـذا مضافـاً إلى أنه قلّ من يستطيع القيام الصحيح بوظائف التوبة ، فيلزم الإنسان ألا يـدخل ـ حتى الإمكـان ـ في المخالفـة في المعصية والمخـالفة لله تعـالى ، فإن إصلاح النفس بعد فسـادها من الأمـور المشكلة ، ولو ابتلي ـ معـاذ الله ـ بمعصية فليكن بصدد الإصلاح بأسـرع وقت ممكن ، لأن الفساد القليـل

يقبل الإصلاح سريعاً وبكيفية حسنة .

فيا عزيزي ، لا تمرّ بهذا المقام غير مهتم به وبلا روية ، بل تدبر وتفكر في حالك وعاقبة أمرك ، وراجع كتاب الله وأحاديث خاتم الأنبياء وأئمة الهدى سلام الله عليهم أجمعين ، وكلمات علماء الأمة ، وحكّم العقل والضمير ، وافتح على وجهك هذا الباب الذي هو مفتاح الأبواب ، وانزل هذا المنزل الذي هو عمدة المنازل الإنسانية بالنسبة إلى حالنا ، واهتم به وواظبه واطلب من الله تبارك وتعالى توفيق الوصول إلى المطلوب ، واستعن بروحانية الرسول الأكرم وأئمة الهدى ، واستعن بولي الأمر وناموس الدهر إمام العصر (عج) ، فإنه (ع) يأخذ بيد الضعفاء والمتأخرين ويغيث المضطرين . انتهت ترجمة كلامه (دام ظله) .

فصل : اعلم يا عزيزي أن الناس في طريق الدين ينقسمون قسمين كانقسامهم في الطريق الظاهري ، فالسالك في الطريق الظاهري إما أعمى لا يستغني عن القائد في كل خطوة ، وإما بصير لا يهتدي الطريق ، لكنه لو هدي إلى أول الطريق فيهتدي بعد بنفسه ، وكذلك سالكو طريق الآخرة ، فمنهم قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في كل خطوة ، فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصاً من كتاب الله وسنة رسوله وأقوال أئمة الدين (ع) ، ومن سعيدٍ شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، يتنبه بأدنى إشارة فيشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان ، فأنت يا أخي إن كنت من أهل الإيمان والتصديق بما جاء به النبي (ص) والأئمة الطاهرون ـ كما أنك كذلك إن شاء الله ـ ففكّر فيما ذكرناه من الآيات والأخبار ومواعظ العلماء ، وفيما نقل من السلف الصالح ومن موعظة الإمام الخميني (دام ظله) ، وإن كنت من ذوي البصائر الذين

انفتحت بصيرتهم وشرح الله بنور الإيمان صدورهم فاعلم أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله ، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة فيحترق بنار الفراق التي هي أحر من نار جهنم ، كما قال أمير المؤمنين (ع) : « هبني صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك » واعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن الدنيا والإقبال بالكلية على الله طلباً للأنس به بدوام ذكره ، ولا مبعد عن لقاء الله إلا اتّباع الشهوات والإقبال على الدنيا وحبها ، وأن الذنوب هي إعراض عن الله تعالى وأسباب للبعد عن المحبوب ، فإذا علمت ذلك تتوجع وتتندم فترجع لا محالة ، ومعنى التوبة هو الرجوع والندم ، فلو حصلت هذه الندامة في دنياك وأحرقت قلبك المغشوش في نار الندامة وخلصته من الغشاشة فقد نجوت وربحت ، وإلا فلا بد من التخليص بنار الله الموقدة فالاحتراق بالنار ضروري لتخليص جوهرك وتأهيلك دخول الجنة ، فإنها طيبة لا يدخلها إلا الطيبون ، وإليك الآن اختيار أهون النارين والمبادرة إلى أخف العلاجين .

اللهم هب لنا بفضلك وعنايتك قلباً محترقاً بجذوة من نار الندامة ، وأحرقه بهذه النار الدنيوية دون نار القيامه لنصفو من كدر الذنوب ونخرج من هذه الدنيا ولا تبعة علينا من تبعات المعاصي ، إنك وليّ النعم وأنت على كل شيء قدير .

فصل : اعلم أن للتوبة شروطاً منها شروط الصحة ومنها شرائط القبول ومنها شرائط الكمال . وكأن ما ذكرناه من كلام أمير المؤمنين (ع) في التوبة وهو من جوامع الكلم قد أشار (ع) إلى جميع هذه الشرائط .

أما شرائط الصحة وهي ما لا تصح التوبة بدونه وهو داخل في

حقيقتها فهو ما ذكره (ع) .

أولاً : من الندم على ما مضى والعزم على ترك العود إليه أبداً ، كما بيّناهما ، وبدونهما لا تتحقق التوبة ، كما ورد عن الباقر (ع) : المقيم على الذنب وهو يستغفر منه كالمستهزىء .

وأما شرائط القبول فالأمران اللذان يذكران بعد الأمرين الأولين وهما : أداء حق المخلوقين إليهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، وأداء حق الخالق بأن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدي حقها .

وأما شرائط الكمال فهما الأمران الأخيران من قوله (ع) : الخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد ، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فلا تقبل توبة الإنسان بمجرد أن يقول أتوب إلى الله بل شرط قبولها أن يردّ إلى كل ذي حق حقه ، فإن كانت التوبة عن حق الله تعالى مثل ترك الصلاة والصيام والحج والزكاة وسائر الحقوق اللازمة للنفس والبدن أو لأحدهما فيجب على التائب الشروع فيها مع القدرة ، أو العزم عليها مع عدم القدرة ، والندم على الإتيان بها في الماضي والعزم على ترك العود .

وإن كانت التوبة عن حق الناس فيجب رده عليهم إن كانوا أحياء ، وإلى ورثتهم بعد موتهم إن كان ذلك المال بعينه وإلا فمثله ، وإن لم يكن لهم وارث تصدق به عنهم إن علم مقداره ، وإلا فبما يغلب على ظنه مساواته، والندم على فعله والعزم على ترك العود إلى مثله، ويستغفر

الله تعالى على تعدي أمره وأمر رسوله وتعدي أمر إمام زمانه ، فلكل منهم حق في ذلك يسقط بالاستغفار ، وإن كانت توبته عن هتك عرض أو نميمة أو بهتان عليهم بكذب فيجب انقياده إليهم وإقراره على نفسه بالكذب عليهم والبهتان عليهم لذوي الحقوق ليستبرىء لهم عن حقهم إن نزلوا ، أو يراضيهم بما يرضون به عنه ، وإن كان عن قتل نفس عمداً أو جراح أو شيء في أبدانهم فينقاد إليهم للخروج من حقوقهم على الوجه المأمور به من قصاص أو جراح أو دية عن نفس عمداً إن شاؤوا أو رضوا بالدية ، وإلا فالقتل بالقتل .

وجملة القول في المقام ما قاله أمير المؤمنين (ع) : أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله سبحانه أملس ليس عليك تبعة .

سمعت العارف الكامل الحاج جواد الأنصاري (قده) يقول : إن واحداً من رؤساء العرب وشيوخهم في الكوفة تاب على يد الولي العارف الواصل ملاّ حسين قلي الهمداني (قده) فقرر المولى له شرائط التوبة : منها الخروج عن حقوق الناس بكاملها وأنه لا بد لك منه ، وخرج الشيخ من عنده وقام بالاستحلال والاستبراء لكل من له عليه حق ، إلى أن تذكر أن خادماً له فيما مضى خالف قوله فغضب عليه وضرب يده بالسيف فقطعها ، فأرسل إلى ذلك الخادم وأحضره وأمر بإحضار مبلغ كثير من المال يكافىء دية يده أو أكثر ، فلما حضر الخادم عنده اعتذر الشيخ منه وطلب منه العفو عما صدر منه ، وقدم إليه الطبق المملوء من الدنانير وقال له : خذ من هذا الذهب ما شئت واعف عني ، فأبى الخادم وقال : ما أصنع بالذهب وماذا ينفعني المال بعدما قطعت يدي وأعجزتني عن العمل بها ؟ فكلما أصر عليه لم يرض إلى أن ضاق الأمر على الشيخ

فأمر مواليه بإحضار سيف ووضع السيف بين يدي الخادم وقال له : هذا السيف خذه واقطع يدي به وأبرىء ذمتي وخلّص نفسي فإنه لا طاقة لي لعذاب الله يوم ألقاه ، فتفكر الخادم هنيئة ثم قال : سيدي ، إن القصاص لا يرد إلي يدي المقطوعة غير أني أحرمك من يدك أيضاً فلا حاجة لي في القصاص ، وإنما الحاكم بيني وبينك الحكم العدل وهو الله سبحانه يوم القيامة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فقد فوّضت أمري إليه ، فعند ذلك تغيرت حالة الشيخ وانكسر قلبه وشرع في البكاء والنحيب ، وتوجه إلى الله تعالى بقلب منكسر وطلب منه الفرج ، فأدركته الرحمة الربوبية وإجابة من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وقلّب قلبَ الخادم مقلبُ القلوب فأخذته الرقة على حال مولاه وقال : قد عفوت عنك بلا دية ولا قصاص ، عفا الله عنك إن شاء الله .

وبالجملة : يجب على التائب أن يدقق في أمره لئلا يبقى مما فاته عمل يحتاج إلى التدارك ولم يدركه ، ثم يخرج من الدنيا وذمته مشغولة فيقع في العذاب والنكال ، ولا بد له أن يخرج من الدنيا وليس عليه شيء من حقوق الله وحقوق الناس .

ونختم هذا الفصل بذكر رواية شريفة عن الكافي الشريف : إن الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها . فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل لراحلته حين وجدها .

بدء الحلول بفناء الله وإناخة الرحل ببابه

قالوا غداً نأتي ديار الحمى ونـنـزل الـركب بـمغـنـاهـم

فكــل من كـــان مـحبـــاً لـهم يـصبــح مـســـروراً بلقـيــاهـــم
قـلت فلي ذنـب ومـــا حيـلتـي بـــأي وجـــه أتـــلقـاهـــم
قـالـوا أليس العفـو من شـأنهم لا سـيّما عمّـن تـرجّاهـــم

قـال العارف العـامل التقي الشيـخ محمـد البهـاري (قده) : ينبغي للتائب قبل الشروع في عمل التوبة وبعدما أجرى ما ذكـرناه من الخـروج عن حقوق الناس وحقوق الله أو العزم القـاطع على الخـروج إن لـم يتيسر لـه في الحال أن يتصـدق بشيء سراً وإن كـان قليلاً ، فـإن صدقـة السـر تطفىء غضب الرب ، ثم يغتسـل غسل التـوبة ويخـرج إلى صحراء إلى مكان خال ، فيجلس على التراب ثم يتذكـر معاصيـه فرداً فـرداً ويذكـرها بلســانه بـأن يقول : إلهي عصيتـك بالـذنب . . . في الزمـان . . . . وفي المكان . . . . وكان ذلك بحضورك ومحضرك المقدس وكنت قـادراً على أن تأخذني في تلك الحالة وتهلكني ، فحلمت ولم تؤاخذني ، فأنـا الآن نادم مستقيل فأقلني واعف عني ، وهكذا الذنب الكذائي . . . . بالتفسير المتقدم فيحصي ذنوبه إلى أن يتعب ولا بد أن يكـون بالحـزن والبكاء ، ثم يشرع في العمل الشريف . . .

أقول : مراده من العمل الشريف صلاة رواها السيد الجليل جمـال العارفين ابن طاووس في كتابه (الإقبال) وقد اعتنى بهـذه الصلاة علمـاء الأخلاق عنايـة جميلة قال (قده) : خرج رسـول الله (ص) يوم الأحـد في شهر ذي القعدة فقال : أيها الناس من كان منكم يريد التوبة ؟ قلنا : كلنا نـريد التـوبة يـا رسول الله ، فقـال (ص) : اغتسلوا وتوضّـوا وصلوا أربع ركعات ، وأقرأوا في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقـل هو الله أحـد ثلاث مرات والمعوذتين مـرة ، ثم استغفروا سبعين مـرة ، ثم اختموا بـلا حول

ولا قـوة إلا بالله العلي العـظيم ، ثم قولـوا : يا عـزيز يـا غفـار اغفـر لي ذنـوبي وذنـوب جميـع المؤمنين والمؤمنـات فـإنـه لا يغفـر الـذنـــوب إلا أنت .ثم قـــال (ص) : مـا من عبـــد من أمتي فعـل هـــذا إلا نـودي من السمـاء : يـا عبـد الله استـأنف العمـل فـإنـــك مقبـول التـــوبـة مغفـــور الذنوب . الحديث .

وفي آخره قلنا يا رسول الله :لو أن عبداً يقول هذا في غيرها (هـذا الشهـر) فقـال (ع) مثـل مـا وصفت ، وإنمـا علمني جبـرئيـل (ع) هـذه الكلمات أيام أُسري بي » والأولى الأفضل أن يقرأ بعد الصلاة دعاء التوبة للإمام زين العابدين (ع) من الصحيفـة الكاملة ، أولـه : يا من لا يصفـه نعت الواصفين ، والمناجاة الأولى من المناجيـات الخمسة عشـر أولها : إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي . . . . انتهى كلام الشيخ البهاري (قده) .

قال الشيخ الجليـل مولانـا البهائي في كشكـوله : بـرّىء قلبك من الذنوب ووجّه وجهك إلى علاّم الغيوب بعـزم صادق ورجـاء واثق ، وعد أنـــك عبـد آبق من مـــولىً كـــريم رحيم حليم يحب عـــودك إلى بـــابـــه واستجـارتك بـه من عذابـه ، وقد طلب منـك العود مـراراً عـديـدة وأنت معـرض عن الرجـوع إليه مـدة مديـدة ، مـع أنـه وعـدك إن رجعت إليـه وأقلعت عما أنت عليه العفو عن جميع ما صدر عنك ، والصفح عن كـل ما وقع منك ، فقم واغتسل احتيـاطاً وطهّـر ثوبـك وصلّ بعض الفـرائض أتبعهـا بشيء من النـوافـل ، ولتكن تلك الصـلاة على الأرض بخضـــوع وخشوع واستحياء وانكسار وبكاء وفاقة وافتقار في مكان لا يراك فيه أحـد ولا يسمـع صوتـك إلا الله سبحانـه ، فإذا سلمت فعقّب صـلاتـك وأنت حزين مستح وجـل راج ، ثم اقرأ الـدعاء المـأثور عن زين العـابدين (ع)

أوله : « اللهم يا من برحمته يستغيث المذنبون ، ويا من إلى ذكر إحسانه يفزع المضطرون » ثم ضع وجهك على الأرض واجعل التراب على رأسك ومرّغ وجهك الذي هو أعز أعضائك في التراب بدمع جار وقلب حزين وصوت عال وأنت تقول : عظم الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك . تكرر ذلك وتعدّ ما تذكره من ذنوبك لائماً نفسك موبّخاً لها نائحاً عليها نادماً على ما صدر منها ، وابق على ذلك ساعة طويلة ، ثم قم وارفع يديك إلى التوّاب الرحيم وقل : إلهي عبدك الآبق رجع إلى بابك ، عبدك العاصي رجع للصلح ، عبدك المذنب أتاك بالعذر وأنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ثم تدعو ودموعك تنهمل بالدعاء المأثور عن زين العابدين في طلب التوبة ، وهو الذي أوله : اللهم يا من لا يصفه نعت الناعتين إلى آخره ، واجهد في توجه قلبك إليه وإقبالك بكليّتك عليه ، مشعراً في نفسك سعة الجود والرحمة ، ثم اسجد سجدة تكثر فيها البكاء والعويل والانتحاب بصوت عال لا يسمعه إلا الله تعالى ، ثم ارفع رأسك واثقاً بالقبول فرحاً ببلوغ المأمول . انتهى .

فصل : اعلم يا عزيزي أن للنفس مكائد وخدائع لا ينجو منها إلا من عصمه الله تعالى ، ومن جملتها أن الشيطان يزين المعصية للإنسان ليوقعه فيها ، فلو أن أحداً بإلهام من رسوله الباطني يتوجه عند المعصية إلى عظمة مخالفة الله وشدة عذابه وما أوعده سبحانه على من عصاه فيغره بالمغفرة ، وأن الله تبارك وتعالى كريم يغفر الذنوب ، ولا يزال كذلك إلى أن يقارف الذنب ، فإذا قارفه فلا يتركه ليداوي جرحه ويعالج مرضه ، بل يداوم الخبيث في إغوائه وإضلاله ؛ فلو تنبه هذا المذنب بإلهام رسوله الباطني بأنه لا بدّ له من التوبة فيسوّفه التوبة مهما أمكن ،

فإذا عزم هذا المذنب المسكين على التوبة وآيس الخبيث من التسويف فيدخل من باب اليأس ويقول للإنسان الذي عزم على التوبة بأن جرحك لا يندمل ومرضك غير قابل للعلاج وتوبتك غير مقبولة بعد ما أتيت بالذنوب الجسيمة والمعاصي الكبيرة ، فلا يزال يوسوس لعله يصرفه عن التوبة ، مع أن الأمر ينبغي أن يكون بالعكس ، فالإنسان قبل ارتكاب الذنب عليه أن يتذكر عظمة الله وشديد عقابه ، ويلقّن نفسه أخبار الخوف وآيات الوعيد ، ويتذكر خوف الأنبياء والأولياء مع ما لهم من القرب إلى الله ، ويقول لنفسه : لعل هذا الذنب الذي تريد أن ترتكبه هو الذنب الذي لا يغفره الله ، وتكون مخاطباً بخطابه تعالى : لا أغفر لك أبداً لأن ما بين العبد والمولى حداً وحجاباً ، فإذا جاوز العبد ذلك وهتك الستر بينه وبين ربه فيسقط عن استحقاق العفو ، ويكون العفو منه خلاف ما اقتضته الحكمة الإلهية . وهذا الاحتمال - أي احتمال التجاوز عن الحد - موجود في كل معصية ، فبالتذكر لهذه الأمور وغيرها يصرف نفسه عن ارتكاب المعصية فلو غلبته الشهوة ولم تنفعه التذكرات وقارف الذنب فبعد الوقوع فيه عليه أن يتذكر أخبار الرجاء ليطرد الشيطان الملعون عن نفسه ، ولا يعتني بما يقوله الخبيث من أن أمرك أعظم من أن يغفره الله لك ، ففي هذا الوقت عليه أن يقول لنفسه : إن مولاي كريم ودود ، وهو الذي سمى نفسه من الجود وهّاباً ، وهو أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها ، فالله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل لراحلته حين وجدها ، وأن اليأس من رحمته أكبر الكبائر ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾[1] أما

---

(١) سورة الشورى : الآية ٢٥ .

سمعت أن الله تعالى قَبِلَ توبة الوحشي قاتل حمزة سيد الشهداء ؟ أما بلغك ما تلطّف ببهلول النباش ؟ وأرسل رسوله المعظم ليبشره بقبول توبته ؟ ولا بأس بذكر حديثه لإيقاظ الضمائر وتحريك العواطف ، وسوق القلوب إلى باب رحمته الواسعة .

روى الفيض المحدث الجليل في تفسيره الصافي ذيل الآية : **﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾**[١] .

عن المجالس عن عبد الرحمن بن غنم الدوسي قال :

دخل معاذ بن جبل على رسول الله باكياً فسلّم فردّه (ص) ثم قال : ما يبكيك يا معاذ ؟ فقال : يا رسول الله ، إنّ بالباب شاباً طريّ الجسد نقيّ اللون حسن الصورة ، يبكي على شبابه بكاء الثكلى على ولدها ، يريد الدخول عليك . فقال النبي (ص) : أدخل عليّ الشاب يا معاذ ، فأدخله عليه ، فسلم ، فرده ثم قال : ما يبكيك يا شاب ؟ قال : كيف لا أبكي وقد ركبت ذنوباً إن أخذني الله ببعضها أدخلني نار جهنم ؟ ولا أراني إلّا سيأخذني بها ولا يغفر لي أبداً . فقال رسول الله (ص) : هل أشركت بالله شيئاً ؟ قال : أعوذ بالله أن أشرك بربّي شيئاً ، قال : أقتلت النفس التي حرّم الله ؟ قال : لا . فقال النبي (ص) : يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل الجبال الرواسي .

---

(١) سورة آل عمران : الآيتان ١٣٥ ـ ١٣٦ .

قـال الشـاب : فـإنّهـا أعـظم من الجبـال الـرواسي . فقـال النبي (ص) : يغفـر الله لـك ذنـوبـك وإن كـانت مثـل الأرضين السبـع وبحـارها ورمـالها وأشجـارها ومـا فيها من الخلق . قـال الشاب : فـإنّها أعـظم من الأرضين السبع وبحـارهـا ورمـالهـا وأشجـارهـا ومـا فيهـا من الخلق . فقـال النبي (ص) : يغفر الله لك ذنوبك وإن كـانت ذنوبـك مثل السمـوات ونجومهـا ، ومثل العـرش والكرسيّ . قـال : فإنّهـا أعظم من ذلك . قال : فنـظر النبي (ص) إليه كهيئـة الغضبان ثم قـال : ويحك يـا شاب ! ذنوبك أعظم أم ربّك ؟! فخرّ الشاب لوجهه وهو يقـول : سبحان ربّي ، مـا من شيء أعظم من ربّي ، ربّي أعـظم من كل عـظيم . فقـال النبي (ص) : فهل يغفر الذنوب (الـذنب) العظيم إلا الـربّ العظيم ؟! قال الشاب : لا والله يا رسول الله .

ثم سكت الشـاب ، فقـال النبي (ص) : ويحـك يـا شـاب ! ألا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك ؟ قال : بلى أخبرك .

إني كنت أنبش القبور سبع سنين ، أخرج الأموات وأنزع الأكفان ، فماتت جارية من بعض بنات الأنصار ، فلما حملت إلى قبـرها ودفنت ، وانصـرف عنهـا أهلهـا وجنّ عليهم الليـل أتيت قبـرهـا فنبشتهـا ، ثم استخرجتها ونزعت ما كـان عليها من أكفـانها وتـركتها مجـرّدة على شفير قبرها ومضيت منصرفاً . فأتاني الشيطان فأقبل يزيّنها لي ويقول : أما ترى بطنها وبيـاضها ؟ أمـا ترى وركيهـا ؟ فلم يزل يقـول لي هذا حتى رجعت إليها ، ولم أملك نفسي حتى جامعتها وتركتهـا مكانهـا . فإذا أنـا بصوتٍ من ورائي يقول : « يا شـاب ، ويلٌ لـك من ديّان يـوم الدين يـوم يقفني وإيـاك كما تـركتني عريـانة في عسـاكـر المـوتى ، ونـزعتني من حفيـرتي

وسلبتني أكفاني ، وتركتني أقوم جُنبةً إلى حسابي !! فويلٌ لشبابك من النار » .

فما أظنّ أني أشمّ ريح الجنة أبداً يا رسول الله . فما ترى لي ؟ فقال النبي (ص) : تنحّ عني يا فاسق ! إني أخاف أن أحترق بنارك ، فما أقربك من النار . ثم لم يزل يقول ويشير إليه حتى أمغر من بين يديه فذهب فأتى المدينة فتزوّد منها ، ثم أتى بعض جبالها فتعبّد فيها ، ولبس مسحاً وغلّ يديه جميعاً إلى عنقه ونادى :

يا ربّ هذا عبدك بهلول بين يديك مغلول ، يا ربّ أنت الذي تعرفني وزلّ مني ما تعلم ، سيدي يا ربّ ، إني أصبحت من النادمين ، وأتيت نبيّك تائباً فطردني وزادني خوفاً ، فأسألك باسمك وجلالك وعظم سلطانك أن لا تخيّب رجائي سيدي ولا تبطل دعائي ، ولا تقنطني من رحمتك .

فلم يزل يقول ذلك أربعين يوماً وليلة ، تبكي له السباع والوحوش . فلمّا تمت له أربعون يوماً وليلة ورفع (رفع) يديه إلى السماء وقال :

اللهم ما فعلت في حاجتي ، إن كنت استجبت دعائي وغفرت خطيئتي فأوح إلى نبيّك ، وإن لم تستجب دعائي ولم تغفر لي خطيئتي ، وأردت عقوبتي فعجّل بنار تحرقني ، أو عقوبة في الدنيا تهلكني ، وخلّصني من فضيحة يوم القيامة .

فأنزل الله تعالى على نبيّه : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً** يعني الزنى **أَوْظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** يعني بارتكاب ذنب أعظم من الزنى ونبش القبور وأخذ

الأكفان **ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** يقول : خافوا الله فعجّلوا التوبة **وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ؟** يقول الله تعالى : أتاك عبدي يا محمد تائباً فطردته ، فأين يذهب ، وإلى من يقصد ، ومن يسأل أن يغفر له ذنبه غيري ؟ ثم قال تعالى : **وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** . يقول : لم يقيموا على الزنى ونبش القبور وأخذ الأكفان **أُولٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ ﴾**[١] .

فلما نزلت هذه الآية على رسول الله (ص) خرج وهو يتلوها ويتبسّم . قال لأصحابه : من يدلّني على هذا الشاب التائب ؟ فقال معاذ : يا رسول الله ، بلغنا أنه في موضع كذا وكذا . فمضى رسول الله بأصحابه حتى انتهوا إلى ذلك الجبل ، فصعدوا إليه يطلبون الشاب ، فإذا هم بالشاب قائم بين الصخرتين ، مغلولة يداه إلى عنقه ، قد اسودّ وجهه وتساقطت أشفار عينيه من البكاء ، وهو يقول :

سيدي ، قد أحسنت خلقي وأحسنت صورتي ، فليت شعري ماذا تريد بي ؟ أفي النار تحرقني . أو في جوارك تسكنني ؟ اللهم إنك قد أكثرت الإحسان إلي فأنعمت عليّ ، فليت شعري ماذا يكون آخر أمري ؟ إلى الجنة تزفّني أم إلى النار تسوقني ؟ اللهم إن خطيئتي أعظم من السموات والأرض ، ومن كرسيّك الواسع وعرشك العظيم ، فليت شعري تغفر خطيئتي أم تفضحني بها يوم القيامة ؟ .

فلم يزل يقول نحو هذا وهو يبكي ويحثو التراب على رأسه ، وقد

---

(١) سورة آل عمران : الآيتان ١٣٥ ـ ١٣٦ .

أحاطت به السباع وصفّت فوقه الطير وهم يبكون لبكائه . فدنا منه رسول الله فأطلق يديه من عنقه ونفض التراب عن رأسه وقال :

يا بهلول أبشر فإنك عتيق الله من النار . ثم قال لأصحابه : هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها بهلول . ثم تلا عليه ما أنزل الله عزّ وجلّ فيه ، وبشّره بالجنة .

وفي هذه الرواية نكات منبّهة ومعلّمة نشير إلى بعضها :

الأولى : إنَّ رسول الله (ص) كان يسلّي الشاب المذنب ويرجّيه بأن الله تعالى يغفر لك ذنوبك مهما بلغت من الكثرة والشدة حتى لو كانت مثل السموات والعرش . . . ولكنه (ص) لما سمع واحدة من تلك الذنوب تغير حاله واضطرب بحيث قال للشاب تنحّ يا فاسق ، إني أخاف أن أحترق بنارك ، ثم لم يزل يقول حتى أخرجه من مجلسه أليس الرسول (ص) هو الذي قال له قبل أوان : يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها إلى أن انتهى إلى مثل العرش والكرسي ؟ فهذا يبين لنا أنّا لا ندرك عظمة الذنوب ، والميزان الذي نزن به الذنوب على خلاف الحقيقة ، فإن ذنباً واحداً كان عند رسول الله أعظم من جميع ما ذكره الرسول (ص) ، ولذلك أبعده عن نفسه وأخرجه من مسجده .

والأمر كذلك عند أرباب المعرفة ، فإن قبح المخالفة وعظم الذنب يكون بنسبة عظمة من خولف أمره وكثرة مننه التي له على المخالف والمذنب وعظمتها ، وكون المخالفة في حضوره كما هو ظاهر ، فمخالفة المولى الذي لا نهاية لعظمته تكون من القبح بما لا نهاية له ، ثم إنه لو

كـان لمن خولف منّةٌ على المخـالف يشتـد القبـح خصـوصـاً إذا كـانت المخـالفـة في حضـوره ومحضـره ، فيبلغ قبـح المخـالفـة إلى درجـة لا تتصـوره عقـولنـا ، ولكن نحن الأشقيـاء المنسلخين من جميـع مـراتب المعرفة والغافلين عن المعارف الـدينية العقليـة لا نعرف معنى المعصيـة ولا ندرك قبحها ، ونتوهم أن التّجري على ولي النعمة عمراً طويلاً ينجبر بقول « أستغفر الله » أو بعمل خير ملوث بعديد من العيوب والنقائص .

الثانية : إنَّ رسول الله (ص) مع أنه مظهـر رحمة الله ، وإنمـا بعث رحمة للعالمين ، وليجذب العباد إلى بـاب الله نرى أنـه (ص) طرد هـذا الشاب وأخرجه من المسجد . لماذا ؟ .

سمعت الأستاذ العارف الكامل الحاج ميرزا جـواد الأنصاري (قده) أنه قال : السـرّ في ذلك أن الـرسول (ص) لمـا رأى أن الحالـة الروحيـة للشاب وخيمة بحيث لا بد له من التـوجه التـام إلى الحضرة الـربوبيـة ، والالتجاء والانقطاع إليه بكمال الانقـطاع ، بحيث لا يبقى له التـوجه إلى غيره ، وهذا الانقطاع والتوجه لا يتم إلا بيأسه عن جميع المخلوقين حتى عن رسـول الله (ص) ، فطرده عن جنـابه المقـدس بمقتضى كونـه (ص) رحمة للعالمين ، وكـان في ذلك عـلاج الشاب ممـا هو فيـه من المرض الشديد المهلك فهو كما قاله علي (ع) : « طبيب دوار بـطبه ، قـد أحكم مراهمه ،وأحمى مواسمه ، يضع ذلك حيث الحاجة إليـه من قلوب عمي وآذان صم » إلى آخر ما قاله (ع) .

الثالثة : ما بينّه (ص) في آخر الحديث لأصحابه وتعليمه إيّاهم كيفية التوبة للتائبين بقوله (ص) : هكذا تـداركوا الـذنوب كمـا تدارك بهلول ، فبين (ص) أن التوبة ليست مجرد قول « أستغفر الله » ولا تتم بذلك ، بل

لا بد للتائب من تدارك ما فات منه كما بيناه .

فصل : قال العارف الكامل الواصل الحاج ميرزا جواد الملكي ما حاصله : يلزم أن يكون الندم والتضرع والابتهال والبكاء في التوبة كماً وكيفاً مناسباً لعظمة الذنب وكثرته ، والأولى أن يدعو الله عند استغفاره بأسمائه وصفاته التي تناسب مقام التوبة ، بل تناسب ذنبه الذي منه التوبة إن كانت من الذنب المخصوص ، وأن يكون من الحال والهيئة واللباس والحركات على ما هو أجلب للرحمة والعطوفة من إظهار الملق والاستكانة والمخافة ، ويدخل من الأبواب التي تليق بحاله أن يدخل منها ، وإن لم يتمكن الدخول من باب من الأبواب فليدخل لا محالة من باب عدم اليأس ، وهو باب إبليس ، ويقول متضرعاً : يا من أجاب أبغض خلقه إبليس حين استنظره لا تحرمني من إجابتك .

وبالجملة : فليعلم التائب أن باب التوبة مفتوح ما لم يعاين الموت ، وإن بلغ الذنب ما بلغ ، وليعلم أيضاً أن اليأس والقنوط من رحمة الله أكبر المعاصي ، ولا نعهد ذنباً أكبر منه في المعاصي .

فصل : قال الإمام الخميني (دام ظله) : فليعلم التائب أن لكل واحد منها (من حقوق الناس) مطالب في النشأة الآخرة يطالبه بأشق الأحوال ، ولا سبيل له في ذلك العالم لأدائها غير أن يحمل أوزار ذوي الحقوق وتردّ إليهم أعماله الحسنة ، فيبقى مسكيناً شقياً لا مناص له ولا خلاص ، فيا عزيزي إياك أن يدخل الشيطان والنفس الأمارة ويوسوسا لك ويعظما المطلب عندك ، ويصرفاك عن التوبة وينهيا أمرك . فاعلم أن الإقدام في هذه الأمور خير من عدمه ولو كان بمقدار قليل ، فإن كانت الصلوات الفائتة والصوم والكفارات والحقوق الإلهية عليك كثيرة

متوافرة ، وحقوق الناس بلا حساب ، والمعاصي متراكمة ، والخطايا متزاحمة فلا تيأس من لطف الله ولا تقنط من رحمة الحق ، فإن الحق تعالى يسهل لك الطريق إذا أقدمت بالمقدار المقدور ، ويدلّك إلى سبيل النجاة ، واعلم أن اليأس من رحمة الحق أعظم معصية لا أظن أن يؤثر في النفس معصية أكثر وأشد منها، إن الإنسان الآيس من الرحمة تستولي على قلبه ظلمة لا ترتفع بشيء ، والإنسان الآيس من رحمة الله يكون مطلق العنان بحيث لا يمكن إصلاحه بشيء ، فإياك أن تغفل عن رحمة الله فتعظم في عينك المعاصي وتبعاتها ، فإن رحمة الله أعظم من كل شيء وشاملة لكل شيء ، ولا يشترط لعطائه اللياقة والقابلية فتذكر أوّلك ، إذ كنت في ظلمة العدم ولم تكن فيها قابلية واستعداد فأعطاك الحق جل وعلا نعمة الوجود وكمالاته من دون استحقاق واستعداد ، وبلا سؤال ولا سابقة دعاء ، وبسط بساط النعم غير المحصورة والرحمات غير المتناهية ، وسخر لك جميع الموجودات ، وليست حالتك الآن أسوأ مما كنت فيه من العدم الصرف واللاشيئية المحضة ، وقد وعدك الله الرحمة والمغفرة ، أنت تقدم خطوة واحدة إلى جنابه المقدس فإنه يساعدك ويأخذ بيدك بأي وسيلة ممكنة ، ولو عجزت عن تأدية حقوق الله سبحانه فهو يتجاوز عن حقوق نفسه ، ويجبر سبحانه حقوق الناس أيضاً إن لم تتمكن من تأديتها ، كما يستفاد من رواية الشاب النباش في عهد الرسول (ص) .

يا عزيزي إن طريق الحق سهل ويسير ولكن يحتاج إلى قليل من التوجه ، ولا بد من الإقدام وتحصيل حالة التوبة ، ويحتاج إلى احتراق القلب ، ويستلزم التضرع والأنين والشكوى والاستغاثة والمناجاة إلى باب

قاضي الحاجات ، وأما تسويف الأمر وتأخيره ، وتكثير أثقال الذنوب يوماً بعد يوم فيشكل الأمر ، بخلاف الإقدام والعزم على العلاج لإصلاح الأمر والنفس ، فإنه يقرّب الطريق ويسهّل الأمر ، وإن شئت فجرب وأقدم على ذلك أياماً ، فإن حصلت النتيجة فيثبت لك صحة المطلب وإلا فطريقة الفساد لك مفتوحة ويدك العاصية غير مغلولة . انتهى كلامه (دام ظله) .

فصل : قال بعض العارفين : لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على فوت ما مضى منه في غير طاعة الله لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات .

فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله ؟ أقول : وهذا كلام من نوّر الله بصيرته ، وأوتي من العلم حقيقته .

وذلك لأن العاقل إذا ضاعت منه جوهرة نفيسة يملكها يكون ضياعها حسرة عليه لا محالة ، وربما يبكي على فقدانها ، فهذه الحسرة والبكاء إذا ضاعت منه بغير خسارة ، وأما لو ضاعت منه وصار ضياعها سبباً لهلاكه تكون حسرته أشد وبكاؤه أكثر ، وكل ساعة من العمر بل كل نَفَس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها ، لأنها صالحة لأن توصلك إلى السعادة الأبدية وتنقذك من الشقاء الدائم ، وأي جوهرة أنفس من هذه ؟ فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً ، وإن صرفتها في معصية فقد هلكت هلاكاً فاحشاً ، فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك .

ولعمري إن مصيبتك بجهلك أعظم من مصيبتك بالهلاك ، لأن نوم الغفلة يحول بين المصاب ومعرفة مصيبته والناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ! . .

فعنـد ذلك ينكشف لكـل مفلس إفلاسـه ولكل مصـاب مصيبتـه ، ولكن قد فات التدارك ووقع اليأس منه وقضي الأمـر ، ولم يبق لصاحبهـا إلا الحسـرة تتبعها الشقـاوة الأبديـة : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَـوْمَ الْحَسْـرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ . . . ﴾[1] .

فـالبدار البـدار إلى التوبـة وتدارك ما فات ؛ ومن تـرك المبـادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عـظيمين : أحدهمـا أن تتراكم الـظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً ولا يرجـع صاحبـه إلى خير أبـداً ، والثـاني أن يعـاجله المـرض أو المــوت ولا يجـد فــراغـاً ومهلة للاشتغال بالمحو ، ولـذلك ورد في الخبـر أن أكثر صيـاح أهل النـار من التسويف .

قال بعض العارفين : إن ملك الموت إذا ظهر للعبـد أعلمه أنـه قد بقي من عمرك ساعة ، وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الحزن والأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منهـا على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ، يستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليها سبيـلاً ، وهو أول مـا يظهـر من معاني قـوله تعـالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَـا يَشْتَهُونَ . . ﴾[2] وإليـه الإشارة بقـوله تعـالى : ﴿ . . مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَـدَكُمُ الْمَوتُ فَيَقُـولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّـرْتَنِي إِلىٰ أَجَلٍ قَـرِيبٍ فَـأَصَّــدَّقَ وَأَكُـنْ مِنَ الـصَّــالِحِينَ وَلَـنْ يُؤَخِّـرَ الـلَّهُ نَفْـســاً إِذَا جَــاءَ أَجَلُهَا . . ﴾[3] .

---

(١) سورة مريم : الآية ٣٩ .

(٢) سورة سبأ : الآية ٥٤ .

(٣) سورة المنافقون . الآيتان ١٠ ـ ١١ .

فصل : اعلم يا عزيزي أن لكل منزل من منازل السالكين مراتب على حسب حالات قلوبهم ، فمنزل التوبة أيضاً له مراتب على حسب مراتب التائبين ، فمنهم من يتدارك حقوق الله وحقوق الناس كلها ويردّ إلى كل ذي حق حقه ، وهذا التائب قد أتى بأركان التوبة وهي الندامة والعزم على ترك العود ، وبشرائط القبول وهي الخروج من الحقوق الخلقية والإلهية ، فتوبته مقبولة إن شاء الله ، ولكن من السالكين من لا يقتنع بهذا المقدار بل يريد أن يأتي بتوبة كاملة وبشروط كمالها ، وهي أن يتدارك الحظوظ كما تدارك التروك، وتدارك الحظوظ بأن يمحو الآثار الجسمية والروحية التي حصلت له في أيام شبابه نتيجة الحظوظ النفسانية في تلك الأيام ، حتى تعود النفس إلى صفائها الأولي وصقالتها الذاتية وحالتها الفطرية ، وتحصل لها التسوية الكاملة والتزكية التامة ، وذلك لما ذكرنا من أن لكل معصية أثراً في القلب والروح، وأثراً في النشاط والقوة في الجسم أيضاً .

فعلى التائب أن يقوم بمحو تلك الآثار بالكلية ، ويشتغل بالرياضات الروحية والجسمية الشرعية لترتفع تبعات المعاصي عنه ، كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين (ع) بقوله : الخامس : أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد .

فعلى السالك أن يشتغل بالرياضات الشرعية من الإمساك عن الأغذية المقوية والمفرحة ، وبالصوم الواجب إن كان على ذمته ، وإلا فبالصوم المستحب ، ليذوب اللحم النابت على المعصية ، فإنه لحم خبيث جهنمي لا يليق بالجنة، وقد قال النبي (ص) : الجنة محرمة على

جسد غذّي بالحرام ، وقال (ص) : لا يشم ريح الجنة جسد نبت على الحرام[1] .

فلا بد أن يذوب ذلك اللحم وينشأ لحم جديد طيب يليق بالجنة ، فإنها طيبة ولا يدخلها إلا الطيب ، فيتدارك الحظوظ الطبيعية بالرياضات الروحية والعبادات والمناسك ، لأن صورة اللذات الطبيعية تبقى موجودة في الروح وما دامت متحققة في النفس فالنفس تميل إليها والقلب يعشقها ، وحينئذٍ يخاف عليها أن تطغى النفس ويغلبِ هواها العقل ويعود للمعصية ثانياً .

فعلى سالك طريق الآخرة والتائب من المعاصي أن يذيق الروح ألم الرياضة والعبادة . وذكر علماء الأخلاق أن الأنسب أن يتدارك كل لذة بألم من سنخها . فمثلاً لو سهر ليلة في معصية الله فيكون تداركها في السهر أيضاً في طاعة الله ، ولو استلذ بأكل طعام حرام فيتدارك بالصوم ، ولو كانت معصيته بالغيبة والتهمة والكذب وأمثالها من المعاصي التي يرتكبها الإنسان باللسان فليكن تداركها بالتزام الصمت عن غير ذكر الله سبحانه ، وهكذا حتى تطهر النفس من آثار الذنوب وتبعاتها بالكلية ، وهي حصول التعلقات ورسوخ حب الدنيا في القلب ، وتنزجر النفس عن المعاصي انزجاراً تاماً ، ويؤمن عليها من العود إلى المعصية ، وتتحقق حقيقة الندم الذي هو التوبة ، ولعله إلى ذلك أشير بما في بعض الروايات العامية : أن الله سبحانه قال لبعض أنبيائه وقد سأله النبي قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير أثر قبول

(١) إرشاد القلوب : الصفحة ٦٩ .

توبته فقال : وعزتي وجلالي ، لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه .

قال بعض علماء الآخرة : فإن قلت : الذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول من تناول عسلاً كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ، ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه ، فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه من ذلك العسل أم لا ؟ فإن قلت لا فهو جهد للمشاهدة ، بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضاً لشبهة به ، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون ، وذلك لعلمه بأن كل ذنب ذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ، ولا تصحّ التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان . ولما عزّ مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون ، فلا يُرى إلا معرضاً عن الله متهاوناً بالذنوب مصرّاً عليها ، فهذا شرط تمام الندم . وينبغي أن يدوم إلى الموت ، وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد إذا علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من العسل بل ممّا فيه ، ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنى بل من مخالفة أمر الله ، وذلك جار في كل ذنب . انتهى .

وبالجملة : حقيقة التوبة كما ذكرناه هي الندم ، فإذا تحقق يستتبع كل ما ذكرناه من العزم على ترك العود وأداء الحقوق وشروط الكمال التي ذكرناها .

ذكر العارف الواصل الحاج ميرزا جواد الملكي (قده) في رسالته

(لقاء الله) : إنَّ في أيام دراستي وإقامتي في النجف الأشرف لقن العالم العامل الجليل الحكيم المعظم الذي لم يكن له بديل (آخوند ملا حسين قلي الهمداني) قدس الله روحه أحد طلاب طريق الآخرة عمل التوبة فغاب عنا أياماً قليلة جداً لأداء هذه الوظيفة المهمة ، فلما رجع إلينا رأينا جسمه الذي كان سميناً ونشيطاً قد ذاب وكأنه إلى حد النصف ، ولونه الذي كان لماعاً صار أصفر ، بحيث لم يكن يتوقع عادة التغيير في الصورة إلى هذا الحد في تلك الأيام القليلة ، ثم تبين لنا أنه قام بالعمل على ما ينبغي .

وسمعت أن شخصاً آخر اشتغل بالبكاء والنحيب في مجلس توبته ست ساعات متواليات ، فيا عزيزي ، لا بد من الجد في العمل والاستمرار في طلب العفو من الله تعالى ، لعل الله سبحانه يمن عليك بقبول توبتك ، فإذا منّ عليك بذلك فتدركك العناية الكبرى الإلهية ، وهي حبه جل جلاله إياك ، فتكون مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ . . **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ** . . ﴾[1] وحبّه سبحانه عبارة عن كشف الحجب بينه وبين العبد ، وهذا هو المقصود الأصلي وغاية أمل الآملين . فيا لها من درجة ما أعظمها وأعلاها ، ومن مقام ما أسناه وأبقاه ، ومن حالة ما ألذها وأبهجها .

قال العارف بالله الشيخ ابن الفارض :

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سرٌّ أرقّ من النسيم إذا سرى
وأباح طرفي نظرة أمّلتها ... فغدوت معروفاً وكنت منكّراً

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٢ .

فــدهشت بين جمـالــه وجـلالــه وغـدا لسـان الحــال عني مخبـرا
فـأدر لحاظـك في محاسن وجهـه تلـق جميـع الحسن فيـه مصــوّرا

فصل : اعلم يا عزيزي أن علمـاء الآخرة وأسـاتذة الأخـلاق قرروا للسلوك إلى الله شـرائط ، وللسالـك إليه وظـائف لتكون لـه إراءة طـريق وإضـاءة سبيل ، إذا لم يتـوسّل في سلوكـه إلى ذيل ولي مـرشـد ، وأهم تلك الوظائف بعد ما بيّنـاه من التوبـة الصحيحة الكـاملة هي الأمور التي تعين السالك على الاستقامة واستدامة التوبة ، فإنه بـدون المداومـة على التـوبة والاستمـرار على ترك الـذنوب لا أثـر للتوبـة البتة . وسميت تلك الأمـور بالأركـان الأربعة للسلوك لمكـانتها من ذلـك ، وهي : المشارطـة والمراقبة والمحاسبة والمعاتبة ، أو المعاقبة ، ونـوضحها بـالجملة ، لعل الله ينفعني وإخواني بذلك فنقول :

أمـا المشارطـة فهي : كما أن تـاجـراً إذا أراد أن يستعين بشـريـك ويسلم إليه المال ليتّجر به ، يشترط عليه شروطاً ويـأخذ منـه مواثيق على رعايته الشروط ، ثم يجعل المـال تحت يده ليتّجـر به ، كـذلك السـالك إلى الله في سلوكـه مشتغل بـالتجارة ، وربحهـا السعادة والنعم الـدائمـة واللذات غير المتناهيـة ، كما أن خسـارتها الشقـاوة والعذاب والـظلمات الأبدية ، وشريكه في هذه التجارة نفسه وأعضاؤه ، ورأس مالها العمـر ، فلا يجوّز العقـل أن يجعل رأس مـال تجارتـه تحت يد الشـريك من دون قيد وشرط ، فعلى ذلك لا بدّ له من المشارطة مع شريكه ، وطـريقها أن يجعل لنفسه ساعة فارغة أول الصبـح بعد الصـلاة وأداء وظائفـه العباديـة يفكر فيها ويخلو فيها بنفسه ، ويقول لها إنه ليس لي بضاعة غير العمـر ، وقـد أفنيت شطراً منهـا وبقي شطر آخـر ، فلو أفنيت الشطر البـاقي أيضـاً

أصبحت مفلساً وخاسراً تماماً ، ولا يبقى لي أمل في ربح ، فهذا اليوم قد منّ الله تعالى عليّ وأخّر أجلي وأنعم عليّ بهذه النعمة ، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً ، وكنت أقول : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ﴾[1] . فالآن أنتِ يا نفس في مهلة فارحميني في هذا اليوم ولا تعملي عملاً يخالف أمر الله تبارك وتعالى ، واعلمي أن الحسرة التي سمي بها يوم القيامة لعظمها أمامك ؟! وهي حسرة لا يمكن إدراكها ما كنت في هذا العالم ، وقد قال أمير المؤمنين (ع) : « إن امرأً ضيع من عمره ساعة في غير ما خلق له لجدير أن يطول عليها حسرته يوم القيامة » .

وبالجملة : يشترط عليها ألا تخالف أمر الله في هذا اليوم ، وهكذا يشترط على الأعضاء والجوارح ، وإذا كان عضو مخصوص منه مبتلى بمعصية كاللسان بالكذب أو الغيبة مثلاً ، أو العين بالنظر إلى الأجنبيات أو غير ذلك فيخصه بالاشتراط ، ويصمم على أن لا يعصي الله في اليوم الذي هو فيه ، ومن المعلوم أن عدم العصيان وترك المخالفة يوماً واحداً أمر سهل للإنسان جداً ، وكل أحد يستطيع ذلك بسهولة ، وإن كنت في شك من ذلك فجرّبه تر أنه سهل ليس فيه صعوبة .

فصل : فيه نكتتان :

الأولى : يلزم على السالك أن لا يغفل عن تأثير هذا العمل وهذه التلقينات على النفس ، فإن النفس تتأثر من التلقين بصورة عجيبة ، وقد

---

(١) سورة المؤمنون : الآيتان ٩٩ ـ ١٠٠ .

أيدت ذلك العلوم المعاصرة ، وربما يعالج الأطباء الروحيون المرضى الذين أصيبوا في أجسامهم بأمراض خطيرة فيعالجونها بالتلقينات دون أن يتوسّلوا في علاجهم إلى الأدوية الطبية ، وربما يوهم ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾[2] بناء على ما فسره بعضٌ كالميبدي وغيره أنه تجيء في العربية (إن) مثبتة لا لشرط فيكون بدل (قد) .

الثانية : إن استمرارية المشارطة لازمة ما لم ير السالك أن النفس قد انقادت للمشارطة ولا تتخطى عن وظائفها وعما اشترط عليها ، وأما إذا تعودت النفس الوفاء بالشروط وطاوعته في الوفاء استغنى عن المشارطة ، إلا أن يحدث في حياته حدثاً احتمل أن يكون ذلك الحدث سبباً وداعياً لتخلّص النفس والأعضاء عن تعهدها ، فحينئذٍ لا بدّ من تجديد العهد والمشارطة وموعظتها وإرشادها كما سلف .

فصل في المراقبة :

كما أنه بعد المشارطة لا بد لك من الورود في المراقبة ، وهي العمدة للأركان الأربعة ، والمراد منها في المقام أن تتذكر المشارطة التي وقعت منك فتواظب على العمل بها في تمام ساعات النهار ، وتلزم نفسك العمل بها ، وإذا خطر ببالك نقض المعاهدة ، ووقع في قلبك لا سمح الله أن ترتكب عملاً مخالفاً لأمر الله وتقع في ذنب ، فاعلم أن ذلك من الشيطان وقد همّ الخبيث أن يصرفك عما عزمت عليه ،

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥ .

(٢) سورة الأعلى : الآية ٩ .

ويمنعك من العمل بالشرط الذي اشترطته ، فالعنه من صميم القلب واستعذ بالله من شرّه ، وأخرج من قلبك ذلك الخيال الباطل ، وقل للشيطان ولنفسك التي هي شريكه في العمل : إني اشترطت وعاهدت الله سبحانه ألا أخالف أمره هذا اليوم قط ، إنّ وليّ نعمتي قد أنعم عليّ سنين طويلة ، وأعطاني الصحة والسلامة والأمن والنعم التي لا أقدر على إحصاء كليّاتها ، فكيف بجزئياتها ، وتفضل عليّ بتفضلات لا أستطيع أن أقوم باستيفاء حق واحد منها بالشكر ، حتى لو أكون في خدمته إلى الأبد ؛ وقد عزمت ألا أعصيه في يومي هذا فلا تجعلاني ألأم عبيده بمخالفة عهده في هذا اليوم . فالمأمول من فضله سبحانه أن يطرد عنك الشيطان ويرفع عنك وسوسة النفس بالمعصية ، وهذه المراقبة ليست أمراً إيجابياً يمنعك عن اشتغالك ، بل هي أمر سلبي ، ولا ينافي أي شغل لك من الكسب والدراسة والسفر وغيرها . ودم على هذه الحالة وهذا التذكر إلى الليل وهو وقت العمل الثالث أي المحاسبة .

فصل بل وصل :

اعلم أن للمراقبة مراتب ودرجاتٍ لا بأس بالإشارة إلى بعضها ، لكونه مُعيناً على المراقبة التي نحن بصددها :

الأولى : وهي أدنى المراتب ، وأقل درجة لها أن يراقب الله سبحانه في جميع حركاته وسكناته ، فإن العبد لا يخلو في جميع أحواله من حركة وسكون ، فيتفقد أعماله ليأتي بما أمره الله وكما أمره الله ، فإذا همّ بعمل فلينظر أهو لله تعالى ومما أمره الله ، أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان ومخالفة أمر الله سبحانه ، فإن كان لله أمضاه ، وإن كان لغير الله وبأمر الشيطان كف نفسه عنه ، ثم لام نفسه على رغبتها فيه

وهمها به وميلها إليه ، ويتذكر ما اشترط عليها في أول اليوم ، ففي الخبر أنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته ـ وان صغرت ـ ثلاثة دواوين الأول :لِمَ ؟ والثاني : كيف ؟ والثالث : لمن ؟

فمعنى « لِمَ » : أي لم فعلته ؟ أكان عليك أن تفعله بأمر من الله أو ملت إليه بشهوتك وهواك ؟ فإن سلم عنه بأن كان عليه أن يعمل وكان مأموراً به من الله تعالى سئل عن الثاني بأنه كيف فعل ؟ فإن لكل عمل أحكاماً وشروطاً من الله ، فيسأل ؟ هل كان العمل واجداً للأجزاء والشرائط ؟ وبعبارة أخرى : هل أتيت به بالصحة الشرعية أم لا ؟ فإن جاء به تاماً للأجزاء وبشرائط الصحة نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بشرائط القبول : من الإخلاص لله سبحانه فيه ، وخلو العمل من الرياء والعجب ، وغير ذلك من موانع القبول ! . فإذا عرف العبد ذلك فلا بد له أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة ، فإن انكشف له أنه لله فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتّقيه ويزجر النفس عن الإقدام فيه ، ويكون مستعيناً بالله من الشيطان وغلبته ، ومن نفسه الأمّارة بالسوء ، وهذه المرتبة من المراقبة لعامة الناس وأوساطهم .

الثانية : مراقبة « أصحاب اليمين » على ما عبّر به بعض علماء الآخرة ، وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظواهرهم وبواطنهم وعلى قلوبهم ، وغلب عليهم الحياء من الله تعالى ، فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت ، ويمتنعون عن كل ما يخالف أدب الحضرة ، فلا يحتاجون إلى وعيد العذاب في القيامة .

ومثال ذلك : إن الانسان ربما يتعاطى أعمالاً في الخلوات ، وإذا علم أن صبياً أو غيره مطلع عليه فيستحيي منه ويراعي أحواله حياء من

المشاهد . وفي بعض الأحاديث أن البرهان الذي منع يوسف أن يهمّ بـ « زليخا » وصرف الله به عنه السوء والفحشاء هو هذه المراقبة . فعن السجّاد (ع) كما في الصافي : قامت امرأة العزيز إلى الصنم فألقت عليه ثوباً ، فقال لها يوسف : أتستحيين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه ولا يأكل ولا يشرب ولا أستحيي أنا ممن خلق الإنسان وعلّمه ؟ فقال قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ . . ﴾[1] .

والعياشي مثله عن الباقر بعد ما كذّب قول الناس أنه رأى يعقوب عاضّاً على إصبعه .

الثالثة : مراقبة المقربين ، وهي مراقبة التعظيم والإجلال ، ومراقبة آداب الحضور فإن العبد إذا وصل في القرب إلى درجة يرى الله سبحانه حاضراً في كل مكان وشاهداً على كل حال ، ويتحقق له قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2] فيصير قلبه مستغرقاً في ملاحظة جلال الله ومنكسراً تحت هيبته وعظمته ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى غيره ، وتتعطل الجوارح عن الالتفات إلى المباحات فضلاً عن المحظورات ، فإذا تحركت بالطاعات والعبادات فلا تحتاج إلى تدبر وتثبّت في حفظها ، بل تصير الجوارح جارية على الاستقامة من غير تكلف . ومثال ذلك من جهة : إنك في خلواتك ربما تشتغل بأعمال فيحضرك صبيّ فتستحيي منه لا عن إجلال وتعظيم له بل عن حياء منه ، فإنّ مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولكنها تهيج الحياء فيك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو عظيم من الأعاظم فيستغرقك التعظيم

---

(١) سورة يوسف : الآية ٢٤ .
(٢) سورة فصّلت : الآية ٥٣ .

والجلال ، وتترك ما أنت عليه شغلاً به وبجلاله ، لا حياء منه ، وهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله ، ولعله أشير إلى هاتين المرتبتين من المراقبة في قوله (ع) لإسحق بن عمار : يا إسحق ، خف الله كأنّك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

فأشار (ع) إلى المرتبة الثالثة بقوله : « كأنك تراه » وأنه ينبغي للإنسان أن يصل إلى هذه الدرجة من الإيمان والشهود ، ويراعي في جميع حالاته آداب حضوره عند الله تعالى « كأنه يراه » ، وإن لم يصل إلى هذه الدرجة فلا أقل من الدرجة التالية لها ، وهي أن يعلم « بأن الله يراه » وأنه في محضره تعالى كالعالَم بجميع أجزائه ، وهذه هي المرتبة الثانية التي ذكرناها .

يقول العارف الكامل الشيخ محمد علي شاه آبادي أستاذ الإمام الخميني (دام ظله) في العلوم الإلهية : إن الاختلاف والخلاف بين الخضر وموسى (ع) كما ورد في القرآن الشريف كان من هذه الجهة ، وإن موسى (ع) كان يراعي أدب المحضر ، والخضر (ع) كان يراعي أدب الحضور فتدبر .

ونختم هذا الفصل بكلام قيّم للجنيد (ره) ينبغي أن يتأمل فيه كثير التأمل قال : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربّه .

فصل في المحاسبة : اعلم يا عزيزي أن من الأمور المساعدة للسلوك محاسبة النفس كمحاسبة الشريك شريكه ، وأن تحاسب نفسك في الشرط الذي شرطته مع الله سبحانه ، فهل عملت به أم خانتك في الشركة ، ولم تعمل بالشرط في هذه المعاملة الجزئية مع وليّ نعمها ،

فإن رأيت منها الوفاء بذلك فاشكر الله على هذا التوفيق ، واعلم أنـك قد تقدمت خطوة وصرت مورداً للعناية الإلهيـة ، وأن الله سبحانـه سيهديـك بفضله في تقدم أمور دنياك وآخرتك ، واعلم بأن أمرك غداً سيكون أسهل من اليوم ، فواظب على هذا العمل .

وقـد ورد في الـروايـات حثّ كثيـر على المحـاسبـة . قـال (ع) : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبـوا ، وزنوهـا قبل أن تـوزنوا ، وتجهـزوا للعرض الأكبر » .

وفي روايـة : « فحاسبـوا أنفسكم قبل أن تحـاسبـوا ، فـإنّ أمكنـة القيامة خمسون موقفاً ، كل موقف ألف سنة . ثم تلا هذه الآيـة : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[1] .

وقال (ع) : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، ومهّدوا لها قبل أن تعذّبوا ، وتزوّدوا للرحيل قبل أن تزعجوا ، فإنها موقف عدل واقتضاء حق وسؤال عن جواب ، وقد أبلغ في الإعذار من تقدم بالإنذار » .

وقـال (ص) لأبي ذر : « يا أبـا ذر حاسب نفسـك قبل أن تحـاسب فهو أهون لحسـابك غـداً ، وزن نفسك قبـل أن توزن ، وتجهـز للعرض الأكبر يوم تعرض لا تخفى على الله خافية » .

وقـال (ع) : « ما أحق الإنسـان أن تكون لـه ساعـة لا يشغله عنهـا شـاغل يحـاسب فيها نفسـه ، فينـظر فيمـا اكتسب لهـا وعليهـا في ليلهـا ونهارها » .

---

(١) سورة المعارج : الآية ٤ .

وقال الصادق (ع) لعبد الله بن جندب كما في (تحف العقول) فيما أوصاه به (ع) : « يا بن جندب ، حق على كل مسلم يعرفنا أن يعرض عمله في كل يوم وليلة على نفسه ، فيكون محاسب نفسه ، فإن رأى حسنة استزاد منها ، وإن رأى سيئة استغفر منها لئلا يخزى يوم القيامة » .

وقال (ع) : « ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كل يوم ، فإن عمل خيراً استزاد الله منه وحمد الله عليه ، وإن عمل شراً استغفر الله وتاب إليه » .

روى المجلسي (ره) في البحار المجلد الثامن يرفعه إلى عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله (ص) : « لما أسري بي إلى السماء قال لي جبرئيل : قد أمرت الجنة والنار أن تعرض عليك . . إلى أن قال (ص) : وللنار سبعة أبواب على كل باب منها ثلاث كلمات كل كلمة خير من الدنيا وما فيها لمن يعلم ويعمل بها . . إلى أن قال (ص) : وعلى الباب السابع مكتوب ثلاث كلمات : حاسبوا نفوسكم قبل أن تحاسبوا » . الحديث . وغير ذلك من الروايات .

قال البهائي (قده) في الكشكول: كان توبة بن الصمة محاسباً لنفسه في أكثر أوقاته في ليله ونهاره ، فحسب يوماً ما مضى من عمره فإذا هو ستون سنة ، فحسب أيامها فكانت إحدى وعشرين ألف وخمسمائة يوم فقال : يا ويلتاه ! ألقى مالكاً بإحدى وعشرين ألف ذنب ؟ ثم صعق صعقة كانت فيها نفسه .

وصل : كما أن المشارطة كانت من العبد في أول النهار فالأنسب أن تكون المحاسبة في آخر النهار عند تمام أعماله ، بل في رواية

قال (ع) : « إذا أويت إلى فراشك فانظر ما سلكت في بطنك وما كسبت في يومك ، واذكر أنك ميت وأن لك معاداً » ، وسيجيء ، لهذه الرواية توضيح عند ذكر آداب النوم إن شاء الله .

ولا بد أن تكون المحاسبة بدقة وتأمل بحيث لا تفوت منه ساعة ، فإن الشيطان العدوّ يزيّن للإنسان من عمله فيراه حسناً ، كما في كثير من الآيات ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ** . . ﴾[1] وقوله تعالى في غير مورد : ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ** . . ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً** . . ﴾[3] وغير ذلك من الآيات .

كما أن عليه أن يتّقي غائلة النفس ومكرها ، فإنها خداعة ملبسة مكّارة ، فليطالبها أولاً بالجواب الصحيح عن جميع ما تكلمت به طول نهارها ، وهكذا عن نظرها بل عن خواطرها وأفكارها وقيامها وقعودها وأكلها وشربها ونومها ، وحتى عن سكوتها في بعض الموارد ، وأنها لم سكتت ؟ وعن سكونها لم سكنت ؟ فربما يكون السكوت ذنباً والسكون معصية ، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة ، وربما تتساهل نفسه في ذلك ، فليتذكر محاسبته عند الله تعالى بمحضر من الأولياء والملائكة يَهُنْ عليه ذلك ، قال الصادق (ع) : « لو لم يكن للحساب مهولة إلّا حياء العرض على الله عز وجل ، وفضيحة هتك الستر على المخفيات ، لحق للمرء أن لا يهبط من رؤوس الجبال ولا يأوي

(١) سورة الأنفال : الآية ٤٨ .
(٢) سورة النمل : الآية ٢٤ .
(٣) سورة فاطر : الآية ٨ .

إلى عمران ، ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا عن اضطرار متصل بالتلف » ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس ، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبار ، فحينئذٍ يأخذ نفسه بالمحاسبة كأنه إلى عرَصاتها مدعوّ وفي غمراتها مسؤول . قال الله عز وجل : ﴿ . . وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[1] . انتهى .

وكان الحسن بن علي (ع) إذا ذكر الموت بكى ، وإذا ذكر القبر بكى ، وإذا ذكر البعث والنشور بكى ، وإذا ذكر الممر على الصراط بكى ، وإذا ذكر العرض على الله شهق شهقة يغشى عليه منها .

وقال الشيخ البهائي في كشكوله في وصيّة أفلاطون الإلهي لتلميذه أرسطو نقلها المحقق الطوسي : اعرف معبودك واحفظ حقّه ـ إلى أن قال ـ ولا تقدم على الدعة والنوم إلا بعد أن تحاسب نفسك في ثلاثة أشياء : الأول : أن تتأمل هل صدر منك في ذلك اليوم خطأ أم لا ، الثاني : أن تنظر هل اكتسبت فيه خيراً أم لا ، الثالث : هل فات منك بتقصير عمل أم لا . . . .

هذا وقد ورد في الروايات الأمر بتشديد المحاسبة على النفس .

قال (ع) : « لا يكون العبد مؤمناً حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه والسيد عبده » .

وقال (ع) : « ولا يكون الرجل من المتّقين حتى يحاسب نفسه

(١) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

أشد من محاسبة الشريك شريكه ، فيعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه ومن أين ملبسه أمن حل ذلك أم من حرام » .

والكلام الجامع في ذلك ما قاله أمير المؤمنين (ع) حين سئل كيف يحاسب الرجل نفسه قال (ع) : « إذا أصبح ثم أمسى رجع إلى نفسه وقال يا نفس إن هذا يوم مضى عليك لا يعود إليك أبداً ، والله سائلك عنه فيما أفنيته وما الذي عملت فيه ؟ أذكرت الله أم حمدته ؟ أقضيت حق مؤمن ؟ أنفست عنه كربته ؟ أحفظته لظهر الغيب في أهله وولده ؟ أحفظته بعد الموت في مخلفيه ؟ أكففتِ عن غيبة أخ مؤمن بفضل جاهك وأعنت مسلماً ؟ ما الذي صنعت فيه ؟ فيذكر ما كان منه ، فإن ذكر أنه جرى منه خير حمد الله عز وجل وكبره على توفيقه ، وإن ذكر معصية أو تقصيراً استغفر الله عزّ وجل وعزم على ترك معاودته » . انتهى .

واعلم يا عزيزي أن نتيجة هذه المحاسبة حسنة جداً وكثيرة ، وقد أشير إلى ذلك في الروايات ، منها قوله (ع) : « من تعاهد نفسه بالمحاسبة أمن فيها المداهنة » . وقوله (ع) : « من حاسب نفسه على العيوب وقف على عيوبه وأحاط بذنوبه ، واستقال الذنوب وأصلح العيوب » . وقال (ع) : « حاسبوا أنفسكم تأمنوا من الله الرهب ، وتدركوا عنده الرغب » . وقال (ع) : « من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن خاف أمن » . وقال (ع) : « وثمرة المحاسبة صلاح النفس » . وقال (ع) : « من حاسب نفسه سعد » .[1] .

---

(١) راجع فيما ذكرنا من روايات المحاسبة ميزان الحكمة : الأبواب ٣٢٨ إلى ٨٣٢ .

وجملة القول في ذلك أن المحاسبة تثمر السعادة وصلاح النفس ، وكل الصيد في جوف الفرا .

فصل : الركن الرابع لهذا السلوك هو المعاتبة والمعاقبة والمجاهدة :

إذا حاسب العبد نفسه فرأى أنها خالفت المشارطة وقارفت المعصية ـ نعوذ بالله ـ وارتكبت تقصيراً في حق الله فلا يهملها ، فإنه إن أهملها تتجاسر على المعصية مرة أخرى ، أو على معصية أخرى ، ويسهل عليها مقارفة المعاصي وتأنس بها ، فيصعب عليها مفارقتها وتكون كالطفل المستأنس لثدي أمه يعسر فطامه ؛ هذا مضافاً إلى تراكم الظلمات على قلبه الحاصلة من المعصية ، فإذا أظلم القلب فيتسلّط الشيطان عليه ويكون أشهى إلى الذنب وإلى مخالفة الله سبحانه ، فلهذا ينبغي أن يعاتبها أولاً ويقول لها : أيتها النفس المتمردة ، ألم أعهد إليك ألا تدخلي في المعصية هذا اليوم ؟ فلماذا خالفت المعاهدة ، ألم تستحيي من الله وقد افتضحت في الملكوت وذهبت بعزتك ، ولبست لباس الذل عند الملائكة وأولياء الله العظام والمؤمنين الذين يرون أعمالك ؟ قال تعالى : ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** . . ﴾[1] وأتعبتني في إصلاحك وأشكلت علي الأمر .

سمعت من أحد الأخوة أن في مجلس العارف الكامل الحاج ميرزا جواد الملكي (قده)، ذكر أحدٌ آخرَ بسوء واغتابه ، فتألم العارف المذكور وخاطب المغتاب بقوله : قد أتعبتني بغيبتك هذه أربعين يوماً .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٥ .

نعم أيها العزيز ، نحن في غفلة من اثار الذنوب على القلب ، وقلوبنا لا تحس بها ولا تشعر ، ونستجير بالله أن يكون عدم الشعور هذا نتيجة موت القلب ، فإنه حينئذٍ تنقطع عنه معالجة الأطباء الروحيين المتداولين بأيدينا ولا تفيده هذه المعالجات ، إلا أن يكون طبيباً كعيسى (ع) . يحيي الموتى ، وأنى لنا بذلك ؟

قال الإمام زين العابدين (ع) : « إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي ، وجللني التباعد منك لباس مسكنتي ، وأمات قلبي عظيم جنايتي » .

وبالجملة ينبغي أن لا يترك توبيخها . فإن للتوبيخ أثراً عظيماً في تأثر النفس ، وله أثر تلقيني قد أيّده العلم المعاصر ، فربما يعالج الأطباء الأمراض الجسمية بالتلقينات من دون أن يستفيدوا من الأدوية ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِين ﴾[1] الشامل لإطلاقه نفس المذكر ، وربما يستفاد هذا الأدب السلوكي من الرواية التي ذكرناها عن النبي (ص) ليلة الإسراء أنه (ص) رأى مكتوباً على الباب السابع للنار ثلاث كلمات وهي : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، ووبخوا نفوسكم قبل أن توبخوا . الحديث . ونستجير بالله تعالى من توبيخ يوم القيامة ، وقد سمعت حديثاً مضمونه أن الله سبحانه يوبّخ العبد يوم القيامة ويقول له : ألم أفعل بك كذا وفعلت كذا ؟ ولا يزال سبحانه يوبخه حتى يقول العبد : إلهي وسيدي ، أسألك أن تأمر خزنة النار أن يأخذوني إلى جهنم ويدخلوني النار لأنجو من عذاب

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٥ .

توبيخك . ثم إنه ينبغي أن لا يقتنع السالك بالتوبيخ فحسب بل يعاقبها عقوبة شرعية . والأولى أن تكون العقوبة مناسبة للذنب كماً وكيفاً ، كما مرّ في التوبة ، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع والصوم ، وإذا تكلم بكلام غير مرضٍ لله تعالى فيعاقب لسانه بتلاوة القرآن وذكر الله تعالى ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه ليمنعه من شهواته . وهكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة .

ففي الأثر عن طلحة قال : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه : ذوقي وعذاب جهنم أشد حرّاً ، أجيفة بالليل وبطّالة بالنهار ؟ قال : فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي (ص) في ظل شجرة ، فأتاه فقال : غلبتني نفسي . فقال له النبي (ص) : ألم يكن لك بدّ من الذي صنعته ؟ أما لقد فتحت لك أبواب السماء وباهى الله عز وجل بك الملائكة ، ثم قال لأصحابه : تزودوا من أخيكم . الحديث(١) .

ورواه شيخنا الصدوق عن ليث بن أبي سليم قال : سمعت رجلاً من الأنصار يقول بينما رسول الله (ص) مستظل بظل شجرة في يوم شديد الحر ، إذا جاء رجل ينزع ثيابه ، ثم جعل يتمرغ في الرمضاء يكوي ظهره مرة وبطنه مرة وجبهته مرة ويقول : يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم مما صنعت بك . الحديث على اختلاف في ألفاظه(٢) .

قال بعض علماء الآخرة : والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك

---

(١) المحجة البيضاء : المجلد الثامن ، الصفحة ١٦٩ .
(٢) المحجة البيضاء : المجلد السابع ، الصفحة ٣٠٨ .

وأهلك وولـدك على مـا يصـدر منهم من سـوء خلق وتقصيـر في أمـر ، وتخاف أنك لـو تجاوزت عنهم خـرج أمرهم من يـدك وبغوا عليـك ، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عداوة لك وضراوة وأشد طغياناً عليك ، وضررك من طغيانها أعظم ضرراً من طغيان أهلك ، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشـة الـدنيـا ، ولـو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخـرة ، وأن نعيم الجنة هو النعيم المقيم الذي لا آخر له ، ونفسك هي التي تنغص عليـك عيش الآخرة ، فهي أولى بالمعاقبة من غيرها . انتهى .

وإلى جميـع ما ذكـرنا أشـار الصادق (ع) في قـوله : طـوبى لعبـد جاهد لله نفسه وهواه ، ومن هزم جند هـواه ظفر بـرضى الله ، ومن جاوز عقله نفسه الأمّارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خـدمة الله فقد فاز فـوزاً عظيمـاً ، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبـد وبين الله تعـالى من النفس والهوى ، وليس لقتلهمـا صلاح وآلـة مثل الافتقـار إلى الله ، والخشـوع والجوع والـظمأ بـالنهار ، والسهـر بالليـل ، فـإن مـات صـاحبه مـات شهيـداً ، وإن عـاش واستقـام أداه عـاقبتـه إلى الـرضـوان الأكبر ، قال الله عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] وإذا رأيت مجتهداً أبلغ منـك في الاجتهـاد فـوبـخ نفسك ولمها وعيّـرها تحثيثـاً على الازدياد عليـه ، واجعل لهـا زمامـاً من الأمر وعناناً من النهي ، وسقها كالرائض للفارّة الذي لا يذهب عليه خـطوة من خطواتها إلا وقد صحح أولها وآخرها ، وكان رسـول الله (ص) يصلي حتى تتورم قدماه ويقول : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

---

(١) سورة العنكبوت : الآية الأخيرة ٦٩ .

أراد أن تعتبر به أمته ، فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبد والرياضة بحال ، ألا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله ورأيت بركاتها واستضأت بنورها لم تصبر عنها ساعة واحدة ، ولو قطعت إرباً إرباً ، فما أعرض إلّا بحرمان فوائد السلف من العصمة والتوافيق .

قيل لربيع بن خيثم : ما لك لا تنام بالليل ؟ قال : لأني أخاف البيات . انتهى .

فصل : فإذا فرغت من عمل المحاسبة والمعاتبة فتهيأ للنوم ، وليكن نومك نوم السالكين فإن لهم آداب وحالات ، ونكتفي هنا ، بما ذكره العارف الكامل الحاج ميرزا جواد الملكي (رض) ، بترجمة منا وتغيير يسير لا يفوت المعنى المقصود له ، قال (رض) : ينبغي للسالك أن يعلم عند النوم أن النوم أخو الموت ، كما صُرّح بذلك في الآية المباركة : ﴿ **اللَّهُ يَتوفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمّىً** . . ﴾[١] فمن الضروري أن تأخذ عدة للموت في الجملة ، وتكون مستعداً له بأن تجدد عهد الإيمان ، وتكون على طهارة مستقبلاً القبلة ، وتتوجه بقلبك إلى القبلة الحقيقية ، وتدخل الفراش قائلاً : **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ** وتأتي بالأعمال المأثورة للنوم بقدر الإمكان ، وتسلم نفسك إلى حضرته جلّ جلاله ، ولا تترك من أعمال النوم مهماتها وهي التسمية بالقلب واللسان عند دخول الفراش ، وتقرأ الآية المباركة : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَمَنْ كَانَ**

---

(١) سورة الزمر : الآية ٤٢

يـرْجُو لِقَـاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَـلْ عَمَلاً صَـالِحاً وَلاَ يُشْـرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّـهِ أَحَداً ﴾[1] والآيـة الشريفـة : ﴿ آمَنَ الرَّسُـولُ بِمَا أُنْـزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّـهِ إلى قولـه عَلَىٰ لقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾[2] تقرأها بالتدبر ، وتسبـح تسبيح الـزهراء (ع) : وآيـة الكرسي ، وتقرأ ثلاثاً أو إحدى عشرة مـرة سورة التـوحيد وتقـول ثلاثـاً : يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته ، وتقرأ آية : ﴿ شَهِـدَ اللَّهُ أَنَّـهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُـوَ إلى سَرِيـعُ الحِسَابِ ﴾[3] . وتقـول من الاستغفـارات المروية أو مـطلق الاستغفار ، تقـول : « استغفر الله ربي وأتـوب إليه » . وليتنبّه أنه من الممكن أن يعطيه الله سبحانه في هذا المنام من المواهب العظمى ، كما أنه تعالى أعطاها للأنبياء وسائر الأوليـاء والمؤمنين ، حتى أني أعرف من عرضت له حالة معرفة النفس في نومـه النهاري فـرأى كأن العـالم قد ارتفـع وطلعت حقيقة نفسـه وكـأنهـا متحـدة مـع حقيقـة ملك الموت ، فاستيقظ من عظمة هذه الحالة فرأى كـأن حقيقته تجـذب بدنـه إليها فاستوحش من ذلك فصاح بزوجته : ما هذه الحالـة التي بي ؟ حتى زالت تلك الحالة منه؛ وربما انكشفت معارف للسالكين من الرؤيا،وربما أعطيت المقامات للسالكين بمشاهدتهم الأنبيـاء والأئمة (ع) في المنـام ، وقد ورد في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا . . ﴾[4] في الكافي والفقيه عن النبي (ص) : البشـرى في الحياة الـدنيا : الـرؤيا الحسنة يراها المؤمن فيبشر بها .

وفي الجوامع عن النبي (ص) : « هي في الـدنيا الـرؤيا الصـالحة

(١) سورة الكهف : الآية الأخيرة ١١٠ .

(٢) سورة البقرة : الأيتان الأخيرتان ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .

(٣) سورة آل عمران : الأيتان ١٨ ، ١٩ .

(٤) سورة يونس : الآية ٦٤ .

يراها المؤمن لنفسه أو يُرى له ، وفي الآخرة الجنة » .

(وهذا العبد الذليل) يـريد نفسه (قده) من أعـظم ما أرجـوه بعض المنامات الذي زرت فيه الأئمة المعصومين (ع) وشملتني منهم العنـايات العظيمة ، حتى إنَّ كثيراً من الأوقات كنت أنام رجـاء تلك المنامات لما أدركت من لذتها . وقال لي بعض أحبتي ممازحـاً : « اللهم إلا أن تراهـا في المنـام » « مثل دارج في الفـارسيـة » وهي : وإن صـدق في قـولـه . ولكني راض بذلك أيضاً .

شعـر فارسيّ :

باياد خوشت خسبم در خواب خوشت بينم

از خواب جو بر خيزم اول توبياد آئى

ترجمته :

نام وفي ذكري هـواك ففي المنام أرى وجهك الميمون في أجمل الحال

عنـد انتباهي كنت أول خـاطـري فيـا حبـذا مـن مبتـدى ومـآل

وبالجملة : بعد قراءتك الآيات لو حصلت بحالة الفكر ونمت على تلك الحالة فأكرم بها ونعمت . وإلا فاشتغل بذكر من الأذكار حتى تنام ، ولو أديت الذكر في الأواخر بنفَسك ، وحينما يتعـطل اللسان عن الحـركة بين النوم واليقظة تقول : يا الله أو الله فقط بنَفَسِـك يكـون حسناً ، وإذا نمت على هذه الحالة ربما تكون نائماً وتقول الـذكر جليـاً بنفَسك بحيث يسمعه المستيقظون أحياناً .

وخلاصة القول أن تسلّم وجودك تماماً إلى حضـرته جـل جلالـه ، فإذا استيقظت من النوم فأول ما تتذكر أن إعادة الـروح هذه إلى جسمـك

إحيـاء لها بعد الموت ، وهذه نعمة جـديدة ، فـإن آلافاً من النـاس نامـوا ولم ينتبهـوا إلا وهم في قبـورهم ، قـد سلبت عنهم نعمـة القـدرة على العمـل وهم يقـولـون : ﴿ رَبِّ ارْجِعُـونِ * لَعَلِّي أَعْمَـلُ صَـالِحـاً فِيمَـا تَـرَكْتُ . . ﴾[١] وأجيبوا بـ : ﴿ كَـلاَّ إِنَّها كَلِمَـةٌ هُوَ قَـائِلُهَـا ﴾[٢] فحينئـذٍ تسجد سجدة الشكر وتقول لنفسـك : أنت لم تخاطبي بكـلا وأرجعت ، وتستطيعين أن تعالجي جميع ما مضى وتتـداركي كل مـا فات ،بمـا يجعلك من المقربين ، وخلاصة القول[٣] تقول لنفسك : تقـدرين أن تتّجري في هذا اليوم تجارة يكون ربحهـا سلطنة الـدنيا والآخـرة ، بل يكـون ربحها قـرب الله الجليل الجميـل تعالى وجـلّ جلالـه ، وأنـت إذ أعـطيت رأس المال هذا فسيسترجع منك قطعاً ، فاجعلي جميع همتك في هذا الإمهال طلب رضاه جل جلاله ، وإذا كانت لك همة الرجال فأغمضي النـظر عما سـواه ، واطرحي الـدنيـا والآخـرة و : ﴿ قُـلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَـوْضِهِمْ يَلْعَبُـون ﴾[٤] . وليكن فكـرك وشعـورك وحـواسـك منحصـرة فيـه جـل جـلاله ، ولا تسألي جنابـه أيضـاً سـوى فضله وقـولي : لا أتمنى منـك غيرك[٥] .

---

(١) سورة المؤمنون : الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ١٠٠ .

(٣) أقول : ويؤيد هذا الأدب ما ورد في الرواية أنـه يستحب بعد القيـام من النوم أن تسجـد وتقول في السجدة : « الحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني وإليه النشـور ، الحمد لله الـذي ردّ علي روحي لأحمده وأعبده » .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٩١ .

(٥) بيت من الشعر الفارسي بهذا المعنى :

ما ازتو نداريم بغير ازتو تمنّا

حلوا بكسى ده كه محبّت بخشيد

واحذر أن يستولي فكر الدنيا على قلبك ، ويبعدك همّ المعيشة عن المطلوب الحقيقي ، فإنه خسران عظيم ويضادّ حق العبودية أيضاً ، كما أن الموالي والعبيد في الدنيا لو كان همهم بطونهم لغاظ ذلك مولاهم ، مضافاً إلى أنه من أخلاق الأراذل والسفلة وذوي الهمم الدنيئة أن تكون همة الإنسان بطنه وفرجه ، والمال والجاه لهذه الدنيا الدنية ، أليس من المؤسف أن الإنسان الذي يستطيع أن يكتسب برأس ماله عالماً يكون مقرباً لجناب مالك الملوك يصرفه في تحصيل هذه الدنيا الدنية الفانية اللاشيء ؟ سيما أن النص والتجربة يحكمان بأن الأمور الدنيوية لا ترتبط بالسعي والجد الكثير ، بل كل أحد له نصيب مقدر يناله ولو فرّ منه ، ولو فرض أن طريق الوصول إلى المقاصد الدنيوية سعي الإنسان فهو أيضاً من طريق التوجه إلى الله والتوكل عليه ، فإنه أحسن الطرق للوصول إلى العافية ، فلا يبقى للإنسان من همّ الدنيا وغمّها إلا الخسران والخزي . انتهى ما أردنا نقله من كلامه الشريف .

أدب الطعام والرياضة فيه

فصل : اعلم يا أخي أنه ينبغي ـ بل لا بد ـ للسالك من رعاية طعامه كماً وكيفاً ، أما من جهة الكم فليأكل حداً متوسطاً لا يأخذه الضعف عن العبادة ولا يغلب عليه الكسل من البطنة ، وأحسن ما قيل في هذا قول الصادق (ع) لعنوان البصري : واذكر حديث الرسول (ص) : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه ، فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » الحديث .

وقال الحكماء في تحديد ذلك أن يشرع في الطعام بعد الجوع

الكامل ، ويمتنع عنه قبل الشبع . ويقول العارف الكامل الملكي (قده) : لو راعى المبتدي في أول سلوكه جانب الجوع لكان حسناً ظاهراً ، ولا سيّما إذا كان في ضمن الصوم . هذا من جهة الكم .

وأما رعاية الطعام كيفاً ، قال العارف الواصل الملكي (قده) : إنه لا بد أن يكون كل الجد والسعي في تطهير الطعام أولاً من الحرام والشبهات ، ثم يمنع النفس قليلاً من أكل البذور والقلوبات والأشياء اللذيذة ، والأجود في هذا المقام أن لا يأكل للذة بل يأكل للقوة والتقوّي لعبادة الله .

وليجتنب من الإفراط والتفريط في أكل اللحوم ، فإن إفراطه يوجب القسوة وتفريطه يوجب تشديد القوة الغضبية ، ومقتضى الاعتدال فيه أن لا يدوم الترك ثلاثة أيام ولا يأكله في الغداء والعشاء . انتهى .

أقول : وقد أشار مولانا إمام المتقين وأمير المؤمنين إلى هذه الآداب وما فوقها في كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ، وهو عامله على البصرة ، وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها : « أما بعد يا بن حنيف ، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها ، تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان . . . . . فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم ، فما اشتبه عليك علمه فالفظه ، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه ، ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه ، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمرية ومن طعامه بقرصيه . . . وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر وتثبت على جوانب المزلق ، ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز ،

ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة . . . إلى أن قال : فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها ، أو المرسلة شغلها تقممها . . إلى أن قال سلام الله عليه : وايم الله يميناً أستثني فيها بمشيئة الله لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً وتقنع بالملح مأدوماً . . . اتمتلىء السائمة من رعيها فتبرك ، وتشبع الربيضة من عشبها فتربض ، ويأكل علي من زاده فيهجع ؟ قرت إذاً عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية » .

« فصلوات الله عليك يا أمير المؤمنين » .

فصل في الرياضة النومية

يقول العارف الكامل الملكي (قده) : إن أستاذنا المرحوم (قده) كان يقول : إن الرياضة في النوم أن يقلّ السالك من نومه في الليل والنهار ساعة واحدة عما يعيّنه الأطباء للنوم ، وكان يقول رحمه الله : إن المعين طبياً سبع ساعات ، فينام في مجموع ليله ونهاره بمقدار ست ساعات ، ولكن يجعل وقت النوم بحيث يكون يقظاً في آخر الليل . ويعلل (قده) ذلك بأن الذين وصلوا إلى مقام من المقامات المعنوية كلهم كانوا من المتهجدين ولم يشاهد ذلك من غيرهم ، وإذا أردت أن تعلم فضيلة التهجد وقيام الليل والبكاء والندبة من خوف الله والشوق إليه ـ جل جلاله ـ وفضيلة صلاة الليل ، فيكفي في ذلك الآيات والأخبار الواردة في ذلك . انتهى ما أردناه من ترجمة كلامه (قده) .

أقول : ذكرنا جملة من الآيات والروايات قد دلت على فضيلة التهجد وصلاة الليل في رسالتنا شمعة السحر ، ولا بأس بتكرارها هنا

تتميماً للفائدة ، فربما لا توجد الرسالة عند قارئنا العزيز .

في فضيلة صلاة الليل

لله قوم إذا ما الليل جنّهمُ قاموا من الفُرش للرحمن عُبّادا
ويركبون مطايا لا تملّهمُ إذا همُ بمنادي الصبح قد نادى
همُ إذا ما بياض الصبح لاح لهم قالوا من الشوق ليت الليل قد عادا

صلاة الليل في القرآن

نجد في القرآن أكثر من عشرة موارد في ذكر المتهجدين ومحيي الليالي بالعبادة والأنس بالله عزّ وجلّ ، وقد وعدهم الله سبحانه المغفرة والرحمة فيها .

وأنا أذكر آيتين من تلك الآيات حيث إنهما أهمها عندي : (**فإن كل الصيد في جوف الفرا**) . وهما الآيتان (١٦ ـ ١٧) من سورة التنزيل (السجدة) : ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ فبحسب هاتين الآيتين المباركتين كل ما ورد في الأحاديث من الجزاء والثواب لقيام الليل ، وكل ما سمعناه من أخبارٍ وآثارٍ هو جزء قليل مما عند الله عزّ وجلّ من الأجر والثواب . لأنه تعالى يقول : ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾ ، ﴿ **لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُون** ﴾ ، ﴿ **وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾ .

ولعمر الحبيب ، وإنه لقسم عظيم ، لو لم يكن في فضيلة قيام الليل والتهجد إلّا هذه الآيات الشريفة لكفى لأهل الإيمان أن ينتظروا

إتمام النهار ويمدوا أعينهم إلى استقبال الليل والخلوّ مع الحبيب .

فللّه كم من ليلة قد قطعتها بلذّة عيش والرقيب بمعزل
ونقلي مُدامي والحبيب منادمي وأقداح أفراح المحبة تنجلي

ابن الفارض(رضي الله عنه)

صلاة الليل في أخبار أهل البيت

إن الروايات الواردة في فضل صلاة الليل أكثر من أن تذكر في هذا المختصر ، ونحن نذكر شيئاً منها لترغيب المؤمنين بها وبالخصوص الشباب .

١ ـ روىٰ أقدم المحدثين الشيخ الصدوق في المجالس بإسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) : « من رزق صلاة الليل من عبد أو أمةٍ قام لله عزّ وجلّ مخلصاً ، فتوضأ وضوءاً سابغاً ، وصلّى لله عزّ وجلّ بنيّة صادقة ، وقلب سليم ، وبدن خاشع ، وعين دامعة جعل الله تبارك وتعالى خلفه تسعة صفوف من الملائكة ، في كل صف ما لا يحصي عددهم إلّا الله تعالى ، أحد طرفي كل صفّ في المشرق والآخر في المغرب . قال : فإذا فرغ كتب له بعددهم درجات » الخبر .

٢ ـ روىٰ الصدوق أيضاً بإسناده إلى مفضل بن عمر عن أبي عبد الله عن أبيه عن آبائه عن رسول الله (ص) أنه قال : « إن الله جلّ جلاله أوحى إلى الدنيا أن أتعبي مَن خدمك ، واخدمي مَن رفضك ، وأنّ العبد إذا تخلّى بسيده في جوف الليل المظلم وناجاه أثبت الله النور في قلبه ، فإذا قال يا ربّ يا ربّ ، ناداه الجليل جلّ جلاله : لبيك عبدي ، سلني أعطك ، وتوكّل عليّ أكْفِك ، ثم يقول جلّ جلاله

لملائكته : ملائكتي انظروا إلى عبدي فقد تخلّى بي في جوف هذا الليل المظلم ، والبطّالون لاهون والغافلون نيام ، اشهدوا أني قد غفرت له » . الخبر .

اللهمّ نوّر قلوبنا المظلمة ببارقة من نورك ، وافتح أبصار وأسماع قلوبنا إلى عالم الغيب ، لعلنا نأخذ نصيباً من لذة أنسك ، ونذوق شيئاً من حلاوة مكالمتك ، وارحم شقوتنا إنك أرحم الراحمين .

٣ ـ روى المحدّث الجليل الشيخ الصدوق في كتبه : (المعاني والخصال) و (المجالس) عن ابن عباس عن رسول الله (ص) قال : « أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل » .

٤ ـ عنه بإسناده إلى مفضّل بن عمر قال : سمعت مولاي أبا عبد الله يقول : « كان فيما ناجى الله عزّ وجلّ به موسى بن عمران (ع) أن قال له : يا بن عمران كذب من زعم أنه يحبّني ، فإذا جنّه الليل نام عنّي ، أليس كلّ محبّ يحبّ خلوة حبيبه ، ها أناذا يا بن عمران مطّلع على أحبّائي ، إذا جنّهم الليل حولت أبصارهم في قلوبهم ، ومثّلت عقوبتي (وفي بعض النسخ نفسي عوض عقوبتي) بين أعينهم ، يخاطبوني عن المشاهدة ، ويكلموني عن الحضور ، يا بن عمران هب لي مّن قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع في ظلم الليل ، وادعني فإنك تجدني قريباً مجيباً .

٥ ـ ذكر العارف الكامل الحاج ميرزا جواد الملكي (رض) في رسالته (لقاء الله) رواية نتيمّن بذكرها . روي أنه تعالى أوحى إلى الصدّيقين أن لي عباداً من عبادي يحبّونني فأحبّهم ، ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم ، ويذكرونني وأذكرهم ، وينظرون إليّ وأنظر إليهم ، وإن حذوتَ طريقهم

أحببتـك . وإن عدلت عنهم مقتّـك . قال يـا رب وما عـلامتهم ؟ قـال : يراعون الـظلال بالنهـار كما يـراعي الراعي الشفيق غنمـه ، ويحنّون إلى غـروب الشمس كما يحنّ الـطيـر إلى وكـره عنـد الغـروب ، فـإذا جنّهم الليل ، واختلط الظلام ، وفرشت الفرش ، ونصبت الأسـرّة ، وخلا كـلّ حبيب بحبيبه ، نصبوا إليّ أقدامهم ، وافترشـوا إليّ وجوههم ، ونـاجوني بكـلامي ، وتملّقوا إليّ بـإنعامي ، فبين صـارخ وباك ، ومتـأوّه وشـاك ، وبين قـاعـد وقـائم ، وراكـع وسـاجـد ، بعيني مـا يتحمّلون من أجلي ، وبسمعي ما يشتكون من حبّي ، أول ما أعطيهم ثلاث :

أقـذف من نـوري في قلوبهم فيخبـرون عني كمـا أخبـر عنهم . والثانية : لـو كانت السمـوات والأرض وما فيهـا في موازينهم لاستقللتهـا لهم . والثالثة : أقبل بوجهي عليهم فترى من أقبلت بوجهي عليه لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه .

وللعارف المعروف خواجة عبد الله الأنصاري في مجال هذه الرواية كلام لطيف لا بأس بترجمته ، وإن كانت اللطافة التي في بيانـه تتغير في الترجمة ، ولكن في أنفاس الأولياء لهيباً يحرّك النفوس الباردة ، ويثير نار العشق في القلوب الخامدة . يقول الشيخ :

إنّ داود (ع) قال : إلهي هبني غسلت الأعضاء لتطهر من الحـدث فبماذا أغسل قلبي ليطهر عمن سـواك ؟ فأوحى الله تعـالى إليه : يـا داود اغسل قلبك بماء الحسرة والحـزن لتصل إلى الـطهارة الكبـرى ، فقال : إلهي من أين أحصّل ذلك الحزن ؟ قال تعـالى : علينا أن نـرسل الحـزن إليـك ، ولكن بشرط أن تتّصـل بذيـل المحـزونين ومكسـوري القلوب ، قال : إلهي فما علامتهم ؟ قال تعـالى : يراقبـون الظلال ويـدعوننـا رغباً

ورهباً ، أي يمدون أعينهم إلى الشمس حتى تغيب عن الأبصار ، ويرخي الليل سدوله ، ليقرعوا باب « **ونحن أقرب** » فمن بين صارخ وباك ، ومتأوّه وشاك ، فهم طول الليل يزأرون ويبكون ، مفترشين خدودهم على التراب بالفاقة والتضرّع ، وينادوننا بصوت لهيف : يا ربّاه يا ربّاه ، ولسان حالهم يترنّم :

قليل فراقكم قوس يشدّ　　وصبح الهجر سهم لا يصدّ
وليل الأنس عجلان سريع　　كمن في النار رجليه يمدّ[1]

فيأتي النداء من جبّار العالم : يا جبرئيل ويا ميكائيل دعا أنتما زجل التسبيح ، فإني أسمع صراخ محروق ، وإن على ظهره حمولة العصيان ؛ ولكن في قلبه شجرة الإيمان ، قد عجنت طينته بحبّنا ، فمقرّبو الملأ الأعلى منذ خلقوا قائمون في مقام العبودية لنا ، وعاملون بأوامرنا ، محترقون من أمنية نظرة منّا إليهم ، فإذا هم في حيرة وحسرة : يا رب ما هذا ؟ فإن الخدمة هنا ، ولكن العشق والمحبة هناك ، وإن السعي والمجاهدة علينا ، وأما الوصول والمشاهدة لهم ، فتجيبهم عزّة الأَحَدِيَّةِ بنعت التقدير : إن الأمر للالتهاب والحزن ، فها هي قلوبهم معادن اللهب ومخازن الحزن . انتهى .

٦ ـ وعن رسول الله (ص) أنه قال : « ما زال جبرئيل يوصيني بقيام الليل حتى ظننت أن خيار أمتي لن يناموا » .

---

(١) شبهاي فراق توكما نكش باشد　　صبح أزيرتو جو تيرآرش باشد
وان شب كه مرابا توبتا خوش باشد　　كوئى شب را قدم برآتش باشد
كناية عن سرعة انقضاء ليل الأنس ، كمن وضع رجله في النار فهو لا يطيق الصبر والبقاء .

٧ ـ وعن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبدالله (ع) يقول: « ثلاثة هنّ فخر المؤمن وزينته في الدنيا والآخرة: الصلاة في آخر الليل، ويأسه مما في أيدي الناس، وولاية الإمام من آل محمد ».

٨ ـ وعن أبي عبد الله (ع): « ما من عمل حسن يعمله العبد إلّا وله ثواب في القرآن، إلّا صلاة الليل فإن الله لم يبيّن ثوابها لعظيم خطرها عنده فقال: ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً وممّا رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين، جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ ».

اعلم أيها العزيز كما أنّ للحسنات والعبادات آثاراً في النفس والقلب، ويتأثر القلب بها ويحصل فيه نور وصفاء، ويرى ما لا يراه سائر الناس، ويسمع ما لا يسمعون، بل ربما يغلب على القلب النورانيّة فيكون كالمرآة المصقولة تنعكس فيها الصور من عالم المثال، وتحصل له المكاشفات والمشاهدات، وإذا تم نوره وصفاؤه يتجلّى له الحق تعالى وأسماؤه وصفاته، ويكون مظهراً لها، فهذا النور الذي في القلب يسري إلى أعضائه وجوارحه، ويكون سمعه وبصره ولسانه وجميع جوارحه نوراً، بل ربما يشاهد ذلك في سيماه الظاهري أيضاً، وهذا المعنى ـ مضافاً إلى أنه المشاهد خارجياً ـ قد أشير إليه في الروايات، كما في (العلل والعيون) عن الرضا (ع) أنه قال: « سئل علي بن الحسين (ع) ما بال المتهجّدين بالليل من أحسن الناس وجهاً؟ قال: لأنهم خلوا بربهم فكساهم الله من نوره » وقال الصادق (ع) أيضاً: « صلاة الليل تبيّض الوجه... » كذلك للأعمال السيئة والذنوب آثار تظلم القلب وتطغى عليه، فلا يعرف الحق من الباطل، والهدى من

الضلال ، وهذا هو الذي عبّر عنه في الروايات بالطبع والرين ، كما في (الكافي) عن زرارة عن أبي جعفر (ع) أنه قال : « ما من عبد إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء ، فإن أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء ، فإن تاب ذهب ذلك السواد ، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض ، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً ، وهو قول الله عزّ وجل : ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ » .

وهذه الظلمة أيضاً تجري في الأعضاء وظاهر الإنسان ، كما أشير إلى ذلك في الآية الشريفة : ﴿ **الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ . . كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً** ﴾[1] . فصلاة الليل مذهبةٌ لآثار الذنوب، ومبيّضة للوجه ، كما ذكرنا عن الصادق (ع) وقال أيضاً في رواية أخرى : « صلاة الليل تذهب بذنوب النهار » .

٩ ـ في العلل عن جابر (رض) عنه أنه قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : « ما اتّخذ الله إبراهيم خليلاً إلاّ لإطعامه الطعام وصلاته بالليل والناس نيام » .

فيا حبذا العبادة التي توصل صاحبها إلى مقام الخلّة والمحبّة مع الحق تعالى ؛ وأسفاً علينا نحن المحرومين من هذه الفيوضات ، فما أغبن من هيّأ له أرحم الراحمين تلك الوسائل للسعادة وهو لا يستفيد منها ، وإلى ذلك أشار أبو عبد الله الصادق (ع) على ما في (ثواب الأعمال) أنه قال لسليمان الديلمي : « يا سليمان لا تدع قيام الليل ، فإن المغبون من حرم قيام الليل » .

---

(١) سورة يونس : الآية ٢٧ .

١٠ - في (ثواب الأعمال) للصدوق (رض) عن الصادق (ع) أنه قال : « إن البيوت التي يصلى فيها بالليل بتلاوة القرآن تضيء لأهل السماء كما تضيء نجوم السماء لأهل الأرض » .

أقول : سمعت غير مرة من الأستاذ العارف الكامل آية الله الحاج ميرزا جواد الأنصاري الهمداني (قده) أنه ينقل عن أحد تلامذة مكتبه ترغيباً للسائرين أن فلاناً (مع أنه ليس عالماً وهو عاميّ بحت)[١] قام ليلة للتهجّد ، فرأى في حالة تهجّده أن عدّةً من البيوت في بلدة همدان يتصاعد منها النور إلى السماء ، فتفطّن أن تلك البيوت هي التي تقام فيها صلاة الليل ؛ ومضافاً إلى ذلك شاهد أن عموداً من النور متصل من الأرض إلى عنان السماء ، فأُلهم أنه إمام العصر أرواحنا فداه قائم في ذلك المكان يتهجّد ، وذاك النور نوره الشريف . هنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم . ما أروع هذه المناظر وأجملها وأحلاها .

١١ - روى المحدّث الجليل المجلسي عن كتاب الغايات عن ابن أبي يعفور أنه قال : قلت لأبي عبد الله (ع) أخبرني - جعلت فداك - أيّ ساعة يكون العبد أقرب إلى الله والله منه قريب[٢] ؟ قال : « إذا قام في

---

(١) ولعلّ تركيزه قدس سرّه على كون المشاهد عامياً من جهة أنه لو كان عالماً فربّما يحتمل أن تكون مشاهدته هذه نتيجة تأثّره من العلم بهذه الرواية وأمثالها ، ويكون لها أثر تلقينيّ في نفسه ، وإن كان ذلك أيضاً مغبوطاً فيه .

(٢) الواو في (والله) يمكن أن تكون للعطف بمعنى أنه سأل الإمام عن أي ساعة يكون العبد أقرب إلى الله ويكون الله منه قريباً .

ويمكن أن تكون للاستئناف أو الحالية فيكون المعنى أنه سأل عن أقرب ما يكون العبد إلى الله والحال أن الله تعالى منه قريب في كل الأوقات فيكون المعنى قريباً من قوله تعالى : ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ . وقوله (ع) : « وإنك لا تحتجب عن خلقك إلاّ أن تحجبهم الأعمال دونك » . =

آخر الليل والعيون هادئة ؛ فيمشي إلى وضوئه حتى يتوضأ بأسبغ وضوئه ، ثم يجيء حتى يقوم في مسجده ، فيوجّه وجهه إلى الله ، ويصفّ قدميه ويرفع صوته ويكبّر ، وافتتح الصلاة فقرأ أجزاء وصلّى ركعتين ، وقام ليعيد صلاته ، ناداه مناد من عنان السماء عن يمين العرش : أيها العبد المنادي ربه ، إن البر لينشر على رأسك من عنان السماء ، والملائكة محيطة بك من لدن قدميك إلى عنان السماء ، والله ينادي : عبدي لو تعلم من تناجي إذاً ما انفتلت » الخبر .

١٢ ـ روى الصادق (ع) قال : قال أمير المؤمنين : قال رسول الله (صلى الله عليهم أجمعين) : « صلاة الليل مرضاة الرب ، وحب الملائكة ، وسنّة الأنبياء ، ونور المعرفة ، وأصل الإيمان ، وراحة الأبدان ، وكراهية الشيطان ، وسلاح على الأعداء ، وإجابة للدعاء ، وقبول الأعمال ، وبركة في الرزق ، وشفيع بين صاحبها وبين ملك الموت ، وسراج في قبره ، وفراش تحت جنبيه ، وجواب مع منكر ونكير ، ومؤنس وزائر في قبره إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة كانت الصلاة ظلاًّ فوقه وتاجاً على رأسه ، ولباساً على بدنه . ونوراً

= وفي ذلك قال السعدي الشيرازي :

دوست نزديكقر از من بمن است | وبـ عجبتركه من ازوى دورم
جه كنم باكه توان كفت كه يار | دركنار من ومن مهجورم

الترجمة :

إن محبوبي مني لقريب | وأنا النائي وهذا لعجيب
فإلى من أشتكي ما حلّ بي | كنت مهجوراً وفي جنبي حبيب

وقال طرفة بن العبد في ذلك :

وأمر ما لاقيت من ألم الهوى | قرب الحبيب وما إليه وصول
كالعيس في البيداء يقتلها الظما | والماء فوق ظهورها محمول

يسعى بين يديه ، وستراً بينه وبين النار ، وحجة للمؤمنين بين يدي الله تعالى ، وثقلاً في الميزان ، وجوازاً على الصراط ، ومفتاحاً للجنة » . الخبر .

١٣ ـ وروي عن النبي (ص) : « شرف المؤمن صلاته بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس » .

١٤ ـ وقال (ص) : « إذا جمع الله الأولين والآخرين نادى منادٍ : ليقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، فيقومون وهم قليلون . ثم يحاسب الناس من بعدهم » .

١٥ ـ وكان مما ناجى به الباري تعالى داود (ع) : « عليك بالاستغفار في دلج الليل والأسحار ، يا داود إذا جنّ عليك الليل فانظر إلى ارتفاع النجوم في السماء ، وسبّحني وأكثر من ذكري حتى أذكرك ، يا داود إنّ المتّقين لا ينامون ليلهم إلاّ بصلواتهم لي ، ولا يقطعون نهارهم إلاّ بذكري ، يا داود إنّ العارفين كحلوا أعينهم بمرود السهر ، وقاموا ليلهم يسهرون يطلبون بذلك مرضاتي ، يا داود إنه من يصلي بالليل والناس نيام يريد بذلك وجهي فإني آمر ملائكتي أن يستغفروا له ، وتشتاق إليه جنتي ، ويدعو له كل رطب ويابس ، يا داود اسمع ما أقول ، والحق أقول : إني أرحم بعبدي المذنب من نفسه لنفسه ، وأنا أحب عبدي ما يحبني ، وأستحي منه ما لا يستحي مني » . والروايات في المقام أكثر من أن تذكر في هذا المختصر ، فنتبرك بذكر موعظة لبعض العلماء بتلخيص منّا ، قال قدّس سرّه[١] :

---

(١) هو الشيخ الأجلّ المحدث الوجيه النبيه أبو محمّد الحسن بن أبي الحسن محمّد الديلمي الذي =

اعلم أن الليل والنهار لا يفتران عن مسيرهما ، وإنما يسيران بنقص عمر ابن آدم ، وهما ساعات ولحظات ، فإذا لهوت مع سرعة سيرهما لحظة ، واشتغلت عن الصلاة والذكر لحظة أخرى ذهبت ساعات النهار كلها في غفلة ، ثم جاء الليل ، فإن نمته كلّه كنت ممن لا خير فيه ليلاً ولا نهاراً ، ومن كان هذا حاله فموته خير له من حياته ؛ لأنه قد مات قلبه ، ولا خير في حياة جسد قد مات قلبه . ولله در القائل شعراً :

أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم ... وكيف ينال النوم حيران هائم
فلو كنت يقظان الغداة لحرّقت ... مدامع عينيك الدموع السواجم
نهارك يا مغرور لهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
وسعيك مما سوف تكره عنده ... وعيشَك في الدنيا تعيش البهائم
تسر بما يفني وتفرح بالمنى ... كما سرّ باللذات في النوم حالم
فلا أنت في الأيقاظ يقظان ذاكر ... ولا أنت في النُّوّام ناج وسالم

ثم قال : يا جيفة بالليل ، بطّالة بالنهار ، تعمل عمل الفجار ، وأنت تطلب منازل الأبرار ، هيهات هيهات ، كم تضرب في حديد بارد ! .

واعلم يا أخي أن العقلاء العارفين بالله ، المجتهدين في تحصيل رضاه ، تراهم عامة ليلهم بذكر ربّهم يتلذّذون ، وفي عبادته يتقلّبون ، ما

= كان معاصراً للشهيد الأول ، وله كتاب غرر الأخبار ودرر الآثار وأعلام الدين في صفات المؤمنين . قيل إن حديث الكساء المشهور الذي يعدّ من متفرّدات منتخب الطريحي موجود في غرر هذا الشيخ (ره) . وله كتاب إرشاد القلوب المعروف الذي قال السيّد علي خان (قده) في مدحه :

إذا ضلّت قلوب عن هداها ... فلم تدر العقاب من الثواب
فأرشدها جزاك الله خيراً ... بإرشاد القلوب إلى الصواب

بين صلاة نافلة ، وقراءة سورة وتسبيح واستغفار ودعاء ، وتضرّع وابتهال وبكاء من خشيته ، لا ينامون من ليلهم إلاّ ما غُلبوا وما أراحوا به أبدانهم ، فهم الرجال الأخيار ، ووصفك وصف اغترار ، جيفة بالليل بطّال بالنهار ، تعتذر في ترك القيام بالليل بأعذار كاذبة ، تقول أنا ضعيف القوى أنا تاعب بكدر الدنيا ، بي مرض وصداع ، وتحتج بالبرد في الشتاء والحر في الصيف ، وهذه أعذار كاذبة ؛ ولو أن سلطاناً أعطاك ديناراً أو كسوة وأمرك أن تقف ببابه تحرسه بالليل لبادرت إلى ذلك ، لا بل لو قال لك خذ سلاحك واخرج قدّامي تحارب عدّوي لبذلت روحك العزيزة وإن قتلت ، وكم من إنسان يأخذ درهماً أجرة له على حراسة زرع غيره ، أو ثمرة غيره ، ويسهر الليل كله في برد شديد وحرّ عظيم ، ولو أنّك أردت سفراً أو عملاً من أعمال الدنيا لسهرت عامة الليل في تعبئة أشغالك ، وتحفّظ تجارتك ، ولم تعتذر بتلك الأعذار عن خدمة ربّك ، وهذا يدل على كذبك وضعف يقينك بما وعد الله العالمين بالثواب والجنة على الطاعة ، فإنك قد أطعت في ذلك نفسك الأمّارة بالسوء ، وأطعت إبليس وقد حذّرك الله من طاعته ، فقال تعالى : **﴿ إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ، إنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾**(١) .

وقال تعالى : **﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ واللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ﴾**(٢) .

فاحذر نفسك يا أخي من طول الرقاد ، واعبد ربك حتى تبلغ منه

---

(١) سورة فاطر : الآية ٦ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٦٨ .

المراد ، ولله درّ بعض الزهّاد حيث قال شعراً :

حبيبي تجـاف من المهـاد   خـوفـاً من المـوت والمعـاد
من خاف من سكرة المنـايا   لم يـدر مـا لـذة الـرقـاد
قـد بـلغ الـزرع منـتهـاه   لا بـدّ للزرع من حـصـاد

واعلم أن من نـام عامـة ليله ، كان ذلـك دليلاً على أنـه عمـل في نهاره ذنباً عظيماً ، فعاقبه الله فطرده عن بابه ومرافقـة العابـدين الذين هم أحباؤه ، ولو علم النائم عن صلاة الليل ما فاته من الثواب العظيم والأجر المقيم لطال بكاؤه عليه .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله (ص) : « حسب الـرجل من الخيبـة أن يبيت ليلة لا يصلي فيهـا ركعتين ، ولا يـذكـر الله فيهـا حتى يصبح » . وقيل : يـا رسـول الله إن فـلانـاً نـام البـارحـة عن ورده حتى أصبح ، قال : « ذلك الرجل بال الشيطان في أذنه فلم يستيقظ » .

وكان بعض العباد يصلي عامة ليله ، فإذا كان السحر أنشد يقول :

ألا يـا عين ويحـك أسعـديني   بـطول الدمـع في ظُلَم الليالي
لعلّك في القـيـامـة أن تفـوزي   بحـور العين في قصـر الـلآلي

وقـال بعض العابـدين : رأيت في منامي كـأني على شـاطىء نهـر يجري بالمسـك الأذفر ، وعلى حـافته شجـر من اللؤلؤ وقصب الذهـب ، وإذا بجَوارٍ مزينات لابسات ثياب السندس ، كأنّ وجوههن الأقمار ، وهنّ يقلن : سبحـان المسبّح بكـل لسان سبحـانـه ، سبحـان الـدائم في كـل الأزمان سبحانه . فقلت لهن : من أنتُنّ فقلن شعراً :

ذرأنـا إلـه النـاس ربّ محمـد   لقوم على الأطراف بالليل قـوّم

ينـاجـون رب العـالمين إلّههم وتسري حمول القوم والناس نوّم

فقلت : بـخ بخ لهؤلاء القـوم من هم ؟ فقلن : هؤلاء المتهجدون بالليل بتلاوة القرآن ، الذاكرون الله كثيـراً في السر والإعـلان ، المنفقون والمستغفرون بالأسحار . فقامـوا الليل وتحملوا السهـر والقيام والقعـود ، وصبروا صبراً جميلاً ، أعقبهم ذلك راحة طويلة في نعمة لا انقطاع لها . فعاتب يا أخي نفسك ولا تقبل منها أعذارها في ترك القيام ، فتلك معاذير كاذبة .

وأنت يا مسكين لو صبـرت صبرهم ، وعملت مثـل عملهم ، فزت بما فازوا ؛ ولكنك آثرت لذات الرقاد على تحصيل الزاد ، ولـم تجد الزاد ولم تَجُدْ بمالك على المساكين من العباد ، فآثر عليك الله العبـاد الزهّـاد فقرّبهم وأبعدك ، وأدناهم من بابه وطردك .

واعلم أنـك إذا لـم تنشط لأفعال الخيـر وعبادة الله ، فـإنـك مكبـل مقيّـد ، قد قيـدتك ذنـوبك وخـطاياك ، فسـابق يا أخي العـابـدين بسهـر الليل ، لتسبقهم إلى جنات العلى ، فالليل أسبق جـواد ركبه الصـالحون إلى رفيـع الدرجـات من الجنـات ، فتكـون ممن مـدحهم الله في كتـابـه العزيز ، فقـال تعالى : ﴿ **تتجـافى جنوبهم عن المضـاجع يـدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ .

فانظروا إلى ما مدح الله به المصلين بالليـل ، المنفقين مما رزقهم الله على المستحقين ، وإن خفت ألّا تستيقظ للصـلاة بعد النـوم ، فخـذ حـظك من الصلاة قبـل النوم ، وإيـاك أن تغفـل عن الاستغفـار في وقت الأسحار ، فذلك وقت لا تنام فيه الأطيار ، بـل ترفـع أصواتهـا بالتسبيـح والأذكار ، وعليك بتلاوة الأدعية والمناجاة ، فإن الدعاء مخّ العبادة . وإن

كنت ولا بدّ لك من النوم فاستيقظ منه ساعة للتوبة والبكاء والدعاء ، فإن غفلت ونمت الليل كله حتى ساعة الدعاء فقد مات قلبك ، ومن مات قلبه أبعده الله عن قربه .

أقول : ربّما يوسوس الشيطان لمن استيقظ من نومه وفيه كسالة النوم أن الصلاة بهذه الحالة من الكسالة لا فائدة فيها ، فإنها بلا نشاط وحضور للقلب ، وكيف تقبل صلاة لا حضور للقلب فيها ؟ فيأخذ مضجعه وينام نتيجة هذه الوسوسة الشيطانية ، أو يوسوس له بأن الوقت باق فنم قليلاً ثم قم للصلاة بنشاط وإقبال ، وقد أشير إلى هذه في بعض الروايات ، كما في (المحاسن) وغيره عن أبي جعفر (ع) قال : « إن لليّل شيطاناً يقال له الزهاء ، فإذا استيقظ العبد وأراد القيام إلى الصلاة قال له : ليست ساعتك ، ثم يستقيظ مرة أخرى فيقول : لم يئن لك ، فما يزال كذلك يزيله ويحبسه حتى يطلع الفجر » . الحديث .

فاعلم يا عزيزي أن الشيطان لك عدو ، وليس شيء أشدّ عليه من قيامك بالليل وسجودك لربك ، وهذه الوسوسة تجيئك من قبله فاحذر أن تقبل قوله وتقع في فخّه ، وإذا جاءك بهذا الفخ فقل لنفسك : إنّ هذه الكسالة ستزول بالقيام والوضوء والتهيّؤ للصلاة ، كما جُرِّبَ مراراً ، ولو فرضنا أنها لم تزل فالصلاة بغير نشاط وإقبال أفضل من الرقاد . هذا مضافاً إلى ما ورد في الروايات من الفضل بخصوص القيام في الليل حتى في حالة الكسالة ؛ منها ما روي أن النبي (ص) قال : « إذا قام العبد من مضجعه والنعاس في عينيه ليرضي ربه بصلاة ليله ، باهى الله به ملائكته فيقول : أما ترون عبدي هذا قائماً من مضجعه وترك لذيذ منامه إلى ما لم أفرضه عليه ، اشهدوا أني قد غفرت له » . وأصرح من

ذلـك ، في (العلل) بإسنـاده عن علي بن محمد النـوفلي قال : سمعتـه يقول : « إن العبد ليقوم في الليل فيميل به النعاس يميناً وشمالاً وقد وقع ذقنه على صدره ، فيأمر الله تبارك وتعالى أبواب السماء فتفتح ، ثم يقول لمـلائكته : انـظروا إلى عبدي مـا يصيبه في التقـرّب إليّ بما لم أفـرض عليه ، راجياً مني لثلاث خصال : ذنباً أغفره أو توبة أجدّدها أو رزقاً أزيد فيه ، أشهدكم ملائكتي أنّي قد جمعتهن له » . انتهى .

فلا يعتني بالشيطان ووسوته ، بل يقوم من مضجعه ويتوجّه إلى الله سبحـانه ، فـإنّ التـوفيق سيـدركـه ، والعنـايـة الإلهيـة ستشمله كمـا هـو المجرّب .

وقـال بعض الصالحين : نمت ذات ليلة عن وردي فسمعت هـاتفاً يقول : أتنام عن حضـرة الرحمن وهـو يقسم جوائـز الرضـوان بين الأحبة والخـلان ؟ فمن أراد منا المـزيد فـلا ينـم ليله الـطويـل ولا يقنـع لنفسـه بـالقليـل . ونختم هـذا الفصـل بـذكـر روايتين شـريفتين ليكـون ختـامـه المسك ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون :

الأولى : ما نقله ابن شهر آشوب عن طاووس قال : رأيت علي بن الحسين (ع) يطوف من العشاء إلى السحر ويعبّد ، فلما لم يره أحـد رمق السماء بطرفـه وقال : « إلّهي غـارت نجوم سمـاواتك ، وهجعت عيـوني أمامك ، وأبوابك مفتحات للسائلين ، جئتـك لتغفر لي وتـرحمني وتريني وجه جدّي محمّد (ص) في عرصـات القيامـة . ثم بكى وقال : وعـزّتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ، وما عصيتك إذ عصيتك وأنـا بك شـاكّ ، ولا بنكالـك جاهـل ، ولا لعقوبتـك متعرّض ، ولكن سـوّلت لي نفسي ، وأعانني على ذلك سترك المرخيّ عليّ ، فـأنا الآن من عـذابك

من يستنقذني ؟ وبحبل من أتّصل إن قطعت حبلك عني ؟ فواسوأتـاه غداً من الوقوف بين يديك ، إذا قيل للمخفّين جوزوا وللمثقلين حـطّوا ، أمع المخفّين أجـوز أم مع المثقلين أحطّ ؟ ويلي ! كلّمـا طال عمـري كثـرت خـطايـاي ولم أتب ، أمـا آن لي أن أستحيي من ربي ؟ ثم بكى وأنشأ يقول :

أتحـرقني بـالنـار يـا غـايـة المنى فـأين رجـائي ثم أين مـحبَّـتي ؟
أتـيـت بـأعـمـال قـبـاح رديـة وما في الورى عبد جنى كجنايتي

ثم بكى وقال : سبحانك تعصى كأنـك لا ترى ، وتحلم كـأنك لم تعص ، تتودّد إلى خلقك بحسن الصنع كأن بك الحاجة إليهم ، وأنت يا سيدي الغنيّ عنهم . ثم خرّ إلى الأرض ساجداً .

قـال : فدنـوت منه ، وشلت بـرأسـه ووضعتـه على ركبتي وبكيت حتى جرى دموعي على خدّه ، فاستوى جالساً وقال : من الـذي أشغلني عن ذكـر ربّي ؟ فقلت : أنا طـاووس يا بن رسـول الله . ما هـذا الجـزع والفزع ؟ ونحن يلزمنا أن نفعـل مثل هـذا ونحن عاصـون جانـون ، أبوك الحسين بن علي ، وأمـك فاطمـة الـزهـراء ، وجـدّك رسـول الله (ص) ! قـال : فالتفت إليّ : هيهـات هيهات يـا طاووس ، دع عنّي حـديث أبي وأمّي وجدّي ، خلق الله الجنّة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ولـو كان ولـداً قرشيّـاً ، أما سمعت قـوله تعـالى : ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُـونَ** ﴾ ؟ والله لا ينفعك غداً إلّا تقدمة تقدّمها من عمل صالح » . انتهى .

الثانية : ما رواه المجلسي عن فلاح السائل عن حبّة العرني قال :

بينا أنا ونـوف نائمـان في رحبة القصـر . إذ نحن بأميـر المؤمنين (ع) في بقية من الليل ، واضعاً يده على الحائط شبيه الواله وهو يقول : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ . . ﴾ إلى آخر الآيـة قـال : جعـل يقـرأ هـذه الآيات ويمرّ شبه الطائـر عقله ، فقال لي : أراقـد أنت يا حبّـة أم رامق ؟ قـال : قلت : رامق ، هذا أنت تعمـل هذا العمـل فكيف نحن ؟ قـال : فأرخى عينيه فبكى ثم قـال لي : يا حبـة ، إن لله موقفـاً ، ولنا بين يـديه موقف لا يخفى عليه شيء من أعمـالنـا ، إن الله أقـرب إليّ وإليـك من حبل الوريد ، يا حبّـة إنه لن يحجبني ولا إيـاك عن الله شيء . قال : ثم قال : أراقد أنت يا نوف ؟ قال : قلت : لا يا أمير المؤمنين ما أنا براقد ، ولقد أطلت بكائي هذه الليلة ، فقال : يا نوف ، إن طال بكاؤك في هـذه الليلة مخافة من الله عزّ وجلّ قرّت عيناك غداً بين يدي الله عزّ وجلّ ، يـا نوف ، إنه ليس من قطرة قطرت من عين رجـل من خشية الله إلاّ أطفـأت بحـاراً من النيران ، يـا نوف إنـه ليس من رجل أعـظم منزلـة عند الله من رجل بكى من خشية الله ، وأحبّ في الله ، وأبغض في الله ، يـا نوف ، إنه من أحبّ في الله لم يستأثـر على محبّته ، ومن أبغض في الله لم ينـل مبغضيه خير ، عند ذلك استكملتم حقائق الإيمان . ثم وعظهما وذكرهما وقال في أواخره : فكونوا من الله على حذر فقد أنذرتكما ، ثم جعل يمرّ وهو يقول : « ليت شعري في غفلاتي أمعـرض أنت عنّي أم ناظـر إليَّ ؟ وليت شعري في طول منامي وقلّة شكري في نعمتـك عليّ ما حـالي ؟ » قال : فوالله ما زال في هذه الحالة حتى طلع الفجر . انتهى .

وأنت يـا عزيـزي تفكّـر في هـاتين الـروايتين ،وقارن نفسـك مـع مواليك الذين هم مطهّـرون من الذنـوب ، وقد أذهب الله عنهم الـرجسّ

وطهّرهم تطهيراً ، وجعلهم أسوة لنفسك ، فإن كان هذا حالهم وهذه خشيتهم من الله فالويل لي ولأمثالي ، فما أشقانا وأسوأ حالنا ومنقلبنا ، اللهمّ ربّنا غلبت علينا شقوتنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين .

وصل : يقول العارف الكامل الملكي (قده) : فانظر يا أخي إلى ما ورد في الرواية أن لله تعالى ملكاً يقال له (الداعي) فإذا دخل شهر رجب ينادي هذا الملك كل ليلة إلى الصباح طوبى للذاكرين ، طوبى للطائفين . يقول الله تعالى : أنا جليس من جالسني ، ومطيع من أطاعني وغافر من استغفرني .

فانظر أيها الإنسان المسكين إلى حالك إذا كنت مطيعاً لربك ، كيف ترتقي إلى المقام الأسنى والدرجة العليا التي يعجز اللسان عن تعبيرها، بل يتحير العقل عن تصويرها،إذ تصير بها إماماً للملائكة وجليساً لرب العالمين ، بل مطاعاً لملك الملوك تعالى جل جلاله ، وإن كنت عاصياً له ومستخفّاً لأمره بالتهجد و ومهوناً لدعوته إلى مناجاته تكن مبالاً للشيطان ، فما أفضح حالك والتذاذك بالنوم عن رب العالمين ، حيث أزالك عن درجة المقربين وأبهى مقام الأكرمين ، وألحقك بأسفل السافلين وسفلى دركات الأرذلين ، ألست أنت الذي تتنافس في صحبة أشراف الدنيا ، وتسعى كل سعيك في تحصيل شرف صحبتهم ، بل تبذل لذلك مالك واستراحتك ، بل تلقي نفسك في خطر الموت في تحصيل شرف مصاحبة سلطان زمانك ؟ فأين أنت أيها المسكين الطالب لتحصيل الشرف ، والباذل مهجته في الوصول إلى التشرف بصحبته السلاطين ، فما هذا التواني والتسامح في إجابة دعوة هذا السلطان الحقيقي الذي لا تقاس سلطنة جميع السلاطين بعضو ذرة من سلطنته

العظيمة ؟ بل وكل ما يوجد من السلطنة في المخلوقين إنما هو أثر من آثار سلطنته العظمى ، وظل من ظلال جلاله وسلطانه الأعلى ، ومع أنه ولي نعمك بالنعم التي لا تقدر على إحصائها أنت ، بل ولا يقدر على ذلك أحد من المخلوقين ، فما أخسرك في معاملتك مع هذا السلطان العظيم بهذه المعاملة التي لا تعاملها قطعاً مع سلطان وقتك ، وأنت من عبيده ، بل ولا مع وزرائه وخدامه ، بل ولا مع أقرانك ، بل ولا مع عبيدك وخدامك ، بل ولا مع أعدائك ، فإن الإنسان يستحي أن يرد دعوة أعدائه إلى مجلس الأنس والتواد ، ولا سيما إذا أرسل إليك رسولاً عزيزاً شريفاً كريماً يلاطف في دعوته بهذه التعبيرات والتكريمات ، فسبحانه ما أكرمه وأحلمه وألطفه، ولعمري إن حق الإنسان أن يبذل تمام الدنيا والآخرة ويفديهما بصنوف نعمهما وشرفهما ولذاتهما وبهجتهما كلها لقدوم هذا الداعي ، بل يبذل روحه وتمام العالمين لحرف من حروف كلمات هذه الدعوة ، ولا يرى لما فعله خطراً ، بل يكون عليه خجل القاصرين في أداء حق شكره ، كيف لا وهذه كلها محدودة حقيرة في جنب علو هذا التشريف ، ومع ذلك فهي أيضاً نعمة من نعمه ومننه عليك ، كما أن بَذْلك وفداءك أيضاً من نعمه ، فيا سبحان هذا الرب الكريم الذي تحيرت العقول في كرامته ومعاملته مع عبيده ، فإنه جلّت آلاؤه لم يقنع في منّته بهذه التشريفات على هذا العبد المسكين حتى وعد له على قبوله لهذه التكريمات من المثوبات والخلع والعطايا ما عجزت عن وصفه ألسن البلغاء بل واستعجمت عن فهمه ومعرفته فهوم العلماء ، بل ولا خطر على قلب بشر . وقال عزّ من قائل : ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامَاً مَحْمُوداً** ﴾[1] فما أجهلنا بمعرفة كنه المقام المحمود وتصويره ، فتدبر

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٧٩ .

يا أخي فيما أسلفت لك .

إن الإنسـان إذا لاحظ الأشياء بـالعقل فـالعقل لا يـرضى أن يسوي بين الحقير والخطير ، بل ولا يسوي بين فردين من حقيقة واحدة لـو وجد بينهما فرق يسير من جهة من الجهات ، فكيف يمكن التسويـة في حكمه بين شـرف تكريمٍ لله جـل جلالـه لعبده مـع سائـر الشـرافـات وبين لـذة مناجاته وقربه والنظر إلى نور وجهه مع سائر اللذات ، إذ كل مـا يتعلق به من الشـرف والكرامـة والسعادة لا منتهى لـه ولا أمد ولا عـدد ولا حـدّ ، وغيـرها كلهـا مقصورة محـدودة بحدودهـا ، ولا نسبة بين المحـدود وغير المحدود أبداً .

وبالجملة : يجب على السالـك أن يختبر حـاله ، فـإن كان لنفسـه تأثر من العوالم الإنسانية ومخالفة الصفات الكريمة ، يتلو عليهـا من قبح استقبال هذه التشريفات بفضائح تلك المناقضات والمخالفات ، ويتصور في فضاحته الجفاء في قبال هذه المعاملات الكريمة من مثل هذا المنعم العظيم الشأن ، فـإن الجفاء يتفـاوت قبحه مـع الأشخاص ، فـإن الجفاء على المنعم يشتد عند العقلاء عنه على غيـر المنعم ، وكلما زاد الإنعـام يزيد في الاشتداد ، وهكذا يشتـد إذا كان المنعم عـظيماً ويـزيد اشتـداده بزيادة العظمة ؛ مثـلاً إذا أهدى إلى الإنسـان حاكم البلد فـاكهة يقبـح عند العقل أن يقابله الإنسان بعدم الاعتناء ، ويزيد القبح إذا أدام هذه الهديـة في كل يوم ، ويزيد إذا زاده في الهدية بغير الفاكهـة أيضاً إلى أن يهـدي إليه دائماً جميع ما يحتاج إليه في معيشته ، بل جميع ما منه وجوده وبقاؤه ولوازمه وفواضله ، وجميع هذه الهدايا بكل ما يتعلق به ومن يتعلق به من جميع الوجوه ، حتى يصير بحيث لا يقـدر هو على إحصـاء كليات نعمـه

وهداياه ، فضلاً عن إحصاء جزئياتها ، بل يكون جميع ما في داخل بدنه وقواه وخياله ونفسه وقلبه وروحه وعقله ، بل وجميع ما في عالم الإمكان من الموجودات كلها ـ من جهة ارتباط الموجودات بعضها ببعض ـ نعمة له فلا محالة إذا بلغت النعم هذا المبلغ يبلغ قبح الجفاء وسوء المعاملة في قبالها غاية يتجاوز حدّ الحصر ، وإذا فرض هذه كلها مع سلطان المملكة يعظم القبح عند العقل بقدر عظمة درجة السلطان على الحاكم ، وكلما فرضت زيادة في عظمة سلطان هذا المنعم لا بد من الحكم بزيادة القبح إلى أن يبلغ الأمر في العظمة بما تعجز الألسن عن وصفه ، ويحار العقل والعقلاء في تصوير كنهه ، فعند ذلك يكون القبح أيضاً غير محدود من جهتين ، هذا كله إذا لوحظ أيسر مراتب الجفاء ، فكلما زيد في الجفاء يزيد القبح إلى أن يبلغ الجفاء إلى حد لا يجوّزه العقل مع الأعداء ، فإن النفوس الكريمة لا تجوّز إظهار العداوة حضوراً ولو للأعداء ، سيما إذا لم يكن العدو مظهراً للعداوة بل كان مظهراً للوداد ، إلى أن يصير الإظهار إلى درجة إظهار الشوق بل إظهار المحبة في أعلى مراتبها .

فإن كنت في ريب من ذلك فانظر إلى ما ورد في قوله : « لو علم المدبرون عني كيف اشتياقي لهم وانتظاري إلى توبتهم لماتوا شوقاً إليّ ولتقطعت أوصالهم » وإلى ما روي من فرحه تعالى بتوبة العبد وقوله في الحديث : « يا بن آدم ، وحقك عليّ إني أحبك ، وبحقي عليك أحبني » وقوله لنبيّه وكلمته عيسى بن مريم : « يا عيسى كم أطيل النظر وأحسن الطلب والقوم لا يرجعون » فواأسفاه وواسوأتاه وواغوثاه من عظمة هذه الكلمات وعظم مواقعها عند العقلاء ، وسبحان الله ما أفضحنا

وأجفانا وأقبحنا ، وعزته وجلاله وجماله لو كنا أناساً ذوي حياء ولـو وجد فينا مثقال ذرة من الحياء والعقل لمقتنا أنفسنا مقتاً لا يتصور فوقه مقت ، ورضينا بأن يعذّبنا ربنا بالعذاب الأليم أبد الآبـدين ودهر الـداهرين ، بـل وسألناه ذلك تمام عمرنا مقتاً على أنفسنا كيف عصينـاه حضوراً بعـد هذه المعاملات اللطيفة ، وجليل هذه التكريمات الجميلة ، ومن أجل معـرفة هذه العوالم ترى الأئمة صلوات الله عليهم يقولون في مناجاتهم :

« إلهي لو كان لي جلد على انتقـامك وعـذابك لمـا سألتـك العفو عني ، وسألتك الصبر عليه مقتاً على نفسي كيف عصيتك » .

ومن هـذا الباب قـول السجاد (ع) : « إلهي لـو بكيت عليك حتى تسقط أشفار عيني ، وانتحبت لك حتى ينقطع صوتي ، وقمت لـك حتى تنشر قدماي ، وركعت لك حتى ينخلع صلبي ، وسجدت لك حتى تتفقأ حدقتاي ، وأكلت تـراب الأرض طول عمـري ، وشربت مـاء الرمـاد آخر دهري ، وذكرتك في خلال ذلك حتى يكل لسـاني ، ثم لم أرفع طـرفي إلى آفـاق السمـاء استحيـاء منـك مـا استـوجبت بـذلـك محـو سيئـة من سيئاتي » .

ومن أجـل ذلك قـال الصادق (ع) في مصبـاح الشريعـة : « لـو لم يكن للحساب مهولة إلا حياء العرض على الله تعالى وفضيحة هتك الستر على المخفيات ، يحق للمرء أن لا يهبط من رؤوس الجبـال ، ولا يأوي إلى عمـران ، ولا يـأكـل ولا يشـرب ولا ينـام إلا عن اضـطرار متصـل بالتلف » .

وهذا المقدار من التفكر ـ لمثل هذا السالك المتأثرة نفسه من جهة

المحبة والشوق ـ كاف لكمال الجد والاجتهاد ، وإن كان تأثر نفسه من جهة المحبة والشوق أكثر ، فعليه بالتفكر فيما مضى من الأخبار الواردة في إظهار لطفه تعالى على المتهجدين ، وإراءة وجهه وإلقاء نوره على بصائر قلوبهم ، ودعوته إياهم إلى مجلس أنسه ومحفل قربه ، ولو لم يكن في هذا الباب إلا تعبيره جل جلاله في كتابه العزيز بقوله : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً . . ﴾[1] كان في التعبير عن ذكر قيامهم بما يدل على ذكر ترك لذتهم في ذاته ، والتعبير بلفظ « ربهم » كفاية للعارفين المدعيّن لحبه .

وهكذا في قول الله تعالى لداود (ع) : « وبعيني ما يتحملون لأجلي ـ أو من أجلي ـ وبسمعي ما يشتكون من حبي » فوق الكفاية . وهكذا قوله لكليمه : « كذب من زعم أنه يحبني وإذا جنّه الليل نام عني » .

أقول : اعلم يا عزيزي أن طريق الحب أقرب الطرق للوصول إلى المحبوب ، وأن مركب العشق أسرع مركوب في سبيل المقصود ، والحب هو ميزان القرب إلى الله تعالى ، فكلما اشتدّ حبّ العبد إلى الله تعالى كان أقرب إليه ، ولذلك سميّ أقرب خلق الله النبي الأعظم حبيب الله ، ومقام الحب أعظم المقامات ، لأن أكثر المقامات العالية التي يصل إليها المحب كالشوق والأنس والرضا . . . . هي من ثمرات مقام الحب . وكثير من المقامات ـ قبل الوصول إلى مقام الحب كالتوبة والصبر والزهد ـ مقدمة لهذا المقام ، والتأكيد على الحب في الآيات

---

(١) سورة السجدة : الآية ١٦ .

والروايات أكثر من أن يذكر ، وكفى شرفاً لهذا المقام أن الأوامر الإلهية والوظائف الشرعية إذا أتي بها بداعي الحب ويكون الباعث إليها هو الحب فحينئذٍ تستتبع حب الله تعالى عبده ، فتدبر في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** . . ﴾[1] وما تدري نفس ما أخفي لها من النور والبهجة والسرور لو أحبها الله . إن منزلة الحب في سماء الولاية كمنزلة كوكب (ناهيد) يطلع قبيل طلوع شمس الوصال ، واشوقاه إلى أهل الشوق وسلام على ذكرهم . ولنرجع إلى كلام العارف الرباني المذكور قال : وإن كان تأثر نفسه من خوف النار والرغبة في الجنة فلينظر إلى ما ورد في ثواب صلاة الليل والبكاء من خشية الله .

روى الديلمي في الإرشاد عن النبي (ص) : « ما من مؤمن يخرج من عينه مثل ريش الذباب من الدموع فيصيب وجهه إلا حرّمه الله على النار » . وقال : « لا ترى النار عين بكت من خشية الله » .

وقال (ص) : « ما من قطرة أحبّ إلى الله من قطرة دمع خرجت من خشية الله ، ومن قطرة دم سفكت في سبيل الله وما من عبد بكى من خشية الله إلّا سقاه الله من رحيق رحمته ، وأبدله الله ضحكاً وسروراً في الجنة ، ورحم الله من حوله ولو كانوا عشرين ألفاً . وما اغرورقت عين من خشية الله إلا حرّم الله جسده على النار ، وإن أصاب وجهه لم يرهقه قتر ولا ذلة . ولو بكى عبد في أمة لنجّى الله تلك الأمة ببكائه » .

وقال (ع) : « من بكى من ذنب غفر له ، ومن بكى من خوف النار

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

أعـاذه الله منها ، ومن بكى شـوقاً إلى الجنـة أسكنه الله فيهـا ، وكتب له أمـاناً من الفـزع الأكبر ، ومن بكى من خشيـة الله حشـره الله مـع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

ثم ذكر (قده) جملة من الروايات في فضل البكاء من خشيـة الله . . إلى أن قال :

في البحـار عن (الأمالي) بـإسناده عن رسـول الله (ص) أن يحيى أتى بيت المقدس فنظر إلى المجتهـدين من الأحبار عليهم مـدارع الشعر وبـرانيس الصوف ، وإذا هم قـد خرقـوا تراقيهم وسلكـوا فيها السـلاسل وشدوها إلى سواري المسجد ، فلما نظر إلى ذلك أتى أمّه فقال : يا أماه انسجي لي مدرعة وبرنساً من الصـوف حتى آتي بيت المقدس فـأعبد الله مع الأحبار والرهبان . فقالت له أمّه : حتى يأتي نبيّ الله وأؤامره في ذلك . فلمّا دخل زكرّيا (ع) أخبرته بمقالة يحيى (ع) فقال له : يا بني ما يـدعوك إلى هـذا ؟ إنما أنت صبّي صغيـر ؟! فقال لـه : يا أبـه أما رأيت من هـو أصغـر سنّاً مني قـد ذاق الموت ؟ قـال : بلى ثم قال لأمـه : انسجي لـه مدرعة من شعر وبرنسـاً من صوف ففعلت ، فتـدرع المدرعـة على بدنـه ووضع البرنس على رأسـه ، ثم أتى بيت المقدس فـأقبل يعبـد الله تعالى مع الأحبار حتى أكلت المدرعة لحمـه ، فنظر ذات يـوم إلى ما قـد نحل من بدنه فبكى ، فـأوحى الله تعالى عـزّ وجل : أتبكي ممّـا قد نحـل من جسمك ، وعزتي وجـلالي لو اطّلعت إلى النـار اطّلاعـة لتدرعت مـدرعة الحديد فضلاً عن المنسوج ، فبكى حتّى أكلت الدموع لحم خـدّيه وبـدا للناظرين أضراسه ، فبلغ ذلك أمّه فـدخلت عليه ، وأقبـل زكريّـا واجتمع الأحبار والرُهبان فأخبروه بذهاب لحم خدّيـه فقال : مـا شعرت بـذلك .

فقال زكريّا يا بني ما يدعوك إلى ذلك إنّما سألت ربّي أن يهبك لي فتقرّ عيني بك . قال : أنت أمرتني بذلك يا أبه . قال : ومَتى ذلك يا بني ؟ قال : ألست القائل : إن بين الجنة والنّار لعقبة لا يجوزها إلاّ البكاؤون مِن خشية الله؟ قال : بلى . فجدّ واجتهد ، وشأنك غير شأني . فقام يحيى فنفض مدرعته فأخذته أمّه فقالت : أتأذن لي أن اتّخذ لك قطعتي « لبود » تواريان أضراسك وتنشفان دموعك ؟ فقال لها : شأنك . فاتّخذت له قطعتي « لبود » تواريان أضراسه وتنشفان دموعه حتى ابتلّتا من دموع عينيه ، فحسر عن ذراعيه ثم أخذ يعصرهما فانحدرت الدموع من بين أصابعه ، فنظر زكريّا إلى ابنه وإلى دموع عينيه فرفع رأسه إلى السماء فقال : اللّهم إنّ هذا ابني وهذه دموع عينيه وأنت أرحم الراحمين .

وكان زكريا (ع) إذا أراد أن يعظ بني إسرائيل التفت يميناً وشمالاً فإن رأى يحيى لم يذكر جنةً ولا ناراً فجلس ذات يوم يعظ النّاس ، وأقبل يحيى وقد لف رأسه بعباءة ، فجلس في غمار النّاس ، والتفت زكريا يميناً وشمالاً فلم ير يحيى فأنشأ يقول : حدّثني حبيبي جبرئيل عن الله تبارك وتعالى أن في جهنم جبلاً يقال له (السكران) في أصل ذلك الجبل (واد) يقال له (الغضبان) يغضب للرحمن تبارك وتعالى ، وفي ذلك الوادي (جب) قامته مئة عام ، في ذلك الجب (توابيت) من نار ، في تلك التوابيت صناديق من نار وثياب من نار وسلاسل من نار وأغلال من نار ، فرفع يحيى رأسه ، فقال (ع) : واغفلتاه من السكران . ثم أقبل هائماً على وجهه ، فقام زكريا (ع) من مجلسه فدخل على (أم يحيى) فقال لها : قومي فاطلبي (يحيى) فإنّي قد تخوفت أن لا نراه إلا

وقـد ذاق الموت ، فقـامت وخرجت في طلبـه حتى مرت بفتيـان من بني إسرائيل ، فقـاموا فقـالوا لهـا : يا أم يحيى أين تـريدين قـالت : أريد أن أطلب ولدي ، ذُكرت النار بين يديه فهام على وجهـه ، فمضت أمّ يحيى والفتية معها حتى مرّت براعي غنم فقالت له : يا راعي ، هل رأيت شـاباً من صفته كذا وكذا ؟ فقال لها : لعلك تريدين يحيى بن زَكريّـا ؟ قالت : نعم . قال : إنّي تركته الساعة على عقبة ثنية كذا وكـذا ناقعـاً قدميـه في الماء رافعاً بصره إلى السماء يقول : وعزتّك وجلالك يا مولاي ، لا ذقت بـارد الشراب حتّى أنـظر إلى منزلتي منـكَ ، فأقبلت أمّـه فلما رأتـه دنت منه ، فأخذت برأسه فوضعته بين ثدييها وهي تناشده بالله أن ينـطلق معها إلى المنزل . فانـطلق معها حتّى أتى المنـزل ، فقالت لـه : هل لـك أن تخلع مدرعة الشعر وتلبس مدرعة الصوف فـإنه ألْين ؟ ففعـل . وطبخ لـه عدس فأكل واستوفى ، فنام فذهب به النّوم فلَم يقم لصلاته ، فنودي في منامه : يا يحَيى بن زكريا (ع) أردت داراً خيراً من داري وجـواراً خيراً من جواري ؟ فاستيقظ فقام وقال : يـا رب أقلني عثرتي ، إلٰهي فـوعزتـك لا أستظل بظلّ سِوى بيت المقدس ، وقـال لأمّه : نـاوليني مدرعـة الشعر ، فقد علمت أنكّما ستورداني المهالك . فتقدمت أمّه فدفعت إليه المدرعـة وتعلقت به ، فقال لها زكريـا (ع) : دعيه فـإن ولدي قـد كشف عنه قنـاع قلبه ولن ينتفع بالعيش . فقام يحيى (ع) فلبس مدرعته ولبس بـرنسه على رأسه ، ثم أتى بيت المقدس ، فجعل يعبد الله عزّ وجل مع الأحبار حتى كان من أمره ما كان . وبكى يحيى نبي الله الـذي عصمه الله من الـذنب من خوف الله حتى ذهب لحم خديه .

ففكر يا أخي في هـذه الأخبار واختـر لنفسك منهـا عدة ليـوم فقرك

وفاقتك ، بل لحال ابتلائك وبلائك ، فإن لم يساعدك حالك للبكاء فلا محالة من التباكي ، فإن منعتك القساوة منه أيضاً فاعلم أنك قد أمرضتك الذنوب وأفسد قلبك أكدار العيوب لا سيما الاغترار بزينة هذه الدنيا الدنيّة وزخارفها وزهرتها ، وإلف هذه العادات الرديّة من التنعم بلذاتها وحظوظها ، فإن حبها ـ كما ورد في الأخبار ـ رأس كل خطيئة مهلكة ، ولم يدع في قلبك محلاً لذكر الله وفكراً للآخرة . انتهى ما أردنا من نقل كلامه قدس الله نفسه الزكية .

على بوابة التحول

فإذا عمل المريد بهذا الدستور وداوم على ما يناسبه من الأذكار في بقية أوقاته ، وجعل في يومه وليلته وقتاً معيناً للفكر ، ويكون فكره في أول الأمر في الموت ، وليكن عن حقيقة القلب لا عن ظاهره بحيث يقل أثره ، فإن ذكر الموت دواء مؤثر لإحراق حب الدنيا وإصلاح أغلب الأخلاق الرذيلة ، وقد ورد في أخبار كثيرة الحثّ على ذلك .

وروي أنه سئل رسول الله (ص) : هل يبلغ أحد درجة شهداء بدر ؟ فقال (ص) : من يذكر الموت في كل يوم عشرين مرة .

قال العارف المذكور في المقام ما خلاصته أنه لا بأس بالإشارة إجمالاً إلى كيفية الفكر ، وهي أن يتفكر في أمور :

أولها : في إمكان تعجيله ، ويكفي فيه للعاقل السير في أحوال الذين يموتون فجأة ، وأنهم أيضاً قبل الموت كانوا لا يحتملون أن يموتوا إلى سنين ، فإذا جاء الأجل فنيت المهل ، وكم من حي قوي نشيط لا يحتمل الموت ويتخيل لنفسه عمراً طويلاً ، ويبني في أموره بناء من

يعيش مائة سنة ، مات فجأة من ساعته ، فإذا كان هذا ممكناً وواقعاً فما الذي آمننا منه ؟

وثانيها : أن يتفكر في شدة الموت وسكراته ووحشته ، ويكفي فيه أن يتفكر فيما يصل إليه من آلام الأوجاع في أعضاء بدنه ، فإن في ملاحظة هذه الأوجاع كفاية لمن أراد أن يتعقل ألم الموت الذي قيل : هو لبعض الأشخاص نظير سفود جعل في صوف رطب ثم جذب .

ويكفي في ذلك الأخبار الواردة في شدة الموت ومصيبته ؛منها ما ورد في تفصيل موت من أخبر سلمان المحمدي حين وفاته ، وفيه أنه قال :

يا سلمان ، القرض بالمقاريض والنشر بالمناشير أسهل وأهون عليّ من غصة واحدة من غصص الموت ، وكنت أنا من أهل الخير والسعادة ، فإذ جاء شخص عظيم الجثة مهيب المنظر ما بين السماء والأرض ، فأشار إلى عيني ولساني وسمعي فعميت وخرست وبكمت . . . إلى أن قال : فقال ملك الموت : أبشر إنك من أهل الخير . ودنا مني وجذب روحي ، وكأن كل جذبة مكان كل شدة تنزل من السماء إلى الأرض ، وهكذا كان يجذب حتى بلغ إلى صدري ، فإذ جذب جذبة واحدة شديدة بحيث لو وقعت على الجبال لذابت من شدتها ، فأخرج روحي .

قال (قده) : يا أخي هذه الرواية قد أنقضت ظهري ، لأن هذا الرجل كان من أهل الإيمان وأهل الخير ، فإن كان أمره بهذا المنوال فكيف يصنع من لا يطمئن بل لا يظن لنفسه خيراً؟ .

ومنها أن يتفكر في أن الموت للأولياء أول راحة وأول سرور وبهجة وألذّ لذة ، ويعلم ذلك أيضاً إما بما أخبر به الأنبياء والأئمة (ع) ، أو بما شوهد من شوق المحبين لله إليه وإظهار شوقهم له .

وأما الأخبار فهي كثيرة ، يكفي منها ما في حديث المعراج الذي رويته سابقاً ، وإظهار شوق الأنبياء والأولياء (ع) ويكفيك منه قول أمير المؤمنين سلام الله عليه : « والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل لثدي أمه » .

وقوله في حق المتقين : « ولولا الآجال التي كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب » .

على عتبة المنزل

قال (قده) : وهذا الفكر للمبتدئين نافع جداً وأما للمتوسطين الذين لاحت لهم بعض أسرار الكون ، وألقوا بعض الحجب الظلمانية ، فيكون فكرهم في معرفة النفس حتى تنكشف عنهم الحجب الظلمانية كلها ، حتى حجاب الخيال والصور ، وتتجلى لهم أنفسهم وحقيقتهم بلا مادة وصورة ، فإذا حصلت لهم هذه المرتبة الجليلة وفازوا بذلك المقام الجليل انفتح لهم الباب إلى معرفة الرب ، وانكشفت لهم حقائق العوالم لا سيما عوالم المبدأ ، ويرى نفسه بلا مادة ولا صورة . انتهى ما أردنا من نقل كلامه .

وخلاصة الفكر بالنفس أن يشتغل المتفكر تارة لتجزية نفسه وأخرى لتجزية العالم ، حتى يتحقق له أن ما يعلمه من العالم ليس إلا نفسه وعالمه ، لا العالم الخارجي ، وأن هذه العوالم المعلومة له إنما هي

مرتبة من نفسه ، ثم ينفي عن قلبه كل صورة وخيال ، ويكون فكره في العدم حتى تنكشف له حقيقة نفسه ، أي يرتفع العالم من بين يديه فيظهر له حقيقة نفسه بلا صورة ولا مادة ، وهذا هو أول معرفة النفس ، ولعل إلى ذلك أشير في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ . . ﴾[1] حيث سئل عنه (ع) فقال (ع) : نور يقذفه الله في قلبه فيشرح صدره ، قيل : هل لذلك من علامة ؟ قال (ع) : علامته التّجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل حلول الفوت .

ولعل العامة لا يعتقدون في معنى التجافي إلا الزهد في شهوات الدنيا ، ولا يتصورون معنى للتجافي الحقيقي الذي هو ارتفاع الغرور الواقع في هذا العالم لأهله ، وعدم رؤية الأشياء كما هي ، الأمر الذي هو شأن العامة الذين لم يبلغوا بعد إلى معرفة النفس بهذه المعرفة .

توضيح وتتميم

قال أفلاطون الإلهي : إن شاهق المعرفة أشمخ من أن يطير إليه كل طائر ، وسرادق البصيرة أحجب من أن يحوم حوله كل سائر .

وقال الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا في النمط التاسع من الإشارات في مقامات العارفين :

جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد ، أو يطلع عليه واحد بعد واحد .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٢٢ .

وقال الحكيم السهروردي على ما نقله بعض الأفاضل عن تاريخ ابن خلكان قال :

نواحي القدس دار لا يطؤها القوم الجاهلون ، وحرام على الأجساد المظلمة أن تلج ملكوت السماوات ، فوحّد الله وأنت بتعظيمه ملآن ، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عريان .

قال الشيخ العلامة البهائي (قده) كما في سلافة العصر (ص ٢٩٢) : **سانحة** : قد تهب من عالم القدس نفحة من نفحات الأنس على قلوب أصحاب العلائق الدينيّة ، والعلائق الدنيوية ، فتعطر بذلك مشام أرواحهم وتجري روح الحقيقة في رميم أشباحهم ، فيدركون قيح الأنفاس الجسمانية ، ويذعنون بخساسة الانتكاس في مهاوي القيود الهيولانية ، فيميلون إلى سلوك مسالك الرشاد ، وينتبهون من نوم الغفلة عن المبدأ والمعاد ، لكن هذا التنبيه سريع الزوال ، ووحي الاضمحلال ، فياليته يبقى إلى حصول جذبة إلهية تميط عنهم أدناس عالم الزور ، وتطهّرهم من أرجاس دار الغرور ، ثمَّ إنّهم عند زوال تلك النفحة القدسيّة ، وانقضاء هاتيك النسمة الأنسية يعودون إلى الانعكاس في تلك الأدناس ، فيتأسفون على ذلك الحال الرفيع المنال ، وينادي لسان حالهم بهذا المقال ، إن كانوا من أصحاب الكمال :

تيرى زدى وزخم دل آسوده شد ازآن
هان اى طبيب خسته دلان مرهم :دكَر

وبالجملة كأنَّ الشاب (أي حارثة أو زيد) خاف من زيغ القلب وزوال النعمة فرأى أنَّ خروجه من الدُّنيا مع ذلك النور الإلهي أفضل

وأحب إليه من البقاء فيهـا مع خـوف زواله فـاستحب الأوَّل على الثاني والله تعالى أعلم .

وفي سـلافة العصـر في محاسن الشعـراء بكـل مصـر (ص ٤٧٩) تأليف العلاَّمة السيد علي صدر الدين المدني صاحب رياض السالكين ، في شرح صحيفة سيِّد الساجدين ، وشرح الفوائد الصمـدية في النحـو ، والدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة وغيـرها تبلغ إلى ثمـانية عشـر مؤلفاً في فنون متنوّعة : الأمير محمد باقر بن محمد الشهير بالـداماد الحسني . إلى أن قال صاحب السلافة في ترجمته (قده) : ومن غريب رسائله رسالته الخليعة ، وهي ممّا يدلّ على تأله سريرته ، وتقدّس سيرته . وصورتها :

بسم الله الرّحمن الرّحيم ، الحمد كلّه لله رب العالمين ، وصـلاته على سيّدنا محمد وآله الطاهرين ، كنت ذات يوم من أيام شهـرنا هـذا ، وقد كان يوم الجمعة سادس عشر شهـر رسول الله شعبـان المكرّم ، لعـام ثلاث وعشرين وألف من هجرته المقدّسة في بعض خلواتي ، أذكـر ربّي في تضاعيف أذكاري وأورادي باسمه الغني ، فأكرّر : يـا غني يا مغني ، مشدوهاً(١) بذلك عن كلّ شيء إلاّ عن التوغل في حريم سرّه والانمحاء في شعاع نوره ، وكأنَّ خاطفة قدسيّة قد ابتدرت إليّ ، فاجتذبتني من الوكر الجثماني ، ففككت حلق شبكة الحس ، وحللت عقد حبالـة الطبيعـة ، وأخذت أطير بجناح الروح في وسط ملكوت الحقيقة ، وكـأنّي قد خلعت بـدني ورفضت عـدني ، ومقـوت خلدي ، ونضـوت جسـدي ، وطـويت إقليم الزمان ، وصرت إلى عالم الدهر ، فإذا أنا بمصـر الوجـود بجماجم

(١) الشده : الحيرة والدهش .

أمم النظام الجملي من الإبداعيات والتكوينيّات والإلهيات والطبيعيّات والقدسيات والهيولانيات والدهريات والزمنيات وأقوام الكفر والإيمان ، وأرهاط الجاهلية والإسلام من الدارجين والدارجات والغابرين والغابرات ، والسالفين والسالفات ، والعاقبين والعاقبات ، في الآزال والآباد ، وبالجملة آحاد مجامع الإمكان ، ودارات عوالم الإمكان بقضّها وقضيضها ، وصغيرها وكبيرها ، بأثباتها وبأبدائها ، حالياتها وآتياتها ، وإذا الجميع زفة زفة ، وزمرة زمرة ، يجذبهم قاطبة معاملون ، وجوه ماهيّاتهم شطر بابه سبحانه شاخصون ، بأبصار نيّاتهم تلقاء جنابه جلَّ سلطانه من حيث لا يعلمون ، وهم جميعاً بألسنة فقر ذواتهم الفاخرة ، وألسن فاقة هوياتهم الهالكة في صحيح الضراعة وصراخ الابتهال ، ذاكروه وداعوه ومستصرخوه ومنادوه ، بيا غنيّ يا مغني من حيث هم لا يشعرون ، فطفقت في تلك الضجّة العقليّة ، والصرخة الغيبيّة أخرّ مغشياً عليّ ، وكدت من شدَّة الوله والدهش أنسى جوهر ذات العاقلة ، وأغيب عن بصر نفسي المجردة ، وأهاجر ساهرة أرض الكون ، وأخرج من صقع قطر الوجود رأساً ، إذ قد ودعتني تلك الخلسة الخالسة حيناً حيوناً إليها ، وخطفتني تلك الخطفة الخاطفة تائقاً لهوفاً عليها ، فرجعت إلى أرض التيار ، وكورة البوار ، وبقعة الزور ، وقرية الغرور تارة أخرى . هذا منتهى الرسالة المذكورة[1] .

فاعلم يا عزيزي أن الوصول إلى هذه المقامات يتوقف على المجاهدة والسعي في طلبها ليلاً ونهاراً ، ولا يصل إليها كل لاه ساه كسلان ، بل لا يصل إليها كل من جاهد وسعى .

---

(١) رسالة لقاء الله للأستاذ حسن زاده .

خليلي قطاع الفيافي إلى الحمى كثيـــر وأمـا الـــواصلون قليـــل

وإن كانت المجاهـدة لا تخلو من فائـدة فإن الله لا يضيـع أجر من أحسن عملاً ، فلا بد من السعي والجد والعمل ، فإنه :

بقـدر الجـد تكتسب المعـــالي فمن طلب العلى سهـر الليالي

ولنذكر هنا بعض ما لا بدّ للسالك إلى الله منه :

١ ـ قـراءة القرآن ، كمـا في وصيّة أميـر المؤمنين لابنـه محمـد بن الحنفيّــة ، كمـــا رواه الصـــدوق في الفقيـــه (الـــوافي الصفحـــة ٦٤ المجلد ١٤) : « وعليـك بتـلاوة (بقـراءة) القـرآن . . . . والتهجـد بـه وتـلاوته في ليلك ونهـارك ، فإنـه عهـد من الله تعـالى إلى خلقـه ، فهـو واجب على كـل مسلم أن ينظر في كل يوم في عهـده ولو خمسين آيـة ، واعلم أن درجات الجنة على عدد آيات القرآن فإذا كان يوم القيـامة يقـال لقـارىء القرآن اقـرأ وارْقَ ، فلا يكـون في الجنة بعـد النبيين والصدّيقين أرفع درجة منه » .

وقـــال النبي (ص) : « من قـرأ عشـــر آيـات في ليلة لم يكتب من الغـافلين ، ومن قرأ خمسين آيـة كتب من الذاكـرين ، ومن قرأ مـائة آيـة كتب من القانتين » الحديث .

٢ ـ دوام الكون على الوضوء فإنه نور ، والوضوء على الوضوء نـور على نور ، ولا يستغني السالك من ذلك .

٣ ـ تـرك فضـول الـطعـام ، كمـا ذكـرنـــاه من العـارف الـــواصـل الملكي (قده) .

٤ ـ ترك فضول الكلام فإن فضول الكلام يميت القلب ، كما في الرواية .

٥ ـ ذكر الله تعالى في كل حال قلباً ولساناً ، قال تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ** ﴾[1] .

قال الديلمي في (إرشاد القلوب) : روي عن النبي (ص) : ارتعوا في رياض الجنة ، فقالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : الذكر غدواً ورواحاً فاذكروا ، ومن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل الله العبد من نفسه ، ألا إن خير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها عند ربكم في درجاتكم ، وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله سبحانه وتعالى ، أخبر عن نفسه فقال : أنا جليس من ذكرني ، وأي منزلة أرفع من منزلة جليس الله تعالى .

قال بعض أهل العرفان : جاهد نفسك بأسياف الرياضة ، والرياضة على أربعة أوجه : الفوت من الطعام ، والغمض من المنام ، والحاجة من الكلام ، وحمل الأذى من الأنام ، فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ، ومن قلة المنام صفو الإرادات ، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات[2] .

ونختم كلامنا في المقام برواية شريفة وعدنا ذكرها في أوائل

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٠٥ .

(٢) شرح نهج البلاغة الخوئي ج ١٤ ص ١٩٤ .

البحث ، رواها المحدّث الجليل المجلسي .

قال العلامة المجلسي (ره) في البحار : وجدت بخط شيخنا البهائي (قده) ما هذا لفظه : قال الشيخ شمس الدين محمد بن مكي : نقلت من خط الشيخ أحمد الفراهاني (ره) عن عنوان البصري ، وكان شيخاً كبيراً قد أتى عليه أربع وتسعون سنة ، قال : كنت أختلف إلى مالك بن أنس سنين ، فلما قدم جعفر الصادق (ع) المدينة اختلفت إليه ، وأحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك ، فقال لي يوماً : إني رجل مطلوب ، ومع ذلك لي أوراد في كل ساعة من آناء الليل والنهار ، فلا تشغلني عن وردي ، وخذ عن مالك واختلف إليه كما كنت تختلف إليه ، فاغتممت من ذلك ، وخرجت من عنده وقلت في نفسي : لو تفرّس فيّ خيراً لما زجرني عن الاختلاف إليه والأخذ عنه ، فدخلت مسجد رسول الله (ص) وسلمت عليه ، ثم رجعت من الغد إلى الروضة وصليت فيها ركعتين ، وقلت : أسألك يا الله يا الله أن تعطف عليّ قلب جعفر ، وترزقني من علمه ما أهتدي به إلى صراطك المستقيم ، ورجعت إلى داري مغتمّاً ولم أختلف إلى مالك بن أنس لما أشرب قلبي من حب جعفر . فما خرجت من داري إلا إلى الصلاة المكتوبة حتى عيل صبري ، فلما ضاق صدري تنعلت وترديت وقصدت جعفراً ، وكان بعد ما صليت العصر ، فلما حضرت باب داره استأذنت عليه ، فخرج خادم له فقال : ما حاجتك ؟ فقلت : السلام على الشريف ، فقال : هو قائم في مصلاّه . فجلست بحذاء بابه ، فما لبثت إلا يسيراً إذ خرج خادم فقال : ادخل على بركة الله . فدخلت وسلّمت عليه فرد السلام وقال : اجلس غفر الله لك . فجلست ، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال :

أبو من ؟ قلت أبو عبدالله . قال : ثبت الله كنيتك ووفقك يا أبا عبـدالله . ما مسألتـك ؟ فقلت في نفسي : لو لم يكن لي من زيـارته والتسليم غيـر هذا الدعاء لكان كثيـراً ، ثم رفع رأسـه ثم قال : مـا مسألتـك ؟ فقلت : سـألت الله أن يعـطف قلبـك علي ويـرزقني من علمـك ، وأرجـو أن الله تعالى أجابني في الشـريـف ما سـألته . فقـال : يا أبـا عبدالله ليس العلم بالتعليم ، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه . فـإن أردت العلم فاطلب أولاً في نفسـك حقيقة العبـودية ، واطلب العلم باستعماله ، واستفهم الله يفهمك .

قلت : يا شريف ، فقال : قل يا أبا عبدالله ، قلت : يا أبا عبدالله ما حقيقة العبودية ؟ قال : ثلاثة أشياء : أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوَّله الله ملكاً ، لأن العبيد لا يكون لهم ملك يرون المـال مال الله ، يضعـونه حيث أمرهم الله به ، ولا يدبر العبد لنفسه تـدبيراً ، وجملة اشتغـاله فيمـا أمره تعالى به ونهاه عنـه ، فإذا لم يـر العبد لنفسـه فيما خـوّله الله تعـالى ملكاً هـان عليـه الإنفاق فيمـا أمره الله تعـالى أن ينفق فيه ، وإذا فـوّض العبد تدبير نفسه على مدبّره هان عليه مصائب الدنيا . وإذا اشتغل العبـد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع النـاس ، فإذا أكرم الله العبـد بهذه الثـلاثة هـان عليه الـدنيا وإبليس والخلق ، ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخـراً ، ولا يطلب مـا عند النـاس عزاً وعلوّاً ، ولا يدع أيامه باطلاً ، فهذا أول درجة التقى .

وقـال الله تبـارك وتعـالى : ﴿ تِلْكَ الـدَّارُ الآخِـرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوَّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

---

(١) سورة القصص : الآية ٨٣ .

قلت : يا أبا عبدالله أوصني ، قال : أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيّتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى ، والله أسأل أن يوفّقك لاستعماله ثلاثة منها في رياضة النفس ، وثلاثة منها في الحلم ، وثلاثة منها في العلم فاحفظها ، وإياك والتهاون بها ، قال عنوان : ففرغت قلبي له ، فقال :

أما اللواتي في الرياضة : فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنه يورث الحماقة والبله ، ولا تأكل إلا عند الجوع ، وإذا أكلت فكل حلالاً وسم الله واذكر حديث رسول الله (ص) : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » .

وأما اللواتي في الحلم : فمن قال لك : إن قلت واحدة سمعت عشراً، فقل : إن قلتَ عشراً لم تسمع واحدة ، ومن شتمك فقل له : إن كنت صادقاً فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي ، وإن كنت كاذباً فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك ، ومن وعدك بالخناء فعده بالنصيحة والدعاء .

وأما اللواتي في العلم : فاسأل العلماء ما جهلت ، وإياك أن تسألهم تعنتاً وتجربة ، وإياك أن تعمل برأيك شيئاً ، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً ، واهرب من الفتيا هربك من الأسد ، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً .

قم عني يا أبا عبد الله فقد نصحت لك ، ولا تفسد علي وردي ؛ فإني امرؤ ضنين بنفسي ، والسلام على من اتّبع الهدى .

﴿ وقد خاب من دسّاها ﴾ :

الخيبة : الحرمان والخسران ، وأصل دسّىٰ : دسّس ولما أوجب

اجتماع الأمثال الثقل قلبت السين الأخيرة ياء ، كما يقال : تظنّىٰ في تظنّن قال في المنجد : دسّ الشيء تحت التراب وفيه : أدخله فيه وأخفاه .

أقول قد ظهر مما ذكرنا في معنى الآية ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ معنى هذه الآية ، وكما أن تطهير النفس من الرذائل يوجب الفلاح بجميع مراتبه وظهور آثار تجليات الجمال والجلال فيها ، كذلك من دساها أي أخفى فيها كمالاتها المستودعة فيها ومنع من ظهورها باتباع الشهوات والأهواء فقد خاب وخسر .

﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ :

الطغوى : مصدر بمعنى الطغيان ، وإنما عدلت منه إليه لأنه أشبه برؤوس الآيات . هذه الآية بيان وتقرير للخيبة التي لزمت ثمود نتيجة طغيانها وجرأتها على الله تعالى ، وفيه إشارة إلى ما ذكرنا سابقاً من أن العصيان إذا اشتد والمعاصي إذا كثرت غلبت الظلمة على القلب واسوّد وانطفأ نوره ، وإذا انطفأ نوره كذّب بآيات الله قال تعالى : **﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾**(١) .

﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ :

واسمه قتار بن سالف على ما في الروايات .

﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ : وهو صالح (ع) .

---

(١) سورة الروم : الآية ١٠ .

﴿ **ناقة الله** ﴾ : أي احذروا ناقة الله .

﴿ **وسقياها** ﴾ : ولا تتعرضوا لها ولا تمنعوها عن استقائها من الماء .

﴿ **فكذّبوه فعقروها** ﴾ : فكذبوا صالحاً وعقروا الناقة ، أي نحروها وقتلوها .

﴿ **فدمدم عليهم ربّهم بذنبهم** ﴾ أي أطبق عليهم العذاب بسبب ذنبهم .

﴿ **فسوّاها** ﴾ الضمير راجع إلى قبيلة ثمود ، أي سوّاها بالأرض .

﴿ **ولا يخاف عقباها** ﴾ الواو للاستئناف أو الحال من المنوي في « فسواها » الراجع إلى الله ، أي فسوّاها الله تعالى وهو غير خائف من الدمدمة وعواقبها كما يخاف سائر المعاقبين من الملوك والولاة .

الآيات تشير إلى قصة صالح وقومه كما أشير إليها في غير مورد من القرآن، وهي من أعجب قصصه، وهذا النبي من الأنبياء العظام وله عند الله شأن من الشأن كما يظهر من قصته ، وفي رواية أنه (ع) أحد ركبان يوم القيامة ، ولن يركب يومئذٍ إلا أربعة : رسول الله وعلي وفاطمة وصالح ، وكفاه بذلك شرفاً ومجداً .

روى العياشي عن أبيه عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (ع) قال : إن رسول الله سأل جبرئيل كيف كان مهلك قوم صالح ، فقال : يا محمد ، إن صالحاً بُعث إلى قومه وهو ابن ست عشرة سنة ! فلبث فيهم حتى عشرين ومائة سنة لا يجيبونه إلى خير ! وكان لهم سبعون صنماً يعبدونها من دون الله ، فلما رأى ذلك منهم قال : يا قوم إني بعثت إليكم وأنا ابن ست عشرة سنة ، وقد بلغت عشرين ومائة سنة وأنا أعرض عليكم أمرين إن شئتم فاسألوني حتى أسأل إلهي فيجيبكم فيما

تسألوني ، وإن شئتم سألت آلهتكم ، فإن أجابتني بالذي أسألها خرجت عنكم ، فقد شنئتكم وشنئتموني ، فقالوا : أنصفت . فاتّعدوا ليوم يخرجون فيه ، فخرجوا بأصنامهم إلى ظهرهم ، ثم قربوا طعامهم وشرابهم فأكلوا وشربوا ، فلما فرغوا دعوه فقالوا : يا صالح سل . فدعا صالح كبير أصنامهم . فقال : ما اسم هذا ؟ فأخبروه باسمه فناداه باسمه فلم يجب . فقالوا : ادع غيره فدعا كلها بأسمائها ، فلم يجبه واحد منها ، فقال يا قوم قد ترون ، دعوت أصنامكم فلم يجبني واحد منها ، فاسألوني حتى أدعو إلهي فيجيبكم الساعة . فأقبلوا على أصنامهم فقالوا لها : ما بالكن لا تجبن صالحاً ، فلم تجب . فقالوا: يا صالح تنح عنا ودعنا وأصنامنا . قال : فرموا بتلك البسط التي بسطوها وبتلك الآنية وتمرغوا في التراب وقالوا لها : لئن لم تجبن صالحاً اليوم لنفضحنّ . ثم دعوه فقالوا : يا صالح تعال فسلها ، فعاد فسألها فلم تجبه . فقال :يا قوم قد ذهب النهار ولا أرى آلهتكم تجيبني ، فاسألوني حتى أدعو إلهي فيجيبكم الساعة . فانتدب له سبعون رجلًا من كبرائهم ، فقالوا : يا صالح نحن نسألك . فقال : أكلّ هؤلاء يرضون بكم ؟ قالوا نعم ، فإن أجابك هؤلاء أجبناك قالوا:يا صالح نحن نسألك فإن أجابك ربّك اتبعناك وتابعك جميع قريتنا . فقال لهم صالح :سلوني ما شئتم فقالوا: انطلق بنا إلى هذا الجبل . فانطلق معهم فقالوا :سل ربك أن يخرج لنا الساعة من هذا الجبل ناقة حمراء شديدة الحمرة ، وبراء عشراء ـ يعني حاملاً ـ بين جنبيها مَيَل . فقال : سألتموني شيئاً يعظم عليّ ويهون على ربي ، فسأل الله ذلك . فانصدع الجبل صدعاً كادت تطير منه العقول لما سمعو صوته ، واضطرب الجبل كما تضطرب المرأة عند المخاض ، ثم لم

يفجأهم إلا ورأسها قد طلع عليهم من ذلك الصدع ، فما استتمت رقبتها حتى اجترت ثم خرج ساير جسدها ، فاستوت على الأرض قائمة فلما رأوا ذلك ، قالوا : يا صالح ما أسرع ما أجابك ربك ، فاسأله أن يخرج لنا فصيلها ، فسأل الله ذلك ، فرمت به فدبّ حولها . فقال : يا قوم أبقي شيء ؟ قالوا لا . فانطلق بنا إلى قومنا نخبرهم ما رأيناه ويؤمنوا بك ، فرجعوا فلم يبلغ السبعون رجلاً إليهم حتى ارتد منهم أربعة وستون رجلاً وقالوا : سحر ، وثبت الستة وقالوا : الحق ما رأيناه ، ثم ارتاب من الستة واحد فكان فيمن عقرها .

وزاد محمد بن أبي نصر في حديثه : قال سعيد بن يزيد فأخبرني أنه رأى الجبل الذي خرجت منه بالشام ، فرأى جنبها قد حك الجبل فأثر جنبها فيه ، وجبل آخر بينه وبين هذا ميل .

(وفي تفسير علي بن إبراهيم) : صالح قال لهم : لهذه الناقة شراب أي تشرب ماءكم يوماً ـ وتدر لبنها عليكم يوماً ، فكانت تشرب ماءهم يوماً ، وإذا كان من الغد وقفت وسط قريتهم ، فلا يبقى في القرية أحد إلا حلب منها حاجته ، وكان فيهم تسعة من رؤسائهم يفسدون في الأرض ، فعقروا الناقة وقتلوها وقتلوا فصيلها ، فلما عقروا الناقة قالوا لصالح : ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال صالح : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ . وعلامة هلاككم أنه تصفرّ وجوهكم غداً وتحمرّ بعد غد وتسودّ يوم الثالث ، فلما كان من الغد نظروا إلى وجوههم قد اصفرت ، فلما كان اليوم الثاني احمرت مثل الدم ، فلما كان الثالث اسودت وجوههم ، فبعث الله عليهم صيحة جبرئيل صاح بهم صيحة تقطعت بها قلوبهم وخرقت منها أسماعهم ، فماتوا أجمعين في طرفة

عين ، ثم أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقتهم .

(قال) الحسن بن محبوب : حدثني رجل من أصحابنا يقال له سعيد بن زيد في حديث طويل قال فيه : وكانت مواشيهم تنفر منها لعظمها ، فهمّوا بقتلها ، قالوا : وكانت امرأة جميلة يقال لها (صدوب) ذات مال وبقر وغنم ، وكانت أشدّ الناس عداوة لصالح ، فدعت رجلاً من ثمود يقال له (مصدع) ، وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة ، وامرأة أخرى يقال لها (عنيزة) ، دعت قدار بن سالف ، وكان أحمر أزرق قصيراً وكان ولد زنا ، ولم يكن لأبيه ، ولكنه ولد على فراشه ، قالت : أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة ، فانطلق قدار ومصدع فاستغويا غواة ثمود فاتبعهما سبعة نفر وأجمعوا على عقر الناقة . وكان لما ولد قدار وكبر جلس مع أناس يصيبون من الشراب ، فأرادوا ماء يمزجون به شرابهم ، وكان ذلك اليوم يوم شرب الناقة ، فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم ، فقال قدار : هل لكم في أن أعقرها لكم ؟ قالوا نعم .

ومما ذكرنا يظهر وجه تشبيه قاتل علي (ع) بعاقر الناقة كما في الرواية عن النبي (ص) أنه قال لعلي (ع) : « أشقى الأولين والآخرين من عقر ناقة صالح ومن ضربك يا علي على قرنك حتى تخضب من دم رأسك لحيتك » . فيحتمل أن يكون المذكور في الرواية على سبيل اللف والنشر ، بمعنى أن من عقر ناقة صالح فهو أشقى الأولين ، ومن ضرب على قرن علي فهو أشقى الآخرين ، لا أن كليهما أشقى الأولين والآخرين .

ويؤيد هذا المعنى ما في التأويلات للمولى عبد الرزاق أنه (ص)

قال : « يا علي أتدري من أشقى الأولين ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال (ص) : عاقر ناقة صالح . ثم قال : أتدري من أشقى الآخرين ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال (ص) : قاتلك » .

وروي أنه قال (ص) : « من خضب هذه بهذا » . وأشار بيده (ص) إلى لحيته ورأسه (ع) .

وأما وجه التشبيه فقد قال المحدث الجزائري (قد) : إنه قد تواتر عنه (أي النبي (ص)) تشبيه قاتله (ع) بعاقر الناقة وقد صنف بعض المتأخرين رسالة في وجه هذا التشبيه وأطال في بيان وجوه المناسبة ، ومن أمعن النظر فيه يظهر له شدة انطباقه عليه ، وذلك أن علياً (ع) كان آية لله تعالى أظهرها على يدي رسول الله (ص) ، كما قال (ع) : « وأي آية أعظم مني » .

وأما ولادته فكانت في الكعبة التي هي صخرة بيت الله كما خرجت الناقة من الصخرة ، ولم يتفق ذلك لنبي أو وصي نبي ، وكان (ع) يمير الناس العلوم والحكم كما كانت الناقة تميرهم السقيا .

وأما سبب شهادته (ع) فكانت قطام عليها لعنة الله ، كما كان السبب في عقر الناقة الملعونة الزرقاء ، وبعد أن استشهد (ع) عمدوا إلى ولده الحسين (ع) وقتلوه كما قتل أولئك فصيل الناقة إلى غير ذلك من وجوه المناسبة بين قران قاتله مع عاقر الناقة والمشابهة بينهما .

وفي الختام ينبغي التوجه إلى كيفية الأقسام في هذه السورة . فقد قدّم في القسم النور على الظلمة والسماء على الأرض ، وهذا الترتيب يناسب جواب القسم ، فقد بيّن العلاج أولاً والخيبة والخسران ثانياً فيه ،

ويناسب هذا الترتيب مضمون السورة ومحتواها أيضاً ، فإن القسم الأول منها لبيان آيات قدرته وحكمته ، وآثار لطفه ورأفته للمخلوقات عامة وللإنسان خاصة ، وهذا يناسب النور ، والقسم الأخير منها لبيان التكذيب والطغيان ، وشقاوة الآدمي وتمرده عن أمر الله وأمر رسوله ، وابتلائه بالعذاب والدمار ، وهذا كله يناسب الظلمة .



سورة الليـــل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَاللَّيْــلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَـارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَــا خَلَقَ الــذَّكَــرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّــرُهُ لِلْيُسْــرىٰ * وَأَمَّــا مَنْ بَخِـلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَــذَّبَ بِـالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرىٰ * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولىٰ * فَـأَنْذَرْتُكُمْ نَـاراً تَلَظَّىٰ * لَا يَصْـلَاهَـا إِلَّا الْأَشْقَىٰ * الَّـذِي كَـذَّبَ وَتَـوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَـا الْأَتْقَىٰ * الَّـذِي يُؤْتِي مَـالَـهُ يَتَـزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجـزْىٰ * إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْـهِ رَبِّهِ الْأَعْلىٰ * وَلَسَـوْفَ يَرْضَىٰ ﴾

صدق الله العلي العظيم

قبل الشروع في تفسير الآيات لا بأس بالتنبيه على نكتة ، وهي أن كلمتي يغشىٰ وتجلّى جيء بهمـا بصيغتين مختلفتين : الأولى بـالمضـارع والثـانية بـالماضي ، وقـد وقع نـظير ذلـك في السـورة التي قبلهـا سـورة والشمس وقـال تعالى : ﴿ وَالنَّهَـارِ إِذَا جَلَّاهَـا * واللَّيْـلِ إِذَا يَغْشَـاهَـا ﴾ بـاختـلاف الفعلين وقيـل : الـوجـه في ذلـك في سـورة الشمس رعـايـة

الفواصل ، ولكن ذلك الوجه لا يأتي في هذه السورة كما هو ظاهر فلا بد من نكتة أخرى في المقام .

قال الطباطبائي (قده) **في ذلك ليكون فيه إيماء إلى غشيان الفجور الأرض في الزمن الحاضر الذي هو أوائل ظهور الدعوة الإسلامية لما تقدم أن بين هذه الأقسام وبين المقسم بها نوع اتصال وارتباط** . انتهى .

وهذا وجه حسن، وأحسن منه ما قاله بعض المفسرين المعاصرين **من أن الله سبحانه أراد بهذا التعبير أن يعلمنا بأن فطرة البشر فطرت على الخير والطهارة والنور وفطرة الإنسان فطرت بنور الإيمان وهو مودع فيه ، وأما الظلمة والكفر وفساد الأخلاق فأمر عارضي يعرض الفطرة تالياً .**
وهذا الوجه بعينه ما روي في الحديث النبوي المشهور: أن كل مولود يولد **على الفطرة ولكن أبويه ينصّرانه أو يهوّدانه أو يمجّسانه .**

ثم إن في السورتين نكتة أخرى وهي أن المتقدم في « الشمس » هو النهار والمتأخر هو الليل . وفي هذه السورة بالعكس ، ولعل السر في ذلك أن المقسم به في سورة والشمس فلاح من زكّى نفسه وخيبة من دسّاها ، وهو يناسب تقدم النور على الظلمة في القسم ، وأما في هذه السورة فالمقسم به سعي الناس في أمورهم واختلافهم في المسالك والمقاصد ، ولا ريب أن الأكثر في هذا المجال الفجّار والفسقة والجاهلون ، وقد صرح القرآن في غير مورد بأن أكثر الناس لا يعلمون ، وأن أكثرهم الفاسقون وغير ذلك وأن الصلحاء والأخيار قليلون ، فالأنسب أن يقدم القسم بالظلمة على القسم بالنور .

وأما تفسير الآيات :

قال في كشف الأسرار ما ترجمته : « أقسم الله سبحانه بالليل في قرآنه وشرّفه بهذا الشرف وقال : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ لأن الليل إذا أرخى سدوله فهو ميقات أولياء الله وأحبائه وخواص جناب الملك وميعاد مناجاتهم مع محبوبهم ، يقومون له بأقدامهم ويناجونه بقلوبهم ، ويسارّونه بأرواحهم ويشربون شراب الصفا طول ليلهم ، ويلبسون خلعة الرضا من محبوبهم ، فإذا حان وقت السحر يأتي الأمر من الملك القدوس إلى الملائكة أن يفتحوا لهم أبواب هذه القبة الفيروزج ، ويرخوا سدول سرادقات العرش المجيد ، ويأمر الحق جلّ جلاله مقرّبي الحضرة أن يسكتوا ، ثم يجيء الخطاب من العزيز الجبار وهو في المقام الأعلى من كبريائه : ألا قد خلا كل حبيب بحبيبه فأين أحبائي ؟

الليل داج والعصاة نيام   والعابدون لذي الجلال قيام »

انتهى .

وقال أمير المؤمنين (ع) في شأنهم : « أما الليل فصافّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلاً ، فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلّعت إليها أنفسهم شوقاً وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم . . » إلى آخر ما قال (ع) .

إن كثيراً من الرحمات والبركات الإلهية تنزل في الليل ، لأن القلب ـ وهو منزل البركات ومهبطها ـ مشغول في النهار بالأشغال والمهمات ، وإنما يفرغ في الليل ، وتكون له الفرصة للمناجاة مع حبيبه والاستفاضة من فيضه الخاص ، فلذلك نرى أن قسماً مهماً من

الفيوضات المعنوية ـ على ما ينطق به القرآن ـ كان في الليل ، منها نزول القرآن . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾[1] ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾[2] وعروج الإنسان الكامل كان في الليل : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. ﴾[3] وضيافة الله سبحانه كليمه (ع) كانت في الليل : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. ﴾[4] ولذّة المناجاة مع الله والعبادة له في الليل أكثر منها في النهار ، ولعل هذا محسوس لأكثر الناس على اختلاف مراتبهم في هذا الإدراك ، وللإمام أبي محمد العسكري (ع) كلام وهو من غرر الكلمات ، قال (ع) : « إن الوصول إلى الله عز وجل سَفَر لا يدرك إلاّ بامتطاء الليل » .

ونعم ما قيل :

لله قوم إذا ما الليل جنّهمُ	قاموا من الفرش للرحمن عبّادا
ويركبون مطايا لا تملّهمُ	إذا همُ بمنادي الصبح قد نادى
هم إذا ما بياض الصبح لاح لهم	قالوا من الشوق ليت الليل قد عادا

وروي أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصدّيقين : إن لي عباداً من عبادي يحبونني فأحبهم ، ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم ، ويذكرونني وأذكرهم ، وينظرون إلي وأنظر إليهم ، وإن حذوت طريقهم أحببتك ،

(١) سورة الدخان : الآية ٣ .
(٢) سورة القدر : الآية ١ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ١ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ١٤٢ .

وإن عدلت عنهم مقتّك . قال : يا رب ما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه ، ويحنّون إلى غروب الشمس كما يحن الطير إلى وكره عند الغروب ، فإذا جنّهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلي أقدامهم وافترشوا إلي وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إليّ بإنعامي ، فبين صارخ وباك ومتأوّه وشاك ، وبين قاعد وقائم وراكع وساجد ، بعيني ما يتحملون من أجلي ، وبسمعي ما يشتكون من حبّي ، أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف في قلوبهم من نوري فيخبرون عني كما أخبر عنهم ، والثانية : لو كانت السماوات والأرض وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم ، والثالثة : أقبل بوجهي عليهم فترى من أقبلت بوجهي عليه لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه .

قال ابن الفارض :

روحي لك يا زائري الليل فدا   يا مؤنس وحشتي إذا الليل هدا
إن كان فراقنا مع الصبح بدا   لا أسفر بعد ذاك صبح أبدا

ولهذا الكلام ذيل طويل .

قال تعالى :

﴿ والليل إذا يغشىٰ * والنهار إذا تجلّىٰ * وما خلق الذكر والأنثى ﴾ :

كما أن الليل والنهار آيتان من آيات الله ، وحدوث الحياة الحيوانية والنباتية وبقاؤهما مرتبطان بهما ، كذلك الحدوث والبقاء في الإنسان والحيوان وفي النبات أيضاً نتيجة خلق الله سبحانه الذكر والأنثى ، وكل

عقل سليم ، والفكر المستقيم والفطرة السالمة تحكم بأن الليل والنهار وولوج أحدهما في الآخر على نظم دقيق والمنافع المترتبة عليه وهكذا كيفية التوليد في الحيوانات على اختلاف أنواعها والتلقيح في النباتات كل ذلك يدل على وجود الخالق العليم الحكيم ، ولهذا كرر ذكرها في القرآن المجيد في الآيات المتعددة .

﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ :

شتىٰ : جمع شتيت بمعنى المتفرق كمرضى جمع مريض ، وكون سعي الناس شتىٰ أمر بديهي يعلمه كل أحد ولا يحتاج إلى أن الله سبحانه يقسم لذلك ، ولكن بعد التأمل في التوضيحات التي أعطاها الله سبحانه يتبين أن مورد التوجّه ليس تفرع الأعمال من حيث هو ، بل بما أن بعضها ضلال وشقاء ، وبعضها نور وهداية ، ونتيجة بعض الأعمال الجنة والنعمة الأبدية والسعادة الدائمة ، ونتيجة بعضها الآخر النار والعذاب الأليم والشقاوة الأبدية ، فتشتت الأعمال إنما هو من جهة الأوصاف والنتائج ، وحيث إن الكفار لا يقولون بحساب ولا كتاب ولا هداية ولا ضلالة ، ولا يعتقدون بثواب وعقاب وجنة ونار فالله سبحانه يؤكد بالقسم و﴿ إن ﴾ ولام التأكيد أن هذه النتائج حقائق ثابتة غير منفكة عن الأعمال . وتوضيح هذا الإجمال قوله تعالى :

﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدّق بالحسنى * فسنيسّره لليسرى ﴾ :

فإنها تفصيل لتشتت مساعيهم واختلاف آثارها .

وقال الطباطبائي (قده) : إن المراد بالإعطاء إنفاق المال لوجه الله

بقرينة مقابلته للبخل الظاهر في الإمساك عن إنفاق المال ، وقوله بعد : ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردّى ﴾انتهى .

أقول : حذف متعلق الإعطاء في الآية يعطي معنى أعمّ وأشمل من إنفاق المال لوجه الله ، وذلك لأن نفس الإعطاء أمر مستحسن ومرغب فيه سواء أكان إعطاءً مالياً أو إعطاء علمياً أو إعطاء من الجاه ، كما ورد في قضاء حوائج الإخوان أنه زكاة الجاه أو إعطاء من قواه الجسمية ، كالذي يعين أخاه ويساعده في حمل حمولته فإنه أيضاً إعطاء ، ولذلك ورد في الرواية كما في « المجمع » عن الباقر (ع) في هذه الآية أنه قال : « أي أعطى مما أعطاه الله » .

وعلى هذا تكون الآية في سياق الآيات التي تحثّ على الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس ، وتشمل الإنفاقات الواجبة والمندوبة وكل سعي في حاجة مخلوق من خلق الله . فبهذا يظهر أن قرينة المقابلة التي ذكرها الطباطبائي لا توجب تخصيص الإعطاء بالمال ، لأن نفس هذا الشمول موجود في البخل أيضاً ، فإن متعلقه محذوف أيضاً فيعمّ البخل المالي والعلمي والجسمي وغير ذلك ، كما أن الكلام جار في استشهاده (قده) بالآية : ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردىٰ ﴾ ، فإن المال على ما في المنجد ما ملكته من جميع الأشياء ، وهذا كما ترى ليس مختصاً بالنقود والضياع والمواشي وأمثالها بل يعم المستملكات المادية وغيرها .

﴿ وصدّق بالحسنى ﴾ :

الحسنى مؤنث أحسن ، والتصديق بها إما تقليدي : بأن يستمع من صادقٍ ويصدّقه ، أو تحقيقي : بأن يجد في نفسه نموذجاً مما سمع ،

والحسنى كما قال الطباطبائي : « صفة قائمة مقام الموصوف » وقال : الظاهر أن التقدير بالعدة الحسنى وهي ما وعد الله من الثواب على الإنفاق لوجهه الكريم ، وقيل : صدق بالحسنى أي بلا إله إلا الله . وقال مجاهد : أي بالخلف ، واستدل على ذلك بما روى أبو الدرداء قال : قال رسول الله (ص) : « ما من يوم غربت شمسه إلا وبجنبيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً » .

وقيل : هي الملة الحسنى وهي ملة الإسلام ، أو المثوبة الحسنى وهي الجنة ، وغير ذلك .

ولكن كما ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ فأما من أعطىٰ ﴾ من إفادة حذف المتعلق العموم فهنا أيضاً حيث لم يذكر الموصوف فتشمل الحسنى كل شيء يكون أحسن في نوعه وما ذكر من الكلمة والملة والجنة وغيرها يكون من مصاديقها .

﴿ فسنيسّره لليسرى ﴾ :

معنى التيسير التهيئة والإعداد ، لا ما يقابل التعسير حتى يقال إن التيسير في قوله تعالى : ﴿ فسنيسّره للعسرى ﴾ استعملت للمشاكلة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها . . ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ . . فبشّرهم بعذاب أليم ﴾ يقال : يسّر الفرس للركوب إذا أسرجها وألجمها ، ومنه قوله : « كلٌّ ميسّرٌ لما خلق له » كذا قيل .

ولكن الظاهر أن التيسير في مقابل التعسير وما ذكر من الأمثلة تأييد

(١) سورة الشورى : الآية ٤٠ .

لكونه بمعنى التهيئة لا يدل على ذلك كما هو ظاهـر ، فإن إسـراج الفرس وإلجامها تيسير للركوب بالمعنى المقابـل للتعسير ، وهكـذا قولـه : « كل ميسّر لما خلق لـه » فيكون معنى فسنيسّـره لليسرى أي نسهّـل له التـوفيق للخصلة التي فيها يسر من غير عسر .

﴿ وأما من بخل واستغنى * وكذّب بالحسنى ﴾ :

البخل : حالة نفسية تمنـع صاحبهـا عن الإعطاء ممـا أعطاه الله ، وترغّبه في الإمساك .

والاستغناء : أن يرى الإنسـان نفسه غنيّـة عما عنـد الله من الثواب ويكتفي بما عنده من اللذات العاجلة والشهوات الدنيوية ، ويستتبع ذلـك التكذيب بالعدة الحسنى والمثوبات التي بلّغها أنبياء الله ورسله .

﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ :

أي نهيّئه للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة ، في الـدنيا كـالعيش الضنـك لإعراضـه عن ذكر الله ، أو في الآخـرة كـدخـول النـار وعـذاب الآخرة ، وقد قوبلت في الآيات الشـريفة ثـلاث خصال رذيلة بثـلاث من الفضيلة في الآيتين السـابقتين وهي : البخـل في مقـابـل الإعــطاء ، والاستغناء في مقابل التقوى ، وتكـذيب الحسنى في مقابـل تصديقهـا . والأمـر في البخل كمـا ذكرنـاه في الإعـطاء ، من إعـطاء حـذف المتعلق العموم والشمول ، فيشمـل ما قيـل أو يمكن أن يقال في تفسيـرها أن من بخل في نفسه بـالطاعـة والعبادة الـروحية والسـرية والقلبيـة واستغنى عن الإقبال على الله سبحانه وكذب بـالحسنى التي أعطينـاها إيـاه من سلامـة الأعضاء والجوارح والإفاضات المعنـوية فسنيسّـره للعسرى ، وهي البعـد

عن الله والطرد عن جنابه المقدس ودخول نار الحجاب .

وقال الشيخ عبد الرزاق الكاشاني : فأما من أعطى واتقى ـ أي آثر الترك والتجريد فرفض ما يشغله عن الحق ، وتركه بالسهولة ، واتقى عن هيات النفس فجردها عن الميل إلى ما رفض والالتفات نحوه ، وصدّق بالفضيلة الحسنى التي هي مرتبة الكمال بالإيمان العلمي ـ إذ لو لم يتيقن بوجود كمال كامل لم يمكنه الترقي فسنيسّره لليسرى ، أي : فسنهيئه ونوفقه للطريقة اليسرى التي هي السلوك في الله بقطع علائقه وقوة يقينه .

وأما من بخل واستغنى وآثر محبة المال وجمعه ومنعه ، واستغنى به عن كسب الفضيلة لاحتجابه به عن الحق ، وكذب بالحسنى بوجود مرتبة الكمال والفضيلة لاستغنائه بالحياة الدنيا واحتجابه بها عن عالم النور والآخرة ، فسنيسّره للعسرى ، فسنهيئه بالخذلان للطريقة العسرى التي هي الانحطاط عن رتبة الفطرة إلى قعر الطبيعة ودركات أسفل السافلين مع الحشرات والديدان ، والحيلولة بينه وبين شهواته بالحرمان .

ولبعض المفسرين المعاصرين تحقيق في معنى هذه الآيات لا بأس بذكره قال :

ما اتفق عليه المفسرون على اختلافهم في التوجيه والتعبير أن المقصود من اليسرى العمل الخيّر ومن العسرى العمل الشرّ ، ولأجل تفهم هذا المعنى من هذين اللفظين اضطروا أن يقدّروا ألفاظاً نظير الخصلة والطريقة والكلمة وغيرها كما ذكرنا ، ولكن يمكن أن يراد من

اللفظين الخير والشرّ من دون حاجة إلى تقدير؛ وتوضيح ذلك أن من لمعمول به في لسان العرب أنهم يستعملون الألفاظ في غير معانيها لأصلية وحتى في أضدادها تفاؤلاً ، لأن التفاؤل ومقابله التطيّر كانا كثيري التداول بينهم ، وكانوا يعتقدون بذلك ، وقد نهي عن التطير في الإسلام دون التفاؤل ، فمثلاً كانوا يسمّون مواليدهم ـ مضافاً على تسميتهم بالاسم الأصلي ـ باسم مصدر بأب في الذكر وأم في الأنثى يعبرون عنه بالكنية تفاؤلاً بها كأبي القاسم وأبي الحسن أو أم كلثوم وأم سلمة فيتفاءلون بذلك أن المولود سيشب ويتزوج ويكون له أبناء : ابن باسم الحسن أو ابنة باسم كلثوم ، وهكذا يسمّون من لدغته الحية : بالسليم والصحراء بالمفازة والمطر بالرجع وذلك تفاؤلاً بأن الملذوع سينجو من ألم السم ويسلم ، والمسافر سيفوز من الصحراء، والمطر يرجع . قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾[1] .

وبعبارة أخرى : هذا اللحاظ يكون مأخوذاً في وضع هذه الألفاظ ، والظاهر أن هذا النحو من الاستعمال جار في القرآن والحديث أيضاً مطابقاً للأهداف الدينية ، بمعنى أن القرآن والحديث يعبران عن الأشياء بأسماء وأوصاف مخصوصة غير ما وضع لها لغة وعرفاً ، ليفهم بذلك المسلمين بأن المتوقع منهم تلك الأوصاف المخصوصة ، فتكون الأسماء بأنفسها مرشدة لهم إلى المعاني التي تليق بهم كمسلمين . فمثلاً : أطلق الخير في القرآن على المال والثروة . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[2] مع أن الآية في مقام ذم حبّ المال ، ومعنى ذلك أن

---

(١) سورة الطارق : الآية ١١ .

(٢) سورة العاديات : الآية ٨ .

يعلم المسلمون ذوو الثروة أن المال لا بد وأن يكون منشأ للخير والأعمال الخيرية ، ولا يكون موجباً للشر والأعمال السيئة ، وقال مولانا أمير المؤمنين (ع) في كتابه إلى مالك عند ذكره أصناف الناس : «فمنها جنود الله ومنها قضاة العدل ومنها عمال الإنصاف والرفق». فيعبر (عليه السلام) بهذا التعبير لإفادة أن جند الإسلام لا بد أن يكونوا جند الله وقضاته قضاة العدل ، وعماله عمال الإنصاف والرفق ، وإلا فالقاعدة في تصنيف الناس تقتضي أن يقول : منهم جنود ومنهم قضاة ومنهم عمال .

ومن المحتمل جداً أن يكون اصطلاح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضاً من هذا القبيل ، قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ . . ﴾[1] فالقرآن يعلّم المسلمين بأن أعمال الخير تلزم أن تكون أمراً معروفاً عند المسلمين ورائجاً بينهم يعرفه كل مسلم ؛ والأعمال الشريرة على خلاف ذلك لا بد أن تكون أجنبية غير معروفة وغير رائجة بين المسلمين ، ومن هذا القبيل الآيات التي في مورد البحث فإنه عبّر فيها عن الشرّ بالعسرى وعن الخير باليسرى لتعليم نكتة أن المتوقع من المسلم أن تكون الخيرات والحسنات في نظره من أيسر الأمور ، كما أن الشرور والمعاصي تكون عنده من أعسرها . وقد حقق اليوم عند علماء علم النفس أن التعب ليس معلولاً لكثرة العمل أو شدّته بل الموجب للتعب هو عدم الحب والشوق في العمل ، فإذا كان العمل ناشئاً من الحب المفرط فلا يتعب الإنسان مهما كان العمل كثيراً وشديداً ، بل يكون عنده من أيسر الأمور ، فالمسلم الحقيقي يأتي بوظائفه الدينية نتيجة إيمانه بالله واقتضاء ثوابه

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

ومرضاته وثواب الآخرة بأيسر ما يتصور ، في حال أن تلك الوظائف من أشقّ الأعمال لغير المؤمنين وغير المعتقدين : ﴿ **وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾[1] .

فعلى هذا المبنى الأسماء التفاؤلية مضافاً إلى أنها تفاؤل لمستقبل المسلمين ومجتمعهم تكون معلّمة ومرشدة لهم أيضاً وتُعيّن وظيفتهم . فالدقة في الآيات الشريفة على قصرها تعطي أنها تشتمل على توضيح جميع الفضائل والرذائل ، ثم لا يخفى أن في تقديم الإعطاء على التقوى وتصديق الحسنى وتقديم البخل على الاستغناء وتكذيب الحسنى إشارة إلى أن كلاًّ منهما أصيل فيما ذكر لا تتمة لما بعدها من التصديق والتقوى والتكذيب والاستغناء ، كما أنه كان من الممكن أن يتوهم ذلك لو أخرتا ، فالسخاء والبخل صفتان مستقلتان قد ركز الشارع عليهما مدحاً وذماً ، ويكفي في مدح السخاء وذم البخل ما ورد عن الرضا (ع) قال : « السخاء شجرة من الجنة من تعلق بغصن من أغصانها دخل الجنة » .

وفي رواية أخرى : « والبخل شجرة في النار من تعلق بغصن من أغصانها دخل النار » .

وما ورد من أن البخل جامع مساوىء العيوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء وورد أن البخل أذمّ الأخلاق وغير ذلك من الروايات الكثيرة .

﴿ **وما يغني عنه ماله إذا تردّى** ﴾ :

ما : إمّا نافية فالمفعول محذوف أي لا يغني ماله عنه شيئاً من العذاب ، كما في قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ** ﴾[2] أو أنها

(١) سورة البقرة : الآية ٤٥ .

(٢) سورة الشعراء : الآية ٨٨ .

استفهامية ، أي : أيّ شيء يغني عنه ماله الذي بخل به ؟ والاستفهام للإنكار .

إذا تردى : قال الراغب : الردىٰ : الهلاك ، والتردي : التعرض للهلاك . انتهى .

أو أنها مبالغة في الهلاك ، فإنها تفعّل من الردى ، وكثرة المباني تدل على كثرة المعاني . أو الردىٰ : بمعنى السقوط ، تردى في البئر : سقط . فالمال الذي يبخل به صاحبه لا يغني عنه شيئاً يوم سقوطه في القبر أو يوم سقوطه في جهنم . نعم ، لو استفاد منه ببذله للفقراء وأخرج منه حقوقهم وقدمه ليوم فاقته فينفعه لا محالة .

ولذلك قال علي (ع) في وصيّته لابنه : « وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه فاغتنمه وحمّله إياه ، وأكثر من تزويده وأنت قادر عليه ، فلعلك تطلبه فلا تجده ،واغتنم من استقرضك في حال غناك ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك . » .

﴿ إنّ علينا للهدى ﴾ :

لو كانت الهداية في الآية بمعنى إراءة الطريق فربطها بما قبلها بأن نقول : إن شتات سعي الناس واختلافهم في المسلك على حسب اختيارهم ذلك،فمن أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فبحسن اختياره،ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى فأيضاً بسوء اختياره ، وليس لأحد على الله سبحانه إلا الهداية وإراءة الطريق ، وقد فعل : ﴿ إنّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ

إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾[1] . فليس لأحد على الله حجة ، ولو كانت الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب فالمطلوب في المقام هو الوصول إلى نتائج الأعمال الصالحة ، ومن الواضح أنه من فعل الله تعالى ويختص به تعالى ، كما قال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] ويناسب هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ فسنيسّره لليسرى ﴾ إشارة إلى نتائج الأعمال الصالحة ، وأما التيسير للعسرى فهو كما قال الطباطبائي مما يتوقف عليه التيسير لليسرى : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ . . ﴾[3] .

﴿ وإنّ لنا للآخرة والأولى ﴾ :

اللام في لنا : للملكية ، أي : إن عالمَي المعاد والبدء وجميع ما في الوجود ملك لله تعالى ملكية حقيقية قيومية .

قال الإمام الخميني دام ظله : « اعلم أن مالكية الحق تعالى ليست كمالكية العباد وملوكاتهم ، ولا كمالكية السلاطين ممالكهم لأنها إضافات اعتبارية ، وليست إضافة الحق إلى الخلق من هذا القبيل ، وإن كان هذا النحو من المالكية ثابتاً للحق تعالى طولاً عند علماء الفقه ، وهو لا ينافي ما هو ملحوظ ومذكور في هذا النظر ، وليست من قبيل مالكية الإنسان أعضاءه وجوارحه ، وليست أيضاً من قبيل مالكيته قواه

(١) سورة الإنسان (الدهر) : الآية ٣ .

(٢) سورة النحل : الآية ٩٧ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٣٧ .

الظاهرة والباطنية ، وإن كانت هذه المالكية أقرب إلى مالكيته تعالى من سائر أنواع المالكية المذكورة سابقاً ، وليست من قبيل مالكية النفس لأفعالها الذاتية التي هي من شؤون النفس ، كإيجاد الصور الذهنية التي يكون قبضها وبسطها إلى حد تحت إرادة النفس أيضاً ، وليست أيضاً من قبيل مالكية العوالم العقلية ما دونها . . إلى أن يقول دام ظله :

وأما مالكية الحق تعالى التي هي بالإضافة الإشراقية والإحاطة القيّوميّة مالكية ذاتية حقيقية حقة ، بحيث ليست فيها شائبة البينونة العزلية بوجه من الوجوه في ذاته وصفاته لموجود من الموجودات ، وإن مالكية الذات المقدسة بجميع العوالم على السواء من دون أن يتفاوت بوجه لموجود من الموجودات ، أو أن تكون إحاطته بعوالم الغيب والمجردات أكثر أو أقرب من العوالم الآخرة ، لأنه يستلزم المحدودية والبينونة العزلية ، ويلازم الافتقار والإمكان ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » انتهى .

فكل شيء هو مملوك لله تعالى بحقيقة الملك ، فيعطي من الدنيا والآخرة ما يشاء لمن يريد : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً * كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾[1] .

﴿ فأنذرتكم ناراً تلظّى ﴾ :

أصل تلظىٰ : تتلظى ، فحذفت إحدى التاءين ، ولو كان ماضياً

---

(١) سورة الإسراء الآيات : ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ .

لقيل تلظت لأن النار مؤنث ، مضافاً إلى أن المراد هو استمرار التلظّي ، **فأنذرتكم ناراً تلظى** أي : خوّفتكم بالقرآن وما نزل قبل هذه السورة من آيات التخويف ، كقوله تعالى في سورة المدّثّر : ﴿ **سَأُصْلِيهِ سَقَر * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَر * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** ﴾[1] ويحتمل أن تكون الآية في مقام إنشاء الإنذار ، كقولنا بعت وأنكحت ، فيكون الإنذار بنفس هذه الآية .

﴿ لا يصلاها إلاّ الأشقى . الذي كذّب وتولى ﴾ :

قال في المنجد : صلى فلاناً النار أدخله إياها وأثواه فيها ، ولعله يستفاد من هذا المعنى ، أي جعل النار مثوى لمن أدخلها الخلود ، لينـدفع ماقيل من أن الآية تنفي عذاب النار عن فسّاق المؤمنين ، بمقتضى الحصر الموجود فيها ؛ ووجه الاندفاع أن الآية على ما ذكر من المعنى إنما تنفي الخلود عن فسّاق المؤمنين ، لا أصل الدخول في النار ، ولعله يؤيد هذا التفسير بقوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاّ وَارِدُهَا** ﴾[2] الآية . وربما يستفاد شمول الحصر للكفار فقط من كلمة الأشقى ، فإن للشقاوة مراتب دنيوية وأخروية ، وأشدها هي الشقاوة الأخروية ، الأبدية التي لا مطمع لصاحبها في التخلص منها ، وهو الكافر المخلّد في العذاب .

---

(١) سورة المدّثّر : الآيات من ٢٦ إلى ٣٠ .

في الكافي عن الصادق (ع) : إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له سقر شكا إلى الله عزّ وجل شدة حرّه فسأله أن يأذن له أن يتنفس ، فتنفس فأحرق جهنم .

وفي روضة الواعظين عن الباقر (ع) : إن في جهنم جبلاً يقال له سعود ، وإن في سعود لوادياً يقال له سقر ، وإن في سقر لجبّاً يقال له هبهب ، كلما كشف غطاء ذلك الجبّ ضج أهل النار من حرّه ، وذلك منازل الجبارين .

(٢) سورة مريم : الآية ٧١ .

﴿ وسيجنّبها الأتقى . الذي يؤتي ماله يتزكى ﴾ :

أي : سيبعد عن النار من يبالغ في الاتّقاء فلا يحوم حول المعاصي ، الذي يؤتي ماله ويصرفه في وجوه البر والحسنات يطلب بذلك أن يتزكى ، ويكون عند الله زاكياً نامياً نمواً صالحاً ، أو يطلب أن يكون متزكياً متطهراً من الذنوب ومن دنس البخل والإمساك .

﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ :

يعني : هذا الإعطاء من المال ليس لتكافؤ نعمةٍ تكون عنده من أحد بل يؤتيه لوجه الله ، وليس له غاية إلّا ابتغاء وجه ربه الأعلى .

ذكر المفسرون للوجه معاني منها :

الرضا : أي ابتغاء رضا ربّه الأعلى ، ولتحقيق معنى الوجه وكذلك الأعلى مقام آخر .

﴿ ولسوف يرضى ﴾ :

هذا الأتقى بما يجزيه ربه من الأجر والثواب .

ثم إن الروايات اختلفت في شأن نزول هذه السورة وقد روى العامة أنها نزلت في أبي بكر ، ومن طريق الخاصة أنها نزلت في رجل من الأنصار اسمه أبو الدحداح . روى القمي في تفسيره أنه كانت له نخلة في دار رجل ، وكان يدخل عليه بغير إذن ، فشكا ذلك إلى رسول الله (ص) .

وفي (المجمع): كان لرجل نخلة في دار رجل فقير ذي عيال ، وكان الرجل إذا جاء فدخل الدار وصعد النخلة ليأخذ منها التمر فربما

سقطت التمرة فيأخذها صبيان الفقير ، فينزل الرجل من النخلة حتى يأخذ التمر من أيديهم ، وإن وجدها في فم أحدهم أدخل إصبعه حتى يأخذ التمرة من فيه ، فشكا ذلك إلى النبي (ص) وأخبره بما يلقى من صاحب النخلة ، فقال النبي (ص) لصاحب النخلة : تعطيني نخلتك المائلة التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة ، فأبى . فقال (ص) : بعنيها بحديقة في الجنة ، فأبى وانصرف . فمضى إليه أبو الدحداح واشتراها منه بأربعين نخلة ، وأتى إلى النبي (ص) فقال : يا رسول الله ، خذها واجعل لي في الجنة الحديقة التي قلت لهذا فلم يقبلها ، فقال رسول الله (ص) : لك في الجنة حدائق وحدائق . فأنزل الله الآيات .

وينبغي هنا التوجه إلى أن جميع ما وعد الله سبحانه وما أوعده تعالى في كتابه من الثواب والعقاب على الأعمال إنما هي من باب المقتضي دون العلّية التي لا تتخلّف عن المعلول . فالمقتضي يؤثر ما لم يقترن بمانعٍ في تأثيره ، وأما مع المانع فيتوقف عن التأثير لا محالة .

فحينئذٍ ليس لأبي الدحداح أو غيره كائناً من كان أن يغترّ بهذه الآيات فيأتي بالأعمال غير المرضية لله تعالى ما شاء .

وكما أن من الأمور الثابتة في الشرع ـ التي نطق بها القرآن الكريم صراحة في غير مورد ـ تكفير السيئات بالحسنات ، كذلك منها حبط الأعمال الحسنة بالسيئات : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ الله فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾[1] و ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾[2] وغيرها من

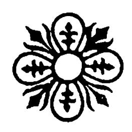
---

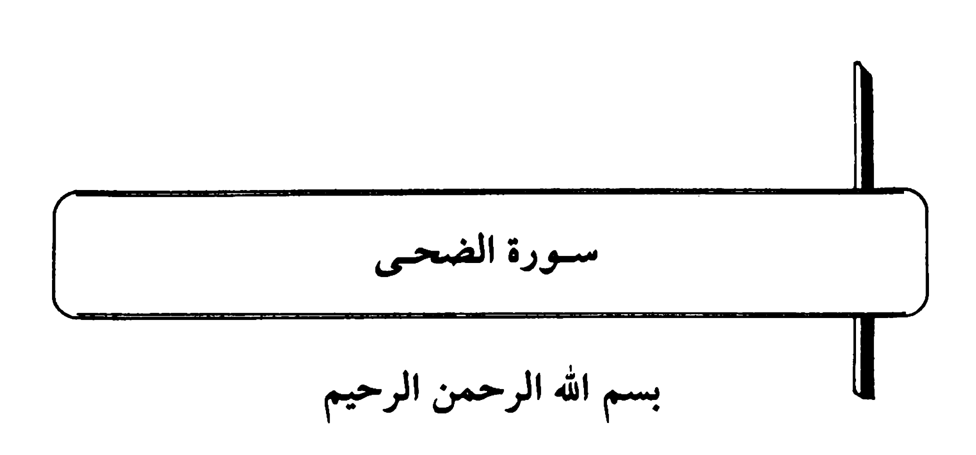
(١) سورة محمد : الآية ٩ .

(٢) سورة محمد : الآية ٢٨ .

الآيات وقد أشير إلى ذلك في الروايات الكثيرة ، وهو المشاهد خارجاً أيضاً في طرفي الإحسان والإساءة ،فكم من سيّىء عاصٍ أفنى شبابه في مخالفة الله وعصيانه ثم وفّقه الله بالتوبة وتدارك ما فات منه ، وكم من عابد صالح قد أتى من الصالحات ولكن أدركه الخذلان فانحرف عن الصراط المستقيم وتردّى في نار جهنم .

نسأل الله سبحانه حسن العاقبة ونعوذ به من الخذلان والضلال .





سـورة الضحـى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالضُّحىٰ * وَالليـلِ إِذَا سَجىٰ * مَـا وَدَّعَـكَ رَبُّـكَ وَمَـا قَلىٰ * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأولىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى* أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَـأَغْنَىٰ * فَأَمَّـا اليَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

صدق الله العليّ العظيم

قال المفسرون : إن الوحي انقطع عن رسول الله مدة ، واختلفوا في مدة الانقطاع .

أقلها كما عن ابن جريح اثنا عشر يوماً ، ثم خمسة عشر كما عن ابن عباس ، ثم خمسة وعشرون ، وأكثرها أربعون يوماً كما عن مقاتل .

وفي (الجوامع) روي أن الوحي قد احتبس عنه أياماً فقال المشركون : إن محمداً ودعه ربه وقلاه ، فنزلت السورة جواباً لهم .

وروى القمي عن الباقر (ع) . « إن جبرئيل أبطأ على رسول الله »

وأنه كانت أول سورة نزلت : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[1] . ثم أبطأ عليه ، فقالت خديجة : لعل ربك قد تركك فلا يرسل إليك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ .

ولا تنافي بين الروايتين كما هو ظاهر .

ثم إن المفسرين اختلفوا في علّة انقطاع الوحي وذكروا له عللاً منها : أنه (ص) ترك الاستثناء في قوله ، وذلك أن مشركي قريش أرسلوا إلى يهود المدينة وسألوهم عن أمر محمد فقالت لهم اليهود : سلوه عن أصحاب الكهف وعن قصة ذي القرنين وعن الروح فإن أخبركم عن قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين ولم يخبركم عن أمر الروح فاعلموا أنه صادق ، فجاءه المشركون وسألوه عنها فقال (ع) لهم : ارجعوا سأخبركم غداً ، ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحي عنه أياماً ، فقال المشركون : إن محمداً ودّعه ربّه وقلاه .

ولا يخفى أن سورة الكهف وإن كانت مكية إلا أن الآيات فيها : ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾[2] ، إلى آخرها مدنية ، فمن البعيد أن يكون السؤال مطروحاً في مكة في أوائل البعثة ، ثم يأتي الجواب بعد ثلاث عشرة سنة تقريباً أو أكثر ، مضافاً إلى أن سورة الكهف التي فيها قصة أصحاب الكهف نزلت وبينها وبين « الضحى » تسع وأربعون سورة .

---

(١) سورة العلق : الآية ١ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٨٣ .

وكذلك السؤال عن الروح الواقع في سورة الإسراء وقد نـزلت بعد الكهف بكثير ، فنفس الاستبعاد موجود في السؤالين الأخيرين .

مضـافاً إلى أن صـدور عمل من رسـول الله يوجب تـأخيـر الـوحي ـ وهو عدم الاستثنـاء ـ بعيد في نفسـه ، إلّا على القول بجـواز صدور مـا تركه أولى من النبي الخاتم ، وهو أشـرف الخليقة وأفضـل البريـة ، وفي القول ما ترى .

كل ذلك ممـا يقوّي في الـذهن احتمال مجعـولية الـرواية هـذا مع قطع النظر عن سندها .

وأسوأ حالاً من هذه الروايـة ما ذكروه في علة التـأخير ! ورووا أن جرواً دخل البيت فـدخل تحت السـرير فمـات ، فمكث نبي الله أيامـاً لا ينزل عليه الوحي ، فقال لخادمته خولة : يا خولة ما حدث في بيتي ؟ إن جبرئيل لا يأتيني . قالت خولة : فكنست البيت فأهويت بـالمكنسة تحت السرير فـإذا جرو ميت ، فـأخذتـه فألقيتـه خلف الجدار . فجـاء نبي الله ترتعد لحيـاه ، وكان إذا نـزل عليه الـوحي استقبلته الـرعدة ، فقـال : يا خولة ، دثّريني . فأنزل الله هذه السورة ، فلما نـزل جبرئيـل سألـه النبي عن سبب تأخيره فقال : أما علمت أنّا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة .

أقول : يا ليت الأمة الإسلامية تعي مثل هـذه الأحاديث التي تحط من شأن النبوّة وتنزلها إلى حد الخرافـة والأسطورة ، وتنـزل النبي الأعظم إلى حدّ إنسان عادي ، بل أقـل منه ، فـإن دخول جـرو في غرفـة صغيرة وموته فيها كيف يخفى عن أهل ذلـك البيت مع أنـه لا يموت فجـأة على العادة بل يطول نزعه ساعات بل أياماً ؟ ثم بعـد موتـه ، كيف خفي على ساكن البيت مع أن الميتة تنتن بعد ساعات ـ خصوصـاً في الجو الحـار

وتخبث رائحتها بحيث لا تتحمّل ، فكيف مضت أيام ولم يعلموا بذلك حتى وجدته خولة الخادمة عند كنس البيت ؟! .

فالأفضل أن نترك تلك الأقوال ونرجع إلى ما قاله الباقر (ع) : إن جبرائيل أبطأ على رسول الله . الخبر .

وليس من الضروري أن يكون للإبطاء علة ظاهرية ، بل هو تابع للمصلحة في نفس الأمر كبقية الآيات والسور فإنها أيضاً لم تنزل متوالية ومتتالية ، كما أنه بعد سورة « اقرأ » أيضاً أبطأ الوحي حتى غمّ ذلك رسول الله فنزلت سورة يا أيها المدّثّر .

غاية الأمر أن الكفار استغلّوا إبطاء الوحي بعد « المدّثّر » فقالوا ما قالوا ، ونزلت السورة جواباً لهم وإكراماً وإعظاماً للنبي (صلى الله عليه وآله) .

وأيضاً ليس هذا مختصاً بالوحي بل إن حدوث جميع الأمور في هذا العالم تدريجي متأخر بعضه عن بعض ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَانُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُوم ﴾[1] وكيف كان ؟ فالسورة المباركة تشتمل على العناية الخاصة الإلهية لنبيّه الأكرم ، وعلى الجهة العاطفية ، فهي من خطابات المحبوب لحبيبه كما لا يخفى .

تفسير الآيات :

﴿ **والضحى** ﴾ : هو وقت ارتفاع الشمس ووصول شعاعها إلى كل مكان ، ويطلق على النهار أيضاً .

---

(١) سورة الحجر : الآية ٢١ .

﴿ **والليـل إذا سجىٰ** ﴾ : السجـو : بمعنى السكـون ، والليـل إذا سجـا : إذا سكن ، أي أهله على المجاز . وهـذا الاستعمال شـائـع في لسـان العرب . يقـال ليل نـائم ونهار صـائم واسأل القـرية وغيـر ذلك ، ويمكن أن يكون المراد من سكون الليل سكـون نفسه بمعنى أن الـظلمة من أول الغروب تزداد شيئـاً فشيئاً إلى أن تنتهي النهـاية ، فكـأنها سكنت واستقـرت وركـدت في الـظلام . كـذا قيـل . فعلى ذلـك أيضـاً يكـون مجازاً ؛ لأن السكون للظلمـة وأسند إلى الليـل مجازاً كمـا يقال : سجـا البحر سجواً إذا سكنت أمواجه فتأمل .

قال الطباطبائي (قـده) : ومناسبـة نور النهـار وظلمة الليـل لنزول الوحي وانقطاعه ظاهرة . انتهى .

أو نقول: يحتمل أن يكـون التناسب بين النهـار ووجـود الـوحي في زمان النبي وبين ظلمة الليل وانقطاع الوحي بعده ، وغلبـة ظُلمة الجهـل على الأمة الإسلامية نتيجة انحراف الأمة عن الخط الرسالي الأصلي :

هل كان دين ابن عدنان سوى فلق   شق الـوجـود وليل الجهـل يغشـاه

فعلى هـذا يكـون القَسم في أول السـورة إخبـاراً عن الغيب وتنبّؤاً بحال الإسلام بعد النبي .

نقـل عن صاحب كشف الأسـرار أنـه قـال : إن المـراد من النهـار والليـل هو الكشف والحجـاب علامتي اللطف والقهـر وآية أنـوار الجمال وآثـار الجلال كمـا قال الجنيـد . « والضحى » مقام الشهـود « والليل إذا سجى » ، مقـام الغين الذي قـال فيه (ص) : إنـه ليغـان على قلبي وإني

استغفر الله في كل يوم سبعين مرة[1] .

وعلى أي حـال جواب القسم ﴿ مـا ودّعك ربـك ومـا قلى ﴾ وَدَعَ الشيء تركه وقل استعمال ماضيه والتوديع مبـالغة في الـوداع والترك « لأن كثرة المباني تدل على كثرة المعـاني » أي ما تـركك ربـك ، وفيه إشـارة إلى أن الرب لا يترك مربوبه .

« وما قلى » أي ما أبغضك ، وحذفت الكاف لدلالـة الكلام عليهـا ولمراعاة الفواصل ، ويحتمل أن يكون عطف وما قلى من عـطف السبب على المسبب فإن الحبيب لا يترك حبيبه .

والحـاصل : كمـا أن مـظاهـر القـدرة وآثـارهـا تكـون في الأشيـاء المتقابلة، وبعد النهار المضيء تستولي ظلمة الليل وكل منهما من آيـات الله ﴿ وَمِنْ آيَـاتِهِ اللَّيْـلُ وَالنَّهارُ ﴾[2] كـذلك في الكيفيـات الباطنيـة هذا التقـابل مـوجود ، وكمـا أن أفول الشمس واستيـلاء الظلمـة لا يدل على غضب الله تعالى، ومجيء الليل لا يدل على أن الشمس ـ بعد ـ لن تطلع والنور لن يوجد ، كذلك انقطاع الوحي في برهة من الزمـان لا يدل على عـدم رضى الله تبارك وتعـالى عن نبيه ، وأن الله سـدّ بـاب الـوحي على نبيه .

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ :

فسـرت الآخرة بعـالم الآخـرة والأولى بعـالم الـدنيـا ، أي والـدار الآخرة وما أعد الله فيها خير لك من الدار الدنيا وما فيها لأنها تدوم وتبقى

(١) أغان السحاب السماء : غشاها .

(٢) سورة الزمر : الآية ٥٣ .

وهذه تبيد وتفنى ، كذا قال الميبدي في تفسيره ولكن الآية تعطي معنى أزيد مما ذكر ، فإن أفضلية عالم الآخرة على عالم الدنيا بالمعنى الذي ذكره الميبدي أمر واضح لا يحتاج إلى الذكر ، فإن الباقي وإن كان قليلاً خير من الفاني وإن كان كثيراً ، فكيف إذا كان الأمر بالعكس ؟ ويكون الباقي كثيراً والفاني قليلاً ، هذا أولاً ، وثانياً : لا يختص ذلك بالنبي بل يعمّ للجميع فلا حاجة إلى ذكر الضمير ، فلا بد أن تكون الآية إخباراً عن أمر يختص بالنبي وذلك لسياق الآيات ومكان ضمير الخطاب ، ولذلك قيل في تفسير الآية : إن المراد من الآخرة والأولى مبدأ حياته الدنيوية ومنتهاها لعلو شأنه وانتصاره على أعدائه وانتشار التوحيد وسقوط الأصنام والطواغيت على يده ودخول الناس في دين الله أفواجاً .

ويشير إلى ذلك ما رواه المحدث البحراني عن عبد الله بن عباس قال : عرض على رسول الله (ص) ما هو مفتوح على أمته من بعده كفراً كفراً فسرّه ذلك فأنزل الله عز وجل ﴿ **وللآخرة خير لك من الأولى** ﴾ الحديث . قال : وقوله : كفراً كفراً أي قرية قرية ، والقرية تسمى كفراً ، هذا في الظاهر وأما في الباطن فكما في التأويلات النجمية يعني : أحوال نهايتك أفضل وأكمل من أحوال بدايتك ، لأنه (ص) لا يزال يطير بجناحي الشريعة والطريقة في جو سماء السير ويترقى في مقامات القرب والكرامة ، وقال الشيخ عبد الرزاق الكاشاني في تأويلاته في تفسيره هذه الآية : أي وللحالة الآخرة التي هي التجلّي بعد الاحتجاب واشتداد الشوق خير لك من الحالة الأولى لأمنك في الحالة الثانية عن التلوين بوجود البقية وظهور الأنانيّة .

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ :

ليس أن ربك ما ودعك وما قلىٰ فحسب ، بل الله سبحانه يعطيك من النعم والكرامات والعطايا في الدنيا والآخرة ما ترضى ، فالآية تثبيت وتقرير للآيات السابقة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال : قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين : أرأيت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أحق هي ؟ قال : إي والله . حدثني عمي محمد بن الحنفية عن علي (ع) أن رسول الله قال : أشفع لأمتي حتى يناديني ربّي أرضيت يا محمد ؟ فأقول : نعم يا رب رضيت . ثم أقبل عليَّ فقال : إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية في كتاب الله : ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً** ﴾[1] ، قلت : إنّا نقول ذلك ، قال : فكلنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية في كتاب الله ﴿ **ولسوف يعطيك ربّك فترضىٰ** ﴾ . هي والله الشفاعة ليعطينَّها في أهل لا إله إلّا الله حتى يقول ربي رضيت .

وفي المجمع : وقال الصادق (ع) : رضا جدي أن لا يبقى في النار موحِّد .

ويعجبني في المقام نقل ما ذكره بعضٌ نقلاً عن الشيخ الأكبر محيي الدين أنه قال : أقمت بمدينة قرطبة بمشهد فأراني الله أعيان رسله من لدن آدم إلى نبينا (عليه وعليهم السلام) ، فخاطبني منهم هود (ع) وأخبرني بسبب جمعيتهم ، وهو أنهم اجتمعوا شفعاء للحلاج إلى نبينا

---

(١) سورة النور : الآية ٥٧ .

محمد (ص) ، وذلك أنه كان قد أساء الأدب بأن قال في حياته الدنيوية إن رسول الله (ص) همته دون منصبه ، قيل له : ولم ذلك ؟ قال : لأن الله تعالى قال : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ . فكان من حقه ألا يرضى إلا أن يقبل الله شفاعته في كل كافر ومؤمن ، لكنه ما قال إلا : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »[1] . فلما صدر منه هذا القول جاءه رسول الله في واقعته وقال له : يا منصور ، أنت الذي أنكرت عليّ في

---

(١) يقول السيد الجليل جمال العارفين ابن طاووس رضوان الله عليه في كتابه الإقبال في أعمال شهر رمضان .

فصل :أقول: وكنت في ليلة جليلة من شهر رمضان بعد تصنيف هذا الكتاب زماناً ، وإني أدعو في السحر لمن يجب أو يحسن تقديم الدعاء له ولي ولمن يليق بالتوفيق أن أدعو له ، فورد على خاطري أن الجاحدين لله جلّ جلاله ولنعمته ، والمستخفّين بحرمته ، والمبدّلين لحكمته في عباده وخليقته ، ينبغي أن يُبدأ بالدعاء لهم بالهداية من ضلالتهم ، فإن جنايتهم على الربوبية والحكمة والإلهية والجلالة النبوية أشد من جناية العارفين بالله وبالرسول « صلوات الله عليه وآله » ، فيقتضي تعظيم الله وتعظيم جلاله وتعظيم رسوله (ص) وحقوق هدايته بمقاله وفعاله أن يقدم الدعاء بهداية من هو أعظم ضرراً وأشد خطراً، حيث تعذّر أن يزال ذلك بالجهاد ، ومنعهم من الإلحاد والفساد . أقول : فدعوت لكلّ ضالّ عن الله بالهداية إليه ، ولكلّ ضالّ عن الرسول بالرجوع إليه ، ولكلّ ضالّ عن الحق بالاعتراف به والاعتماد عليه .

فصل : ثم دعوت لأهل التوفيق والتحقيق بالثبوت على توفيقهم والزيادة في تحقيقهم ، ودعوت لنفسي ومن يعنيني أمره بحسب ما رجوته من الترتيب الذي يكون أقرب إلى من أتضرع إليه ، وإلى مراد رسوله (ص) ، وقد قدمت مهمات الحاجات بحسب ما رجوته أقرب إلى الإجابة .

فصل : أفلا ترى ما تضمنه مقدس القرآن من شفاعة إبراهيم (ع) في أهل الكفران فقال الله جل جلاله : ﴿ **يجادلنا في قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب** ﴾ فمدحه جلّ جلاله على حلمه وشفاعته ومجادلته في قوم لوط الذين قد بلغ كفرهم إلى تعجيل نقمته .

فصل : أما رأيت ما تضمنته أخبار صاحب الرسالة ، وهو قدوة أهل الجلالة ، كيف كان كلما آذاه قومه الكفار وبالغوا فيما يفعلون قال (ص) : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

فصل : أما رأيت الحديث عن عيسى (ع): « كن كالشمس تطلع على البرّ والفاجر » وقول نبيّنا (ص) : « اصنع الخير إلى أهله وإلى غير أهله ، فإن لم يكن أهله فكن أنت أهله » وقد تضمن ترجيح مقام المحسنين إلى المسيئين قوله جل جلاله : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب**

الشفاعة ، فقال يا رسول الله قد كان ذلك ، قال : ألم تسمع أني قد حكيت عن ربّي عزّ وجل: إذا أحببت عبداً كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ؟ فقال : بلىٰ يا رسول الله ، قال : فإذا كنت حبيب الله كان هو لساني القائل ، فإذاً هو الشافع والمشفوع إليه وأنا عدم في وجوده ، فأي عتاب عليّ يا منصور ؟ فقال : يا رسول الله أنا تائب من قولي هذا ، فما كفارة ذنبي ؟ قال : قرّب نفسك لله قرباناً ، قال : كيف ؟ قال : اقتل نفسك بسيف شريعتي . فكان من أمره ما كان . ثم قال هود (ع) : وهو من حيث فارق الدنيا محجوب عن رسول الله ، والآن هذه الجمعية لأجل الشفاعة له إليه (ص) أكثر من ثلاثمائة سنة .

نكتة : قال بعضٌ : كم بين من يتكلف ليرضي ربه وبين من يعطيه ربه ليرضى !!

إيقاظ : لا ينبغي للمسلم العاقل أن يغتر بهذه الروايات الدالة على الشفاعة الكبرى ويكون في حياته مطلق العنان في الشهوات والمعاصي ،

= **المقسطين** ﴾ . ويكفي أن محمداً (ص) بعث رحمة للعالمين . انتهى كلامه رفع في الخلد مقامه .

نعم ، الإنسان الكامل هو الذي لا يرضى بشقاوة أحد من الخلق ، بل يريد سعادة جميع الناس ، لأن الكل محتاجون إلى رحمة الله ، وكلهم فقراء في ذاتهم : ﴿ **إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ والعبد المتخلق بأخلاق الله أيضاً لا يرضى لأحد من عباد الله الكفر ، ويطلب من الله الهداية للجميع . يقول بعض العارفين بالله ما مضمونه : إلهي لو أردت أن تحرقني بالنار وتعلقت الإرادة الأزلية بإحراقي وإدخالي جهنم فاستجب لي دعوة واحدة ، وأرجوك أن لا تخيبني فيها ، وهي أن تكبر جسمي وجسدي إلى حدّ يملأ جهنم فلا يبقى في جهنم مكان لأحد غيري ، فحيث قرر في علمك وإرادتك أن أحرق فلا أقل من أن أكون أنا وحدي في نارك وعذابك ، ويبقى العباد الآخرون متنعمين في ظل لطفك ورحمتك ، وسيكون هذا تسلية لي بأنني فديت الناس بنفسي ، وأحترق في نارك عوضاً منهم .

فلو كان للسعادة مصداق حقيقي فهو أصحاب هذه الأفكار العالية .

ويسلك منهجاً لا يلائم التربية الدينية استناداً إلى روايات الشفاعة واطمئناناً بشفاعة الشافعين ، كما يشاهد كثيراً في أوساط الناس ، وذلك :

أولاً : إن ما يستفاد من الروايات هو أن الشفاعة مختصة بالقيامة ، والقدر المسلّم من الشفاعة في القيامة هو النجاة من الخلود في النار بالشفاعة ، وأما النجاة من أصل الدخول في النار فليس بمسلّم ، كما أشير إليه في الرواية التي عن الصادق (ع) قال : «رضا جدي أن لا يبقى في النار موحِّد». ولم يقل رضا جدي أن لا يدخل في النار موحِّد ، فإذا انتهى الأمر إلى الدخول في النار فالويل لمن يؤول أمره إلى ذلك وتكون النار مصيره ومأواه : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ . وهذا كما يقوله أمير المؤمنين (ع) : « وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض » ، فكيف بنا ونحن الضعفاء الذين لا نصبر على قليل من بلاء الدنيا وعقوباتها ، ونحن كما قال في حقنا أمير المؤمنين (ع) : « واعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار فارحموا أنفسكم ، فإنكم قد جربتموها في مصائب الدنيا . أفرأيتم جذع أحدكم من الشوكة تصيبه والعثرة تدميه والرمضاء تحرقه ، فكيف إذا كان بين طابقين من نار ضجيع حجر وقرين شيطان ؟ أعلمتم أن مالكاً إذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً لغضبه ، وإذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته ؟ » هذا مضافاً إلى أنّا لو فرضنا النجاة من النار ومن أهوال القيامة بشفاعة محمد وآله فماذا نصنع بعذاب البرزخ ؟ فإن المصرّح به في بعض الروايات أن الشفاعة الموعودة لا تشمل البرزخ ، وإنما البرزخ على عهدتنا نجازى بأعمالنا فيه ، ولعله يطول آلاف بل ملايين السنين من

سنيّ الدنيا ، فأنّى لنا الاصطبار على ذلك ؟! مضافاً إلى أن عذاب البرزخ حيث إنه عذاب بلا مادة لاقتضاء عالم المثال ذلك فهو عذاب بلا مادة ، فكما أن اللذة بلا مادة ألذ من اللذة المشوبة بالمادة كذلك العذاب بلا مادة أشد منه مشوباً بها ، وهذا بحث فلسفي ليس هنا مقام ذكره .

وبالجملة : العذاب الذي يسبق الشفاعة من أول الدخول في القبر والورود في عالم البرزخ إلى وقت الخروج من النار بالشفاعة عذاب لا نتصوره مدة وشدة ، فكيف يجوّز العقل أن يعرّض الإنسان نفسه لهذا العذاب رجاء للشفاعة ، وليس هذا إلا تسويلاً من النفس والشيطان .

وثانياً : لا شبهة في أن الشفاعة مهما كانت دائرتها وسيعة شاملة فهي تختص لا محالة بالموحدين ولا تشمل الكافرين والمشركين يقيناً . والعمدة في خروج الإنسان من زمرة الكافرين وحشره في صفوف الموحدين هي خروجه من هذه الدنيا معتقداً التوحيد ، ودخوله في عالم البرزخ موحّداً لله تعالى ، لأنه من البديهي أنه لو كان أحد مؤمناً بالله تعالى طول عمره ولكنه كفر بالله قبل موته وخرج من الدنيا كافراً وملحداً فهو في الآخرة من الكافرين ، والإيمان بالله ينفع صاحبه إذا كان مصاحباً للإنسان حين موته وعند الورود في عالم القبر والبرزخ ، وإن من أعظم أخطار الذنوب وتراكم ظلماتها على القلب أنها تطفىء نور الإيمان في القلب ، فيسلب الإيمان منه وينسلخ القلب من التوحيد والمعارف الحقة ولا يقبل شيئاً من الحقائق ، فيموت صاحبه حين يموت وهو كافر بالله تعالى . ولا أعلم للذنب خطراً أعظم من هذا ، فإن جميع ما أوعد الله سبحانه العصاة والمذنبين من العذاب والنكال هيّن عند هذا الخطر ، لأن فيما أوعد الله من العذاب للعاصي بالغاً ما بلغ نور رجاء

وخلاص إذا كان موحداً ، وأما اليأس التامّ والخسران والخذلان فلمن انطفأ من قلبه هذا النور الضعيف أيضاً ، فيصبح كافراً وملحداً ومنكراً لما جاء به الأنبياء والأولياء نتيجة كدورة القلب وظلمة المعاصي المستولية عليه . وقد وردت الإشارة إلى ذلك في غير واحدة من الآيات وفي كثير من الروايات ، فمن الآيات قوله تعالى : **﴿ ثُمَّ كَانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون ﴾**[1] ومن الروايات ما في الكافي والعياشي عن الباقر (ع) قال : ما من عبد مؤمن إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء ، فإذا أذنب ذنباً خرج في تلك النكتة نكتة سوداء ، فإن تاب ذهب ذلك السواد ، فإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض ، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً ، وهو قول الله عز وجل : **﴿ كَلاّ بَلْ رَانَ عَلىٰ قُلوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون ﴾**[2] .

ولعل هذه الآية تكون مفسرة للآية التي ذكرناها : **﴿ ثم كان عاقبة الذين . . ﴾** لأنها في ذيل الآيات : **﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبين * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وما يُكَذِّبُ بِهِ إلاّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * كَلاَّ بَلْ رَانَ . . . ﴾**[3] .

وقال الحسن في الآية : الذنب بعد الذنب حتى يسوّد القلب ، وإذا بلغ القلب إلى هذا الحدّ من الدنس والظلمة فعندئذٍ ينطفىء فيه نور الإيمان ويغطّي السواد البياض ولا يوجد فيه منفذ لنور الإيمان . ولعله تشير إلى ذلك الآية الشريفة : **﴿ كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ**

---

(١) سورة الروم : الآية ١٠ .

(٢) سورة المطففين : الآية ١٤ .

(٣) سورة المطففين : الآيات ١٠ ـ ١٤ .

جَبَّارٍ ﴾(1) . فتدبر تعرف .

وبالجملة : من أشد الآثار خطراً للذنب هو خطر سلب الإيمان من القلب ، فينتقل صاحبه من الدنيا كافراً فلا تنفعه شفاعة الشافعين ، وهذا هو سوء الخاتمة الذي استعيذ بالله منه في الأدعية وكلمات الأولياء (ع) . قال تعالى : **﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ ﴾** فعن الباقر (ع) : الأصل « بلعم » ثم ضربه الله مثلاً لكل مؤثر هواه على هدى الله من أهل القبلة ، وفي الروايات أن « بلعم » أعطي الاسم الأعظم وكان يدعو به فيستجيب له : **﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾** إلى منازل الأبرار من العلماء **﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَىٰ الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾** فاتّباع الهوى هو الذي صار سبباً لانسلاخ الآيات من « بلعم » وانحط عن مقامه إلى حيث كان : **﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذٰلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون ﴾**(2) .

قال الفيض (ره) : فيتعظون ويحذرون مثل عاقبته ، والتاريخ مشحون بذكر أولئك الذين كانوا برهة من عمرهم صالحين متعبدين ملتزمين الحق ولكنهم انحرفوا بعد ذلك .

ذكر المحدث القمي (ره) في « السفينة » في أحوال زهر بن قيس : وإنه كان من خواص علي (ع) ، وكان يدعو الناس إلى بيعة أمير المؤمنين (ع) ويذكر أشعاره يوم الجمل في عليّ :

---

(1) سورة المؤمن : الآية ٣٥ .

(2) سورة الأعراف: الآيتان ١٧٥ ، ١٧٦ .

أضـــربكم حتى تقـرّوا لعـلي خيـر قـريش، كلهـا بعـد النبي
من زانــه الله وسمـاه الــوصي الأبيات . . . .

ثم يذكر دخوله على يـزيد مـع رؤوس الحسين وأصحابـه والسبايـا وقوله :

أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره ، وَرَدَ علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته ، نسرنا إليهم فسـألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيدالله بن زياد أو القتـال ، فاختـاروا القتال على الاستسلام ، فعـدونا عليهم مـع شروق الشمس فـأحطنـا بهم من كل ناحيـة ، حتى إذا أخذت السيـوف مأخـذها من هـام القوم جعلوا يهربون إلى غير وزر ،ويلوذون منا بالآكام والحفر لوذاً كما لاذ الحمام من الصقر ، فوالله يا أمير المؤمنين ما كان إلا جزر جزور أو نـومة قـائل حتى أتينـا على آخرهم . فهـاتيك أجسـادهم مجردة وثيـابهم مرملة وخـدودهم معفّـرة ، تصهـرهم الشمس وتسفي عليهم الــريــاح ، زوارهم الــرخم والعقبان . انتهى ﴿ **رَبَّنا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَـا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَـدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ** ﴾ اللهم إنا نعوذ بك من سوء الخاتمة .

﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ :

اليتيم : الذي مات أبـوه ، وإذا مات أبـواه فهو لـطيم ، وهذا قبـل الحلم . وفي الخبـر : « لا يتُم بعد حُلْم » . فـالرسـول (ص) مات أبـوه عبد الله بن عبد المطلب وهو جنين قـد أتت عليه ستـة أشهر فكـان (ص) مع جده عبد المطلب ومع أمه آمنة ، فماتت أمه آمنة وهـو ابن ست سنين ثم مـات جدّه بعـد أمه بسنتين ورسـول الله (ص) ابن ثمان سنين ، ولمّـا

أشرف جدّه عبد المطلب على الموت أوصىٰ به أبا طالب ، لأن عبد الله وأبا طالب كانا من أم واحدة .

قال المحدث القميّ في سيرة النبي (ص) : قال ابن عباس : كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد إلا هو إجلالاً له ، وكان بنوه يجلسون حوله حتى يخرج عبد المطلب ، فكان رسول الله (ص) يخرج وهو غلام فيجيء حتى يجلس على الفراش ، فيعظم ذلك على أعمامه ويأخذونه ليؤخروه فيقول لهم عبد المطلب : «دعوا ابني فوالله إنّ له لشأناً عظيماً، إني أرى أنه سيأتي عليكم يوم وهو سيدكم». ثم يحمله فيجلسه معه ويمسح ظهره ويقبلّه ويقول : « ما رأيت قبلة لا أطيب منه ولا أطهر قط ، ولا جسداً ألين منه ولا أطيب » . ثم يلتفت إلى أبي طالب ـ وذلك أن عبدالله وأبا طالب لأمّ واحدة ـ فيقول : « يا أبا طالب إن لهذا الغلام شأناً عظيماً فاحفظه واستمسك به فإنه فرد وحيد ، وكن له كالأم لا يصل إليه شيء يكرهه». ثم يحمله على عنقه فيطوف به أسبوعاً ، وكان عبد المطلب قد علم أنه يكره اللات والعزّى فلا يدخله عليهما .

فلما تمّت له ست سنين ماتت أمه آمنة بالأبواء بين مكة والمدينة ، وكانت قَدِمَت به على أخواله من بني عدي ، فبقي رسول الله (ص) يتيماً لا أب له ولا أم ، فازداد له عبد المطلب رقة وحفظاً ، وكانت هذه حالته حتى أدرك عبد المطلب الوفاة ، فبعث إلى أبي طالب ومحمد (ص) على صدره ، وهو في غمرات الموت ، وهو يبكي ويلتفت إلى أبي طالب ويقول : يا أبا طالب ، انظر أن تكون حافظاً لهذا الوحيد الذي لم يشم رائحة أبيه ولم يذق شفقة أمه ، انظر يا أبا طالب أن يكون من جسدك

بمنزلة كبدك ، فإني قد تركت بَنِيَّ كلَّهم وأوصيتك به لأنك من أم أبيه . يا أبـا طالب ، إن أدركت أيـامه تعلم أني كنت من أبصـر النـاس بـه وأنـظر الناس وأعلمهم ، فإن استـطعت أن تتبعه فـافعل وانصـره بلسانـك ويدك ومالك ، فإنه ـ والله ـ ليسودكم ويملك ما لم يملك أحـد من بني آبائي . يا أبا طالب ، ما أعلم أحـداً من آبائـك مات عنـه أبوه على حـال أبيه ولا أمه على حال أمه فاحفظه لوحـدته . هـل قبلت وصيتي ؟ قال : نعم قـد قبلت ، والله عليّ بذلك شهيد . فقال عبد المطلب : فمُدّ يدك إليّ فمـدّ يـده فضـرب بيـده إلى يـده ، ثم قـال عبـد المـطلب : الآن خفّفَ علي المـوت ، ثم لم يزل يقبله يقـول : أشهد أني لم أقبّـل أحـداً من ولـدي أطيب ريحاً منك ولا أحسن وجهاً منك ، ويتمنىٰ أن يكـون قد بقي حتى يـدرك زمانـه فمات عبـد المـطلب وهـو (ص) ابن ثمـان سنين ، فضمـه أبو طالب إلى نفسه لا يفارقه ساعة من ليل ولا نهار ، وكان ينام معه حتى بلغ ، لا يأمن عليه أحداً . فتكفل أبو طالب رسـول الله (ص) أحسن كفالـة إلى أن بعثـه الله بالنبوة ، ولم يقصـر في كفالتـه وأدّى ما عليـه من الإيثـار وحسن الكفـالة والتـربية ، ويكفي في ذلـك قولـه تعالى : ﴿ **ألم يجـدك يتيماً فآوى** ﴾ ، فنسب إيواء أبي طالب إلى نفسـه ، فكان أبـو طالب (ع) خليفة الله في إيواء النبي (ص) . وما ورد في نصرة أبي طالب لرسول الله وذبّه عنه فهو أكثر من أن يذكر . ولقد أجاد ابن أبي الحديد في قوله :

ولـولا أبـو طـالـب وابـنـه ... لمـا مثّل الـدين شخص فقامـاً
فـذاك بـمكـة آوى وحـامـى ... وذاك بيثـرب خـاض الحمـامـا
ولله ذا فـاتـحـاً لـلهـدى ... ولله ذا لـلمـعـالـي ختـامـاً

وقـال النبي (ص) مـا زالت قـريش كـاعّـةً[1] عني حتى مـات أبو طالب . يريد (ص) أنهم كانوا يتجنبـون أذاه في حياة أبي طـالب فلما مات اجترؤوا عليه ، ورثاه أمير المؤمنين (ع) بقوله :

أبا طالب عصمـة المستجير وغيث المحول ونور الـظلَم
لقد هدّ فقدك أهل الحفـاظ فصلى عليـك ولي الـنعـم
ولـقّـاك ربـك رضــوانــه فقد كنت للطهر من خير عم

وقال ابن أبي الحديد في مقدمة شرحه لنهج البلاغة في فضـل أمير المؤمنين (ع) : مـا أقول في رجـل أبوه أبـو طالب سيـد البطحـاء وشيـخ قريش ورئيس مكة . قال : وكانت قريش تسميه الشيخ ، ثم ذكر حـديث عفيف الكنـدي لمـا رأى النبي (ص) يصلي مـع علي وخـديجـة ، فقـال للعباس : فما الذي تقولونه أنتم ؟ قـال : ننتظر مـا يفعل الشيـخ ـ قال : يعني أبا طالب ـ قال : وهو الـذي كفل رسـول الله صغيراً وحمـاه وحاطـه كبيراً ، ومنعه من مشركي قريش ولقي لأجله عنـاء عظيمـاً ، وقاسىٰ بـلاء شديداً وصبر على نصره والقيام بأمره .

وجاء في الخبر أنـه لما تـوفى أبو طـالب أوحي إليه (ص) وقيـل له اخرج منها ، أي من مكة ، فقد مات ناصرك .

قال المحدث القمي (قده) : قال علي بن حمزة البصري في كتـابه في أشعار أبي طالب رحمه الله : حدّثني أبـو بشر قـال : حدثني أبـو بردة السلمي عن الحسن بن مـا شـاء الله قـال : حـدثني أبي قـال : سمعت علي بن ميثم يقــول : سمعت أبي يقـول : سمعت عليـاً يقـول : تبـع

---

(١) كاعّة : ضعيفَة جبانة .

أبو طالب عبد المطلب في كل أحواله حتى خرج من الدنيا وهو على ملتّه ، وأوصاني أن أدفنه في قبره ، فأخبرت رسول الله (ص) بذلك فقال : اذهب فواره وأنفذ ما أمرك به ، فغسلته وكفنته وحملته إلى الحجون ، ونبشت قبر عبد المطلب فرفعت الصفيح عن لحده فإذا هو موجّه إلى القبلة ، فحمدت الله تعالى على ذلك ، ووجهت الشيخ وأطبقت الصفيح عليهما فأنا وصي الأوصياء وورثت خير الأنبياء . قال ميثم : والله ما عبد علي، ولا عبد أحد من آبائه غير الله تعالى إلى أن توفّاهم الله تعالى .

وقال المحدث القمي (ره) وفي روايات كثيرة أنه كان يكتم إيمانه مخافة على بني هاشم ، وأن مثله مثل أصحاب الكهف ، وأنه كان مستودعاً للوصايا فدفعها إلى رسول الله (ص) ؛ وأن نوره يوم القيامة يطفىء أنوار الخلائق إلا خمسة أنوار ، وأنه لو وضع إيمانه في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في كفة ميزان لرجح إيمانه على إيمانهم . وقال أمير المؤمنين (ع) : والله ما عبد أبي ولا جدّي عبد المطلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنماً قط . قيل : فما كانوا يعبدون ؟ قال : كانوا يصلّون إلى البيت على دين إبراهيم (ع) المتمسكين به .

وقيل : معنى اليتيم هنا الشريف الفريد الذي هو مفقود المثل عديم النظير ، من الدرة اليتيمة التي لا يوجد لها مثل ولا نظير ، أي وجدك في العز والشرف والنبالة كالدّرة اليتيمة ، فآواك إلى كرامته واصطفاك لرسالته .

﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ :

ضل ضلالاً وضلالة : ضد اهتدىٰ ، والضلالة : ضد الهدى ، وحيث إن الهداية والضلالة تستعملان في الهداية إلى الدين والحق والضلالة عنهما لم يستحسن المفسرون تفسير الآية بهذا المعنى فقالوا : إن الضلالة والهداية في الآية بمعنى الضلالة عن الطريق كما أنها أيضاً أحد معانيها الشائعة ، وذلك لأن النبي (ص) ضلّ ثلاث مرات : إحداهما : عندما أخذته حليمة السعدية بعد انقضاء أيام رضاعته فجاءت به لتسلمه إلى جده فضاع (ص) . والثانية : أنه (ص) ضلّ في شعاب مكة في حال صباه وكان عبد المطلب يطلبه ويقول متعلقاً بأستار الكعبة :

يا رب فاردد ولدي محمدا   ردّه لي واصطنع عندي يدا .

فوجده أبو جهل فردّه إلى عبد المطلب ، فمنّ الله عليه حيث خلّصه على يدي عدوه ، فكان (ص) نظير موسى (ع) حين التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً . والمرة الثالثة : في سفره إلى الشام مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة (ع) .

وقال الطباطبائي (قده) : «المراد بالضلال عدم الهداية ، والمراد بكونه ضالاً حاله في نفسه مع قطع النظر عن هدايته تعالى ، فلا هدى له (ص) ولا لأحد من الخلق إلا بالله سبحانه ، فقد كانت نفسه في نفسها ضالّة ، وإن كانت الهداية الإلهية ملازمة لها منذ وجدت ، فالآية في معنى قوله تعالى : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » . انتهى .

ولا يخفى ما في ما ذكره (قده) من مخالفته الظاهر ، فإن الآية ظاهرة في فعلية الضلال لا مجرد الاستعداد والشأنية ، وما كان رسول الله ضالًّا قط ، كيف وقد قال (ص) : كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين ،

وقال علي (ع) في حقه : ولقد قرن الله به (صلى الله عليه وآله) من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته ، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره ، نعم ، لا بأس بالالتزام بعدم هدايته (ص) إلى أعلىٰ مراتب الهداية التي كان (ص) عليها بعد البعثة والنبوة ، كما تشعر بذلك الآية التي استشهد بها الطباطبائي (قده) لمذهبه ، وهي قوله تعالى : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي . . ﴾ فإنها مصدّرة بقوله تعالى : ﴿ وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

ففي (الكافي) عن الصادق (ع) في الروح قال: « خلقٌ من خلقِ الله عز وجل أعظم من جبرئيل وميكائيل ، كان مع رسول الله (ص) يخبره ويسدّده وهو مع الأئمة من بعده» . وفي رواية: «منذ أنزل الله ذلك الروح على محمد (ص) ما صعد إلى السماء وإنه لفينا » .

فعلى هذا يكون معنى الضلال في الآية هو فقدان الشرائع والخلو عن الأحكام التي لا تهتدي إليها العقول بل طريقها منحصر في الوحي من الله .

﴿ فهدى ﴾ : أي فهداك الله إلى منهج الشريعة ومحكمات الآيات التي تتضمن سعادة البشر ، وعلّمك ما لم تكن تعلم .

وفي بعض التفاسير معناه : ووجدك بين ضالّين فهداهم بك ،

---

(١) سورة الشورى : الآية ٥٢ .

فعلى هـذا يكون الضـلال صفة قـومه . يقـال : رجل ضعيف إذا ضعف قومه .

وفي التـأويلات النجميـة : أي متحيراً في تيـه الألوهيـة فهدى إلى كمال المعرفة بالصحو بعد المحو .

وقال الشيخ عبد الرزاق الكاشـاني : ألم يجدك يتيماً منفرداً محجوباً بصفات النفس عن نور أبيك الحقيقي الذي هو روح القدس منقطعاً عنـه ضـائعاً فـآوى ، أي فآواك إلى جنـابه وربّـاك في حجر تـربيته وتـأديبـه ، وكفلك وأبوك ليعلمك ويزكيك ، ووجدك ضالاً عن التـوحيد الـذاتي عند كونك في عالم أبيك محتجباً بالصفات عن الذات فهداك بنفسه إلى عين الذات .

هذه جملة مما قيل في تفسير الآية « ولكل عود عصارة » .

﴿ ووجدك عائلاً فأغنىٰ ﴾ :

تقـول : عال يعـول إذا افتقـر . وأعـال يُعيـل إذا صـار ذا عيـال . والعائل : الفقير الذي لا مال له . وقد كان (ص) فقيراً لا مال لـه فأغنـاه الله بعدما تزوّج بخديجة بنت خويلد (عليها السلام) ، فـوهبت له مـالها وكان لها مال كثير . هكذا قال أكثر المفسرين .

وقـال بعضٌ : إن المراد بـالغنى غنى النفس ، وأحسن ما قيـل في معنى الآيات فيما رأيت ما رواه العياشي عن الرضا (ع) قال : «يتيماً فرداً لا مثـل لـك في المخلوقين ، فـآوى النـاس إليـك ، وضـالاً في قـوم لا يعرفون فضلك فهداهم إليك ، وعـائلاً تعـول أقوامـاً بالعلم فـأغناهم الله بك ، أو فأغناك الله بالوحي فلا تسأل عن شيء أحداً » . كما عن القمي .

﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ :

هذه الآية بمقابلة الآية : **﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾** . بمعنى أن الآية تخاطب النبي (ص) بأنك كنت يتيماً وأحسست ألم اليتم وحزن الأيتام ، فكما أنّا آويناك في يتمك فأنت أيضاً الْطف بهم ولا تقهرهم عليهم ، وكانت العرب تأخذ أموال اليتامى وتظلمهم حقوقهم ، وقد جاء ذلك في قوله تعالى : **﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾**[1] على ما سيأتي تفسيره . وقد أكد القرآن في أمر اليتيم في غير مورد . قال تعالى : **﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾**[2] وقال تعالى : **﴿ . . وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ . . ﴾**[3] وقال تعالى : **﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾**[4] وغير ذلك من الآيات .

وقال علي (ع) في وصيته الأخيرة : « الله الله في الأيتام ، فلا تغبوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم ، فقد سمعت رسول الله (ص) يقول : من عال يتيماً حتى يستغني أوجب الله عز وجل له الجنة كما أوجب لآكل مال اليتيم النار . وقال (ص) : أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا . . وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما » . رواه البخاري وأبو داود ، والترمذي .

---

(١) سورة الماعون : الآيتان ١ ـ ٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٨٣ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

(٤) سورة الإنسان (الدهر) : الآية ٨ .

وقال (ص) : « من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله وصام نهاره ، وغدا وراح شاهراً سيفه في سبيل الله ، وكنت أنا وهو في الجنة أخوين كما أن هاتين أختان وألصق باصبعيه السبابة والوسطى » . رواه ابن ماجة . والروايات في ذلك كثيرة جداً من العامة والخاصة .

فائدة : لا يخفى أن لليتيم معنى آخر في لسان الروايات ، ولعله أولى من معناه المشهور وهو الذي انقطع عن أبيه الحقيقي وهو الإمام والقدوة .

فعن أبي محمد العسكري (ع) قال : « حدثني أبي عن آبائه عن رسول الله (ص) أنه قال : أشد من يتم اليتيم الذي انقطع عن أبيه يتم يتيم انقطع عن إمامه ، ولا يقدر على الوصول إليه ، ولا يدري كيف حكمه فيما يبتلى به من شرائع دينه ، ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا وهذا الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا يتيم في حجره ، ألا فمن هداه وأرشده وعلمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الأعلى » .

وعنه (ع) عن فاطمة (سلام الله عليها) قالت : « سمعت أبي (ص) يقول : إن علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدهم في إرشاد عباد الله ، حتى يُخلع على الواحد منهم ألف ألف حلة من نور ، ثم ينادي منادي ربنا : أيها الكافلون لأيتام آل محمد ، الناعشون بهم عند انقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمتهم ، هؤلاء تلامذتكم والأيتام الذين كفلتموهم ونعشتموهم فاخلعوا عليهم خلع العلوم في الدنيا ، فيخلعون على كل واحد من أولئك الأيتام على قدر ما أخذوا عنهم من العلوم ، حتى أن فيهم ـ يعني

في الأيتام ـ لَمَنْ يخلع عليه مائة ألف خلعة ، وكذلك يخلع هؤلاء الأيتام على من تعلم منهم » . الحديث .

وعنه (ع) قال : قال الحسن بن علي (ع) : « فضل كافل يتيم آل محمد المنقطع عن مواليه الناشب في رتبة الجهل يخرجه من جهله ويوضح له ما اشتبه عليه ، على فضل كافل يتيم يطعمه ويسقيه كفضل الشمس على السهى »[1] .

وعن الحسين بن علي (ع) « من كفل لنا يتيماً قطعته عنا محبتنا باستتارنا (أي كان سبب قطعه عنا أنا أحببنا الاستتار عنه ليكبر) فواساه من علومنا التي سقطت إليه حتى أرشده وهداه ، قال الله عز وجلّ : يا أيها العبد الكريم المواسي أنا أولى بالكرم منك ، اجعلوا له يا ملائكتي في الجنان بعدد كل حرف علمه ألف ألف قصر وضموا إليها ما يليق بها من سائر النعم »[2] .

وقال موسى بن جعفر (ع) : « فقيه واحد ينقذ يتيماً من أيتامنا المنقطعين عنا وعن مشاهدتنا بتعليم ما هو محتاج إليه أشد على إبليس من ألف عابد . الحديث »[3] .

وقال محمد بن علي الجواد (ع) : « من تكفل بأيتام آل محمد المنقطعين عن إمامهم ، المتحيرين في جهلهم ، الأُسراء في أيدي شياطينهم وفي أيدي النواصب من أعدائنا ، فاستنقذهم منهم وأخرجهم

---

(١) بحار الأنوار ج ٢ صفحة ٣ .
(٢) بحار الأنوار ج ٢ صفحة ٤ .
(٣) بحار الأنوار ج ٢ صفحة ٥ .

من حيرتهم ، وقهر الشياطين بردّ وساوسهم ، وقهر الناصبين بحجج ربهم ودليل أئمتهم ليفضلون عند الله تعالى على العباد بأفضل المواقع بأكثر من فضل السماء على الأرض والعرش والكرسي والحجب على السماء »[1] . الحديث .

﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ :

النهر هو الزجر ، فلا تنهر أي فلا تزجر .

ذكرنا أن الآية ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ ترتبط بالآية ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ . وأما هذه الآية فقد قيل إنها بمقابلة الأخيرة : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ ، وقدمت مراعاة للفواصل ، أي لا تزجر السائل على الباب إذا سألك فقد كنت فقيراً ، فإمّا أن تطعمه وإما أن ترده رداً ليناً جميلاً . وقيل إنها بمقابلة آية : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ مراعاة للترتيب ، وعلى هذا يكون معناها أنه شكر لنعمة الهداية التي شملتك وكنت ضالاً فهداك الله فلا تنهر السائل .

وقال بعض : إن المراد من السائل العلم والدين ، فلا ترده بل تجيب أسئلته . وهذا المعنى أنسب بالمقابلة مع آية : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ .

قال الشيخ عبدالرزاق الكاشاني : وأما السائل أي المحجوب الضال عن طريق مقصده الطالب إياه ، فلا تنهر ولا تمنعه عن السؤال واهده كما هديتك .

---

(١) بحار الأنوار ج ٢ صفحة ٦ .

وعلى كل حال أدب الله نبيه (ص) بأن لا يزجر السائل بل يرده رداً جميلاً ، وقد كرر هذا الأدب الإلهي في سورة الإسراء أيضاً بقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً ﴾[1] أي : وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرت بإيتاء حقوقهم بقوله تعالى : ﴿ فَآتِ ذا القُرْبَى حَقَّهُ وَالمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ . . ﴾[2] وكان الإعراض لابتغاء الفضل من ربك ، والسعة التي يمكنك معها البذل فقل لهم قولاً ليناً وعدهم عدة جميلة .

﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ :

لو قلنا بأن الآية السابقة بمقابلة آية ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ كما ذكرنا فتكون هذه الآية بمقابلة ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ .

وعلى ذلك يناسب تفسيرها : بأن بلّغ ما أرسلت به وحدّث بالنبوة والقرآن الذي آتاك الله عز وجل ، وهي أجلّ النعم ، والقرآن أعظم نعم الله فتكون بمعنى قوله تعالى : ﴿ . . فَذَكِّرْ بِالقُرآنِ . . ﴾[3] ولكن الأولى أن تبقى الآية على عمومها وشمولها لكل نعمة أنعم الله سبحانه على عبده ، فإن التحديث بالنعمة مرتبة من مراتب الشكر وهو الشكر اللساني .

وفي الدر المنثور عن البيهقي عن الحسن بن علي (ع) في قوله : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ قال : « إذا أصبت خيراً فحدّث إخوانك » .

وعن الصادق (ع) قال : « إذا أنعم الله على عبده بنعمة فظهرت

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٢٨ .
(٢) سورة الروم : الآية ٣٨ .
(٣) سورة ق : الآية ٤٥ .

عليه سمي حبيب الله محدثاً بنعمة الله ، وإذا أنعم على عبده بنعمة فلم تظهر عليه سمي بغيض الله مكذباً بنعمة لله » .



سـورة الإنشـراح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾

صدق الله العلي العظيم

قال المفسر الكبير الطباطبائي: في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت (ع) : إن « الضحى » و« ألم نشرح » سورة واحدة .

ويروى ذلك عن ابن طاووس وعمر بن عبد العزيز . انتهى .

وسيأتي نظير ذلك في سورتي « قريش » و« الفيل » ، ونبيّن هناك ما قاله الفريقان في كونهما سورة واحدة أو سورتين مستقلّتين .

روى المفسرون في شأن نزول هذه السورة والتي ما قبلها رواية عن ابن عباس أنه قال :

قال رسول الله (ص) : « لقد سألت ربّي مسألة وددت أني لم

أسأله [1] . قلت : أي ربِّ إنه قد كـان أنبياء قبلي منهم من سخّـرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتىٰ ، فقـال : ألم أجدك يتيمـاً فآويتـك ؟ قال : قلت : بلى . قال : ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ قال : قلت : بلىٰ أي ربّ . قـال : ألم أشرح لـك صدرك ووضعت عنـك وزرك ؟ قـال : قلت بلىٰ » .

وقد روى هذه الرواية صاحب كشف الأسرار بصيغـة مفصّلة قال : ورد في أخبار المعراج أنه قال لي الجبار جلّ جلاله : سل يا محمد[2] ؟ فقلت : يا رب اتّخذت إبراهيم خليلاً ، وآتيت داود ملكاً عظيمـاً وغفرت له زلّته ، وأعطيت سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وكلمت موسىٰ تكليمـاً ، ورفعت إدريس مكانـاً عليّاً ، وعلّمت عيسى التـوراة والإنجيـل وجعلته يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك . فقال لي ربي : يا محمد ، قد اتّخذتك حبيبـاً كما اتّخـذت إبراهيم خليـلاً ، وكلّمتك كمـا كلّمت موسى تكليماً ، وأرسلتك إلى كافّة الناس بشيراً ونذيراً ، وشرحت لـك صدرك ، ووضعت عنـك وزرك ، ورفعت لك ذكـرك ، ولا أذكر إلاّ ذكرت معي ، وأعطيتك سبعاً من المثاني والقرآن العـظيم ولم أعطهـا نبيّاً

---

(١) هذه العبارة ليست بمعنى أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) سأل سؤالاً في غير محله ؛ أو أنه كان مما لا يرضى الله به ، بل بمعنى أن الإنسان ربّما يسأل صديقه سؤالاً فيجيبه بأكثر ممـا يأمل ويرجو ، ويعطيه أضعاف ما سـأل ، بحيث يخجل من سؤالـه ويتمنى أن ليته لم يسـأل ؛ فهذه الرواية من هذا القبيل .

(٢) هذا الخطاب أيضاً ليس خطاباً مولوياً وليس أمراً كبقية الأوامر من السيد إلى عبده ، بل هو خطاب لطفٍ وودّ وكرامة من الله تعالى لحبيبه في تلك الليلة المباركة ليلة الوصال واللقاء ؛ ولذلك زالت هيبة الحضور وحصل له الأنس بالمحبوب ، وتجرأ على السؤال فقال (صلى الله عليه وآله) : يا رب أعطيت لكل من تشرف بهذه الشرافة وكرّمته بكرامة النبوة تحفة من تحفاتك ، وميزته بشيء من الفضائل كالخلة لإبراهيم ، وإحياء الموتى لعيسى ، وشرافة التكلم لموسى ، وهكذا بقية الأنبياء ؛ فبماذا تخصني وبأيّة كرامة تكرمني ؟ قال لي الجبار : . . .

قبلك ، وأعطيتك خواتيم سورة البقـرة ولم أعطها نبيّاً قبلك ، وأعـطيتك الكـوثر ، وأعـطيتك ثمـانية أسهم : الإسـلام والهجـرة والجهـاد والصـلاة والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر ، وجعلتـك فاتحاً وخاتماً .

والرواية مشتملة على حقائق كثيرة يـطول ذكرهـا وشرحهـا ذكرنـاها بمناسبة شأن نزول السورة وأمّا تفسير السورة :

الشرح : بمعنى الفتح والتوسيع والبسط .

والصـدر : مـا دون العنق إلى فضـاء الجـوف ويـطلق على القلب بمعنى الفؤاد واللب مجازاً .

فشرح الصدر كما قاله الراغب : أي بسطته بنـور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منه . نقل بعض المفسرين المعاصرين عن (عبده)أنه قال في تفسير هذه الآية : كان كبر الصدر عند الفرس علامة القـوة والقدرة ، وكانوا يفتخرون به والحق معهم ـ لأنه إذا كان الصدر واسعاً وكبيـراً تكون الأعضاء التي في داخله كالقلب والرئة مرتاحة وتنمو نمواً كامـلاً ، فيكون موجباً لنقوة والقدرة ، والإنسـان القويّ يتغلب على الأمـور غير المـلائمة وينتصر عليها ، ويكون دائماً نشيطاً في العمل والكلام . انتهى .

ويقـابـل شـرح الصـدر ضيقـه ، وهـو عـدم الانفتـاح في القلب ، والكسل في القول والعمل ، وقلّة التحمل للمصائب وما لا يلائم الطبع ، وقد أشير إلى كـلا هذين المعنيين في الآية الشريفة :

﴿ فَمَنْ يُـرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَـهُ يَشْرَحْ صَـدْرَهُ لِلْإِسْـلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ

يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾[1] .

قـد نـرى من النـاس من يـرغب في المبـاحث الـدينيـة والمـطالب الإسلامية والاعتقادية فيستمعون تـلك المطالب بشوق ونشاط ، ويقـرؤون الكتب الدينية بالفرح والانبساط وبغير ملل ولا كسـل ، فهذه المـرتبة من الانشراح في الصدر بالنسبة إلى هذه الأمور رائدة الهداية ومبشرة بالسعادة، وتشير إلى أن الله سبحانه أراد هدايته إلى الخير والصواب ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشـرح صدره لـلإسلام** ﴾ وعلى العكس من ذلـك : بعض آخر نراهم ليس لهم إقبال إلى هـذه الأمور ولـو حضروا في مجلس تـذكر فيـه المطالب الدينية ،سواء أكان الحضور بداع ديني أو دنيوي ، فيشـاهد في وجـوههم الكسل وعـدم الإقبال والانـزعاج من الاستمـاع أو الجلوس في مثـل هـذا المجلس ، فكـأن واحـدهم جـالس على جمـرة لا يتمكن من حبس النفس سـاعـة ، بخـلاف حضـورهم في مجـالس اللهـو ، وربمـا يجلس إنسان في مجلس يعلم بأنه ليس لله فيه رضا ولا لأوليائـه ، وليس فيه أي نفع لدينه بل لدنياه أيضاً ، والمجلس مجلس البـطّالين ، فيجلس سـاعات ولا يكـلّ ولا يملّ ، فهـذه الحـالـة ـ نعـوذ بـالله منهـا ـ عـلامـة الإضـلال ومـوجبـة لغضب الله تعـالى على العبـد ، كمـا قـال تعـالى : ﴿ **وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ** . . ﴾[2] وعـلامة للطرد عن التوجه إلى الله والقـرب منه ، كمـا أشار إلى ذلـك الإمام زين العابدين (ع) في دعـائه المعـروف بدعـاء أبي حمزة الثمـالي : « وما لي كلما قلت قد تهيأت وتعبأت وقمت للصلاة بين يديك ألقيت عليّ نعاسـاً

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٢٥ .

(٢) سورة النحل : الآية ١٠٦ .

إذا أنا صليت ، وسلبتني مناجاتك إذا أنا ناجيت ، سيدي ، لعلك عن بابك طردتني ، وعن خدمتك نحّيتني . . . . . أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطّالين فبيني وبينهم خلّيتني »[1] .

(١) دعاء أبي حمزة .

هل تفكرنا في هذا المعنى وأنه بأيّ سبب نملّ من الصلاة ولا نملّ من عمل غيرها ؟ هل هذا الملل لضعف في جسمنا وأننا لا نستطيع القيام والركوع والسجود ، مع أنا نرى من أنفسنا أنّا نقوم بأعمال جسدية أشق من الصلاة بكثير ، ونشتغل بها ساعات ولا نتعب ، وإذا قمنا نصلي ركعات من الصلاة نتعب كأننا حملنا أثقالاً كثيرة على ظهورنا ؟ فإذاً ليس السبب للتعب في الصلاة ضعف الجسم ، بل لا بدّ له من سرٍّ آخر . وقد بيّن الإمام زين العابدين ذاك السرّ فقال : « مالي . . . . إلى قوله (عليه السلام) لعلك عن بابك طردتني . . أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني. والجلوس مع البطّالين يمنع الإنسان من الجلوس مع الله ؛ الأنس بغير الله حجاب للأنس بالله ، فإن جليس المرء مثله ، جليس البطالين بطال ، وليس له أن يدخل مجلس عباد الله الذين يسبّحون الليل والنهار لا يفترون .

قال تعالى : **﴿ وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذاً مثلهم ، إن الله جامع المنافقين . . . ﴾** من جلس مع المستهزىء بآيات الله فهو مثله ، المستهزىء بآيات الله كافر ، والمسلم الجليس معه منافق . وكلاهما في النار « إنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً » .

في تفسير القمي بأسناده عن عبد الأعلى بن أعين قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس في مجلس يسبّ فيه إمام أو يغتاب فيه مسلم ، فإن الله يقول في كتابه : **﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، وإمّا ينسينّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾** . **﴿ فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلاّ الحياة الدنيا ﴾**. **﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾** . فإذا رأى الإنسان أن أحداً أو جماعة مشتغلون بهتك حرمات الله ولهم مجالس لا تتلاءم مع الأحكام السماوية ، وينظرون إلى أحكام الإسلام والقرآن وأحكام الدولة الإسلامية المتطابقة مع القرآن والإسلام بعين الاستخفاف ، فلا تجوز المشاركة معهم في مثل تلك المجالس ، ويجب الإعراض عنهم حتى يغيّروا موضوع بحثهم ويدخلوا في موضوع آخر ، وإن نسي وجلس معهم جلسة واحدة فبعد التذكر يتجنب . « فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » . هؤلاء ظالمون ، والجلوس مع الظالمين حجاب عظيم .

إن الله سبحانه يخاطب نبيه : « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى

. . . .

يخوضوا في حديث غيره » هذا الخطاب وإن كان ظاهراً موجّهاً إلى النبي ولكن المراد منه الأمة ، من قبيل إيّاك أعني واسمعي يا جارة ، كما ورد في الرواية أن القرآن نزل على « إياك أعني واسمعي . . . » فالنبي (صلى الله عليه وآله) مشرّف بالخطاب ، ولكن المخاطب الحقيقي هو الأمة ، لأن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكن يجلس في مجلس المستهزئين ليخاطب بهذا الخطاب . والعلامة الطباطبائي (قد) يشير إلى هذا المعنى أيضاً ويقول : « وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم » إلى قوله : « مثلهم » ، يريد ما نزّله في سورة الأنعام ، « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم . . » قال : ويستفاد من إشارة الآية إلى آية الأنعام أن بعض الخطابات القرآنية وجّه إلى النبي خاصة ، والمراد بها ما يعمّ الأمة ، لأنه ليس في القرآن ما يكون متكفلاً لبيان النهي عن المجالسة مع المستهزئين بآيات الله إلّا هاتان الآيتان ، وسورة الأنعام مكية ، والنساء مدنية ، فقوله تعالى في سورة النساء : « وقد نزّل عليكم في الكتاب » يكون إشارة إلى ما نزّل فاغتنم ذلك .

نعم ليس مقام القرب والقدس مقاماً لكل أحد بل هناك مقام الطيّبين لأنه مقام طيب ، ولا يدخل الطيّب إلّا الطيب ، كما ورد في الجنة ، وللعارف المعروف الشيخ فريد الدين العطار في كتابه (منطق الطير) أشعار في غاية اللطافة ، وبالطبع تفقد لطافتها إذا ترجمت وترجمتها أنه يقول :

خرج بايزيد ليلة من بلده إلى الصحراء . .
فرأى الجو خالياً من صراخ . .
ينشر القمر على الأرض نوره . .
وصار الليل منه كالنهار . .
والسماء مغمورة بنجومها . .
ومزينة بها . .
وكل في فلكه لا يبالي بشأن غيره . .
مشى الشيخ في هذه الصحراء كثيراً . .
وبالرغم من ذلك لم ير إنساناً يتحرك . .
فهاج قلبه وثار لبّه وقال : يا رب ،
قد انقلب حالي واضطرب جناني . .
جناباً بهذه الرفعة لماذا تخلى عن المشتاقين . .
ولِمَ لَمْ يعشقه أحد ؟ . .
فهتف به هاتف من الغيب :
يا حائر الطريق ، إن الملك لا يأذن بدخول كل أحد . .
قد اقتضت عزة الجناب أن يكون بعيداً عنا كل مفلس شحاذ . .

وبالجملة : شرح الصدر على مراتبه علامة هداية الله على مراتبها : **﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء ﴾** .

ولا بأس هنا من ذكر نكتة علمية ، وهي ما ذكره بعض وعدّه من المعجزات العلمية للقرآن الكريم : من أن الآية الشريفة تصرّح بأن من يصّعّد إلى السماء يجد في صدره حرجاً وضيقاً فيبتلى بعوارض الاختناق ، وقد أيّد ذلك العلم والحس ، لأن الأوكسجين في الطبقات العالية من الجو يقلّ ، وكلما كان الارتفاع عن سطح الأرض أكثر يكون التنفس بسبب قلة الأوكسجين أصعب ، ولذلك فإن الطائرات في المرتفعات من الجو تُجهَّز بالوسائل التي تعطي للركاب أوكسجيناً أكثر ليسهل عليهم التنفس .

وعلى أي حال : انشراح الصدر للإسلام علامة إرادة الله سبحانه الهداية في حق صاحبه ، كما أن ضيق الصدر علامة لإضلال الله صاحبه ، فكما أن الهداية والإضلال متقابلان كذلك يقابل انشراح الصدر ضيقه ، وقد عبّر القرآن الكريم في مورد آخر عن ضيق الصدر بالقساوة ونتيجتها أيضاً هي الضلالة ، كما أن نتيجة انشراح الصدر ـ الذي يلازم الهداية الإلهية ـ هي لين القلب . قال تعالى : **﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ**

= فإن نورنا لمّا تجلى من حريم العزة والكبرياء .
طرح عن الساحة كل غافل نائم . .
فآلاف من الناس ينتظرون . .
على الباب سنين ـ حتى يؤذن لواحد منهم بالدخول على الجناب .

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ثم قال تعالى : **﴿اللَّه نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ . . ﴾**(1) .

فنرى أن شرح الصدر يقابل قساوة القلب، وأن أثر شرح الصدر هو لين القلب والهداية ، وأثر القساوة هو الضلال ، كما أن ثمرة شرح الصدر هي نور الرب تعالى . ولعل « الراغب » أخذ معنى شرح الصدر من هذه الآية حيث نقلنا عنه بأن شرح الصدر : بسطته بنور إلهي ، ولعل هذا النور هو المشار إليه في قوله تعالى : **﴿أَوَ مَنْ كَان مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا . . ﴾**(2) فهذا النور الإلهي كما أنه يكون دليلاً لصاحبه في مشيه بين الناس وفي هذه الحياة الدنيوية فيوضّح طريقه ويميّز به ما يصلح لدينه عما يفسده ، كذلك يكون دليلاً له يوم القيامة وينّجيه من ظلمات يوم القيامة ، كما أشير إلى ذلك في قوله تعالى : **﴿يَوْمَ تَرىٰ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ . . ﴾**(3) والمؤمن بواسطة هذا النور يكون شاهداً وشهيداً يوم القيامة : **﴿وَالذِّينَ آمَنُوا بِاللَّه وَرُسُلِه أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ . . ﴾**(4) ورسول الله الذي أعطي من هذا النور السهم الأوفى بما منّ الله عليه بقوله : **﴿ألم نشرح لك صدرك﴾** ، حيث جاء بصيغة المتكلم مع الغير ، وقال « ألم نشرح » ليكون دالاً على عظمة الشارح ،

(1) سورة الزمر : الآية ٢٢ ، ٢٣ .

(2) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ .

(3) سورة الحديد : الآية ١٢ .

(4) سورة الحديد : الآية ١٩ .

وإذا كان الشارح عظيماً يكون أيضاً شرحه عظيماً لا محالة بحيث يناسب مقامه وعظمته(*) ، فيكون رسول الله الشاهد على أمته : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ . . ﴾(١) بل هو الشاهد المطلق على جميع الناس حتى الأنبياء والأولياء ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾(٢) ولا بأس بتفصيل هذا الإجمال :

إن الإنسان إذا بلغ مرتبة لا يكون فيها بينه وبين المبدأ الفياض حجاب لا من الظلمة ولا من النور ، وارتفعت جميع الحجب الظلمانيّة والنورانية بينه وبين الله ، حتى حجاب رؤية النفس الذي هو من أغلظ الحجب وأشدها خرقاً ، كما قيل : « وجودك ذنب لا يقاس به ذنب » فلا يرى نفسه ووجوده حتى يقع في حجاب رؤية النفس ويكون محجوباً به فعند ذلك يكون لهذا الإنسان الشهود المطلق على جميع الأشياء ، ويراها بعين الشهود : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ . . ﴾(٣) .

وهذا المعنى ورد في الروايات الكثيرة وأشير إليه في غير مورد من القرآن الكريم ، فإن القرآن يبيّن أولاً السؤال الجمعي والعام ، وأن يوم القيامة يوم المسؤولية لجميع الناس بالتأكيد ولا يشذ عنه أحد :

(*) ربما يلفت النظر أن موسى سأل ربّه شرح صدره وقال : ﴿ رب اشرح لي صدري . . ﴾ فأجابه الله تعالى بقوله : ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ ورسول الله (صلى الله عليه وآله) سأل ربّه الكرامة فقاله : مبتدئاً : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ فجاء بخطاب بهذه العظمة والكرامة .

(١) سورة المزمل : الآية ١٥ .
(٢) سورة الأحزاب : الآية ٤٥ .
(٣) سورة التوبة : الآية ١٠٥ .

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المُرْسَلِينَ ﴾[1] فالمسؤولية في يوم القيامة متوجهة إلى جميع الناس ، والأنبياء يومئذٍ مسؤولون : هل أديتم وظيفة الرسالة أم لا ؟ والأمم مسؤولون : هل أديتم وظيفة التابعية أم لا؟ : « ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه » و « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » . ففي يوم الاستفتاء العام بعضٌ يجيب وبعضٌ يعتذر : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوب * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ . . . ﴾[2] فيصدقه الله عز وجل في قوله واعتذاره ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ . . ﴾[3] .

فهكذا يكون بعض المسؤولين يسألون فيجيبون ويعتذرون فيقبل اعتذارهم ، وبعض يعتذرون ولا يقبل اعتذارهم ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا اليَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون ﴾[4] وبعض الناس أسوأ حالاً من هؤلاء يريدون أن يقدموا الاعتذار ولكن لا يسمح لهم بتقديم الأعذار ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُون ﴾[5] وقال : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[6] .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٦ .

(٢) سورة المائدة : الآيتان ١١٦ ، ١١٧ .

(٣) سورة المائدة : الآية ١١٩ .

(٤) سورة التحريم : الآية ٧ .

(٥) سورة المرسلات : الآية ٣٦ .

(٦) سورة النحل : الآية ٨٤ .

وعلى أي حال ، بعدما يذكر القرآن أن يوم القيامة هو يوم السؤال العام ، وجميع الناس فيه مسؤولون ، سواء فيهم الأنبياء وأممهم : ﴿ ولنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ . فيكون الأنبياء شهداء على أممهم ، ويكون رسول الله (ص) شاهداً على الأنبياء مضافاً إلى شهادته على أمته . ففي سورة النساء عرِّف رسول الله كشاهد على الأنبياء وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾[1] يعني كيف يكون الحال في يوم يأتي شهيد من كل أمة قد كان شاهداً على الوضع وعالماً بعقائد الأمة وأخلاقياتها وأعمالها ، وتحمل هذه الشهادة حقائق أعمال الناس في الدنيا من سعادة أو شقاء وردّ وقبول وانقياد وتمرد ، وأداء ذلك في الآخرة يوم يستشهد الله كلّ شيء حتى أعضاء الإنسان : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . ﴾[2] . وبعد أن نأتي من كل أمة بشهيد وهو نبيّ تلك الأمة ، فنحضر هؤلاء الشهداء ونحضرك يا رسول الله شهيداً على الشهداء ، فأنت شهيد بلا واسطة وشهيد مع الواسطة ، أنت يا رسول الله تعلم ما فعل الناس وما فعلت الأمة وما فعل أئمتهم وما فعل الأنبياء : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد ﴾ ليشهد في محكمة أمته ومحاكمتها ويشهد لهم وعليهم : ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ ، ونحضرك شاهداً على الكل ، كرئيس المحكمة العليا لتكون شاهداً على الأنبياء وعلى أممهم ، لتشهد أن الأنبياء احترموا رسالتهم وأدّوا وظيفتهم الرسالية وتشهد أن الأمة أدت وظيفتها ؛ وفي

---

(١) سورة النساء : الآية ٤١ .

(٢) سورة فصّلت : الآية ٢١ .

سورة البقرة أيضاً عرّف الله سبحانه نبيه كشاهد على الجميع قال : ﴿ وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً . . ﴾[1] .

الشهيد لا بد له من مرحلتين ، الأولى حين الحادثة والثانية عند الحكم بالشهادة . فللشهيد مقامان مقام التحمل ومقام الأداء ، ففي الشهادات الحصولية في هذه الدنيا التي شهد الشاهد بالعلم الحصولي في المحاكم الدنيوية والشرعية يكون الشهيد أولاً حاضراً في الساحة فيدرك ما حدث بحواسه ، ولذلك قال (ص) بعد ما أشار إلى الشمس : «بمثل هذا فاشهد أو دع » وهذا يعني أن الشهادة لا بد أن تكون على شيء يكون في الظهور كالشمس ، ففي مقام التحمل والعلم يكون معلوماً كالشمس في رابعة النهار ، وبمثل ذلك يشهد الشاهد في مقام أداء الشهادة ، فإذا لم يكن الشاهد حاضراً في الحادثة ولم يتحمله من طريق العلم والحس فليس له أن يقوم في مقام أداء الشهادة ، ولكن لو كان حاضراً في الحادثة فيحضر عند الحاكم ليشهد بما رأى وعلم ، وهذا هو أداء الشهادة ، وأمّا الحضور في الساحة القبلية فهو تحمل الشهادة ، فهل المحكمة الإلهية في يوم القيامة من هذا القبيل فتؤدىٰ فيها الشهادة بالعلم الحصولي والشهود المتعارفة بيننا ، أو أن الشهادة في ذلك اليوم تكون على أساس العلم الحضوري والشهود العيني ، بحيث تشهد الأيدي والأرجل أيضاً وتشهد الأعضاء والجوارح وتشهد نفس الساحة التي وقع فيها العمل ، والمكان الذي كان ظرفاً للحادثة ، ويشهد كل ما كان مصاحباً للحادثة ؟

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

هل المحكمة الإلهية يوم القيامة أن الله تعالى يستشهد فيشهد جمع بعلمهم الحصولي وبالتصورات والتصديقات أو بشهادة التقارير والملفات ؟ أو أن الشهادة يوم القيامة شهادة حضورية ، وفي ذلك اليوم الذي قد تغير فيه نظام الكون فلا يوجد نور لا للشمس ولا للكواكب لأن الشمس قد كورت والنجوم قد انكدرت وبدلت الأرض غير الأرض والسموات مطويات بيمينه وليس هناك نور إلا نور الرب تعالى ؟ ﴿ **وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾[1] قد وضع كتاب أعمال الأولين والآخرين ، والأنبياء والشهداء محضرون ليحكم بالحق ، فالشهادة في ذاك اليوم أي نوع من الشهادة ، وكيف تكون هذه الشهادة ؟ تشهد عليهم ألسنتهم ، هذه الشهادة ليست بحركة اللسان وبألفاظ يقيناً ، لأن الأفواه مختومة : ﴿ **اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ** . . ﴾[2] اللسان يشهد بالشهادة التي تشهد بها الأيدي والأرجل ، والإنسان يعترض على أعضائه : ﴿ **لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا** ﴾ فالجلود تشهد : ﴿ **وَقَالوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا** ﴾ فيجيبون : ﴿ **أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ .

فالشهادة في ذلك اليوم ليست شهادة بالتصور والتصديق الحاصلة من العلم الحصولي ، بل هي شهادة حضورية حاصلة من الإحاطة بمتن الحادثة وظهور العمل وإحضار العمل ، وإشراف على متن الحادثة وإحاطة بالعمل والعامل ؛ فالعلم الحصولي في الدنيا يتبدل بالعلم

(١) سورة الزمر : الآية ٦٩ .

(٢) سورة يس : الآية ٦٥ .

الحضوري في الآخرة ، فالشهداء في الدنيا بإشرافهم على أعمال الناس وأخلاقياتهم وعقائدهم يشهدون بإذن الله في الآخرة ، والرسول شهيد على الشهداء ، وهو أسوة أيضاً ، فلا بد للأمة أن تتأسى بنبيّها فتصل إلى مقام الشهادة ، أي الإشراف على الأعمال والعقائد .

لقد جعل الله سبحانه هذه الشهادة أبرز خطوط التأسيّ بالنبي : ﴿ وَكَذٰلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَىٰ النَّاسِ ﴾ . فكما أن الرسول بإشرافه وإحاطته على الكل شهيد على الكل فأنتم يا أمة هذا الرسول جعلكم الله في مقامٍ تستطيعون أن تكونوا فيه شهداء على الناس باقتدائكم بالأسوة ، وهذا معنى : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءُ عَلَىٰ النَّاسِ ﴾ فكما أن الرسول باطّلاعه على الظواهر والبواطن شهيد على الأولين والآخرين ، كذلك الأمة لها أن تصل إلى هذا المقام لتكون شهيدة على الناس . فالآية تخبر عن الاستعداد والشأنية لا الفعلية .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَىٰ العَالَمِينَ ﴾[1] وليس معناه أن يهودياً أشرف وأفضل من العالمين ، بل بمعنى أن التوراة التي فيها حكم الله : ﴿ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ تَماماً عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً . . ﴾[2] إذا عمل قوم اليهود بما أُنزل فيها يكون لهم الفضل على العالمين ، وهكذا دين الإسلام له هذه المقدرة : أن يربّي الشهداء على الناس ، والرجل المسلم نتيجة اتّباعه الدين والاقتداء بأسوته يبلغ درجةً يكون فيها عالماً

---

(١) سورة البقرة : الآية ٤٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٥٤ .

بالظواهر والبواطن والخفايا والأسرار ، كما ورد في حق سلمان « أنه أُوتي علم البلايا والمنايا » وهذا من الإمكان بمكان ، فإنّ الروح إذا تخلت عن المعاصي تكون منوّرة بنور الله . والمعاصي كما ذكرنا حجب للنور وتمنع من دخول النور في القلب ، سأل رجل أمير المؤمنين (ع) : إني حرمت من صلاة الليل ، فقال (ع) : « قيدتك ذنوب يومك » .

ذنب النهار حجاب الليل . قال علي بن الحسين (ع) : « وإنك لا تحتجب عن خلقك إلا أن تحجبهم الأعمال دونك » فمن سلك سبيل الشهادة بطهارة قلبه وروحه فيلحق بالشهداء : ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ والشُّهَدَاءِ . . ﴾ فيكون شاهداً على الناس يرى أعمالهم ويطّلع على نياتهم كما قال (ع) : « اتّقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ونور الله لا يخلو منه شيء : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأرضِ . . ﴾[1] والمؤمن هو الذي ينظر بنور الله حيث إن نور الله قد ملأ السموات والأرض ، فالمؤمن بمقدار سعة وجوده يحيط بالأشياء والخواطر والقلوب حتى يشهد يوم القيامة ويكون شهيداً ، ولا بد من تخلية القلب من الأوصاف الرذيلة ، ثم تحليته بالملكات الحسنة ، لأن الأصل في العصيان والإطاعة هو القلب وهو المناط والمحور في المسؤولية : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ . . ﴾[2] المؤاخذة للقلب والمسؤولية عليه ، والعمدة في الذنب هي عمل القلب ، والأعمال بالنيّات لأنها هي العمدة ، والإثم والذنب للقلب بالأصالة ولسائر

---

(١) سورة النور : الآية ٣٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٢٥ .

الأعضاء بالتبعية ، كما قال تعالى في كتمان الشهادة الصورية والعلم الحصولي : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ . . ﴾[1] .

القلب هو الذي يأثم ، والأعضاء آلاته وأسبابه في الإثم والمعصية ، والآثم الحقيقي هو القلب ، والمجرم الأصلي حقيقة الإنسان ، والأعضاء مستخدمة للقلب ولذلك في القيامة حينما تنطق الأعضاء يعبر عن نطقهم بالشهادة : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم** ﴾ ، والإنسان يقول لجلده لم شهدت عليّ : ﴿ **وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا** ﴾ ، **فنعلم من ذلك أن المجرم الحقيقي هو حقيقة الإنسان وذاته ، وأمّا الأعضاء فليست مجرمةً** حقيقيةً بل هي **مسخرّة للقلب ومؤتمرة بأمره ، وإلا فإن كانت الأعضاء** مجرمة حقيقية **فنطقها يوم القيامة لا يكون شهادة بل يكون اعترافاً وإقراراً** ، لأن الفرق **بين الإقرار والشهادة** هو أن المتهم لو تكلم وقَبِل الحادثة وصدّق بها **يكون هذا التكلم اعترافاً وإقراراً** ، وإذا تكلم الغير عن الحادثة فيكون **شهادة** ، وحيث إن الأيدي والأرجل لا تعترف بل تشهد فيعلم من ذلك أن المجرم والمسؤول الحقيقي غيرها وهو الروح والقلب : ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** ﴾ ، فالمجرم الواقعي هو الروح ، وإنما الأيدي والأرجل آلات للجرم ، ولذلك يشهدون على المتهم ، والروح تعترف بجرمها : ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[2] .

وبالجملة : ما لم تتخلَّ الروح عن المعاصي والذنوب ولم تتحلَّ بالملكات والأخلاق الحسنة ولم تتجلَّ بنور إلهي ـ الأصول الثلاثة

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٣ .

(٢) سورة الملك : الآية ١١ .

للكمال : تخلية تحلية تجلية ـ لم يحصل له الانشراح الذي تتبعه الهداية الإلهية كما في الحديث : « إذا دخل النور في القلب انشرح » .

وفي المجمع عن النبي (ص) أنه قيل له : « أينشرح الصدر ؟ الظاهر أن المراد من هذا السؤال أنه هل لنا أيضاً نصيب من هذه النعمة التي خصّك الله بها ؟ وإلا فلا معنى للسؤال عن أصل الانشراح بعد قوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ . قال (ص) : نعم ، قالوا : يا رسول الله فهل لذلك علامة ؟ قال : نعم ، التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإعداد للموت قبل نزوله » .

ولذلك ورد هذا المضمون في الدعاء : « اللهم ارزقنا التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل حلول الفوت » .

ثم إن أكثر المفسرين من العامة فسروا قوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ بمعناه الظاهر من شرح الصدر وهو : كما في المنجد شرح اللحم : قطعه قطعاً طوالاً .

وقال صاحب تفسير روح البيان : وأما شرح الصدر الصوري فقد وقع مراراً : مرة وهو ابن خمسٍ أو ستٍ لإخراج مغمز الشيطان ، وهو الدم الأسود الذي به يميل القلب إلى المعاصي ويعرض عن الطاعات ، ومرة عند ابتداء الوحي ، ومرة ليلة المعراج، ثم يذكر رواية مضمونها : أن في ليلة المعراج أسندني جبرئيل وشق بطني من أعلى الصدر إلى السرة ، وجاء ميكائيل بطست من ماء زمزم فغسلوا به داخل صدري وعروق حلقي ، وأخرج جبرئيل قلبي وشقه وغسله ، وبعد ذلك كله

جاؤوا بطست من ذهب مملوء من الحكمة والإيمان وملأوا قلبي بالإيمان والحكمة ثم ردّوه إلى مكانه قال : وفي حديث آخر : إنهم ختموه بخاتم أجد راحته ولذّته في عروقي ومفاصلي إلى الآن .

وقال الميبدي في تفسيره : وفي الخبر أن رسول الله (ص) شق صدره لحلقه ثم أخرج قلبه وشق واستخرج منه مثل العلقة السوداء ورمي به ، وغسل بالماء والثلج من الجنة ، ثم حشي نوراً وحكمة وإيماناً ثم أعيد مكانه ، وكان أثر الخرز بصدره ظاهراً[1] ، فعل به ذلك في صباه وهو مع ظئره[2] حليمة بنت أبي ذويب بأرض هوازن في بني سعد بن بكر نهاراً وهو مع أخ له صبي من ظئره في البهم[3] . نزل عليه ملكان كأنهما طيران ففعلا به ذلك ، والمرة الثانية ليلة الإسراء قبل أن يصعد به ، وغسل بماء زمزم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ .

وفي الدر المنثور كما في الميزان : أخرج عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبيّ بن كعب أن أبا هريرة قال : يا رسول الله ، ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله جالساً وقال : لقد سألتَ أبا هريرة إني لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهراً إذا بكلام فوق رأسي ، وإذاً برجل يقول لرجل : أهو هو ، فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها في خلق قط ، وثياب لم أجدها على أحد قط ، فأقبلا إليّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما

(١) في المنجد ذكر معان للخرز أنسبها للمقام ما قال : فصوص من الحجارة فينطبق على الخاتم الذي ذكرناه .

(٢) مع ظئره : مع مرضعته .

(٣) البهم : لعله اسم مكان .

دعماً ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه ، فأضجعني بلا قصر ولا هصر[1] ، فقال أحدهما : افلق صدره فحوّى[2] أحدهما إلى صدري ملقه حينما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغِلّ والحسد ، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلي اليمنى وقال : اغد واسلم ، فرجعت بها أغدو بها رقة على الصغير ورحمة للكبير - انتهى -

قال الطباطبائي(قده) : والقصة على أي حال من قبيل التمثل بلا إشكال ، وقد أطالوا البحث في توجيه ما تتضمنه على أنها واقعة مادية ، فتحملوا بوجوه لا جدوى في التعرض لها بعد فساد أصلها .

﴿ ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ﴾ :

الوزر في اللغة بمعنى الحمل الثقيل ، ومنه الوزير لأنه يحمل ثقل إدارة الأمور ، ويطلق على الذنب أيضاً بهذه العناية ، فإن الذنب لصاحبه كحمل ثقيل لحامله .

قال (ص) في خطبته الشعبانية : «أيها الناس إنّ ظهوركم ثقيلة بأوزاركم فخففوها بطول سجودكم » .

والنقض بمعنى الكسر . وانقضّت العُقاب صوتت ، وأنقض الحمل الظهر: أثقله. كذا في المنجد . والظاهر أن معناه الحقيقي هو الكسر ويستعمل في غيره مجازاً ، كما أن الاستعمال في الآية الشريفة

---

(١) ولا هصر : بلا غمز .

(٢) حوّاه : أي قبضه .

بتجوز ، وإن الله سبحانه بعنايته وتأييده خفف على نبيه ثقل أعباء النبوة ، فبشرح الصدر تحمل أذى الكافرين والمشركين والمنافقين حيث قال : « ما أوذي نبي قط مثلما أوذيت » .

فكأن الآيات مترتبة ، فشرح الصدر سببٌ لوضع الوزر ، ووضع الوزر والتحمل للمسؤولية وحمل أعباء النبوة صار موجباً لرفع ذكره ، أو أنها مترتبة من حيث الزمان كما احتمله صاحب الميزان . وإن الآيات ظاهرة في الانطباق على حاله (ص) في أوائل دعوته وأواسطها وأواخرها ، وإن كان ذلك ينافي كون الآيات مكيّة لظهورها في الفعلية ، وهذا المعنى الذي ذكرناه في الآيتين ظاهر ، ولا نحتاج إلى ما ذكره بعض المفسرين من تفسير الوزر بمعنى الذنب ، ثم توجيهه بأنه كناية عن عصمته من الذنوب وتطهيره من الأدناس ، فيكون كقول القائل : رفعنا عنك مشقة الزيارة ، لمن لم يصدر عنه زيارة قط . وفي التوجيه والتمثيل نظر ، لأن قول القائل : رفعنا عنك مشقة الزيارة بمعنى : إنّا لم نكلّفك بالزيارة التي لو تحققت لكان فيها مشقة ، والآية ـ حيث إنها متلوّة بقوله تعالى : ﴿ **الذي أنقض ظهرك** ﴾ ، الظاهر في تحقق الوزر من جهة بيان أثره ـ لا تتحمل المعنى المذكور إلا على خلاف الظاهر .

﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾ :

من اللطف وقوع الرفع بعد الوضع ، كما نبّه عليه الطباطبائي ، رفع الله سبحانه ذكر نبيّه عن مستوى غيره من الناس والأنبياء ، جميع الناس من العلماء والحكماء والفلاسفة في العالم يحترمونه ويخضعون لاسمه ومِن رَفْعِ اسمه (ص) أن الله سبحانه قرنه باسمه ، وفي القرآن الكريم لا يوجد مورد يأمر الله سبحانه بطاعته إلا وأردفه بإطاعة الرسول ،

فقال : ﴿ أطيعوا الله ورسوله ﴾[1] و ﴿ أطيعوا الله والرسول ﴾[2] .

واسمه قرين اسم ربه في الشهادتين اللتين هما أساس دين الله ، وعلى كل مسلم أن يذكره في كل يوم في الصلوات : في تشهده وفي الأذان والإقامة على المآذن وفي الجماعات . وقد ثقل ذلك على المنافقين الذين دخلوا الإسلام كرهاً كمعاوية وأبيه وأمثالهما ، كما يذكر المسعودي قال مطرف بن المغيرة بن شعبة : وَفدت مع أبي المغيرة إلى معاوية ، فكان أبي يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف إليّ ، فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب مما يرى منه ، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العَشاء ، فرأيته مغتمّاً ، فانتظرته ساعة ، وظننت أنه لشيء حدث فينا أو في عملنا ، فقلت له : ما لي أراك مغتماً منذ الليلة ؟ قال : يا بني ، إني جئت من عند أخبث الناس ، قلت له : وما ذاك ؟ قال : قلت له وقد خلوت به : إنك قد بلغت منايا أمير المؤمنين ، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً فإنك قد كبرت ، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه ، فقال لي : هيهات هيهات !! ملك أخو تَيْمٍ فعدل وفعل ما فعل ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، إلاَّ أن يقول قائل : أبو بكر . ثم ملك أخو عديّ ، فاجتهد وشمّر عشر سنين ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، إلا أن يقول قائل : عمر. ثم ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه ، فعمل ما عمل [وعمل به] فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، وذكر ما فُعلَ به ، وإن أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات :

(١) سورة الأنفال : الآية ٢٠ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٣٢ .

أشهد أن محمداً رسول الله ، فأي عمل يبقى مع هـذا ؟ لا أمّ لك ؛ والله إلا دفناً دفناً[1] .

ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون .

يقول حسان بن ثابت :

وضم الإلـه اسم النبي إلى اسمـه إذا قـال في الخمس المؤذن أشهد
وشـق لـه مـن إسـمـه لـيـجـلّه فـذو العرش محمـود وذاك محمـد

وقيـل : ﴿ ورفعنا لـك ذكرك ﴾ عنـد الملائكـة في السماء ، كمـا يشيـر إلى ذلـك قـولـه تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَـلاَئِكَتَـهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ النَّبِيِّ . . ﴾[2] .

وقيل : رفعه بأخذ ميثاقه على النبيّين وإلـزامهم الإيمان بـه والإقرار بفضله . وقال ذو النون المصري هِممُ الأنبياء تجول حول العرش ، وهمة محمد فوق العرش ، لذلك قال : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ .

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميدج ٤ ص ٤١ .
يقول ابن أبي الحديد : إنه ، أي معاوية مطعون في دينـه عند شيـوخنا يـرمى بالـزندقة. وروى أحمد بن أبي طاهر في كتاب أخبار الملوك أن معاوية سمع المؤذن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله فقالها ، فقال : أشهد أن محمداً رسول الله فقـال : لله أبوك يـابن عبد الله لقـد كنت عالي الهمـة ما رضيت لنفسـك إلا أن تقرن اسمـك باسم رب العـالمين ؛ لا نـريـد أن نـدخـل في فضائل ! معاوية فإنها لا تحصى ، ويكفيك ما كتب إليه أمير المؤمنين (عليـه السلام) : « إن بيعتي شملت العـام والخـاص ، وإنمـا الشـورى للمؤمنين من المهـاجـرين الأولين السـابقين بإحسان من البدريين ، وإنما أنت طليق ابن طليق ، لعين ابن لعين ، وثن ابن وثن ، ليس لك هجرة ولا سابقة ولا منقبة ولا فضيلة ، وكـان أبوك من الأحـزاب الذين حـاربوا الله ورسـوله ، فنصر الله عبده وصدق وعده وهزم الأحزاب وحده . إلى آخر ما كتب (علي السلام) .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٥٦ .

﴿ فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً ﴾ :

في الآية الشريفة نكات لا بد من التنبيه إليها :

الأولى : كون العسر معرّفاً بالألف واللام ، واليسر نكرة ، والألف واللام وإن كانت للاستغراق ولكنها تجعل الكلمة معرفة ، وهذا بخلاف لفظ « كل » فإنه يبقي المدخول على تنكيره . فالفرق بين قولنا : إن مع العسر يسراً ، وقولنا : إن مع كل عسر يسراً أن العسر في الأول معرفة وفي الثاني نكرة ، فعلى هذا : العسر في الآية لعله إشارة إلى الأمور المعينة المذكورة في هذه السورة والسورة التي قبلها ، وأما كون اليسر بلفظ النكرة فيدل على عظمة اليسر الذي يكون بعد العسر .

الثانية : تكرار الآية الشريفة ، وإنه للتأكيد والتثبيت كما ذكره الطباطبائي ، وقيل : إن في الآيتين دلالة على أن مع العسر الواحد يسران ، وذلك لأن المعرفة إذا كرّرت في الكلام لا يستفاد من التكرار التعدد بل تكون الثانية والثالثة عين الأولى ، وهذا بخلاف النكرة : فإن تكرارها يدل على التعدد كما إذا قيل : جاءني الرجل وأكرمت الرجل ، يستفاد أن الإكرام تعلق بالرجل الذي جاء ، وهذا بخلاف قولك : جاءني رجل وأكرمت رجلاً فيدل على أن متعلق الإكرام غير الذي جاء ، ويمكن أن تكون الرواية المرويّة عن النبي (ص) إشارة إلى هذا لو كانت صحيحة . ففيها أنه خرج النبي (ص) يوماً مسروراً وهو يضحك ويقول : « لن يغلب عسر يسرين ، إن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً » ولكن ذكر الفخر أن القاعدة ليست مطّردة .

الثالثة : إن الآية الأولى مصدرة بالفاء بخلاف الثانية ، وذلك لعله

لدفع ما ربما يتوهم أن استتباع العسر اليسر يختص بالنبي (ص) وليس لغيره فيه نصيب ، فالآية الثانية تؤكد شمول القاعدة وعموميتها .

الرابعة : إن الآية الشريفة وإن كانت تتحمل ما ذكرنا من استتباع العسر اليسر إلا أن الدقة فيها تعطي أن اليسر متقارن مع العسر لا أنه يستتبعه ، وإلا لكان الأنسب أن يقول : إن بعد العسر يسراً ، وهذا المعنى - أي مقارنة اليسر العسر - يتم بالنظر إلى ما وعد الله سبحانه الصابرين في البأساء والضرّاء ، وبشرهم بالصلوات والرحمة والفلاح . ولا ريب أن هذه الأمور تقارن العسر مقارنة المعلول العلة والمسبب السبب ، وبعد ذكر هذه النقاط نقول :

الظاهر أن هذه الآية في مقام بيان العلة والسبب للآيات السابقة ، بمعنى أن النبي (ص) أعطي شرح الصدر ووضع عنه الوزر الذي أنقض ظهره ورفع له ذكره ، كل ذلك ليس بحكم الصدفة بل جرياً على السنة الإلهية والقاعدة السماوية التي شملت جميع المؤمنين والموحدين ، وهي أن البلايا والشدائد لا تدوم في هذا العالم ، بل يتعقبها الفرج والرخاء ؛ فالآيات مع أنها سيقت لتسلية النبي (ص) تشجع في نفس الوقت المسلمين والمستضعفين أن لا يخافوا من الصعوبات في طريقهم ولا ييأسوا من حصول المقصد لكثرة المشاكل في مسيرهم ، بل أن يكونوا مطمئنين بفضل الله وعنايته ، ويثقوا بنصر الله تعالى ويتأسّوا بنبيهم الأكرم الذي جعله الله أسوة لنا: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1] فإن اليأس مفتاح كل شر ، والأقوام التي تحكمت فيهم روحية اليأس محكومة

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢١ .

بالفناء والزوال ، ولكن المسلم الذي تربّى بالتربية الإسلامية ليس لليأس في نفسه مجال : ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[1] . بل يرى موته حياة وانهزامه انتصاراً ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾[2] ويستفاد هذا من النكتة الرابعة التي ذكرناها في الآية : ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ ، ولذلك فإن أمير المؤمنين (ع) لما ضرب في محراب عبادته على أمّ رأسه قال : « فزت وربِّ الكعبة » ففي الوقت الذي يتألم من الضرب والجرح يجد في نفسه فرحاً واطمئناناً بما وعده الله ويراه فوزاً عنده .

وورد في حق أصحاب الحسين (ع) أنه لا يمسّهم ألم الحديد .

والمسلمون في الصدر الأول الذين حطّموا الطواغيت وكسروا الأصنام كانت روحيّاتهم هكذا ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . قال أمير المؤمنين (ع) : « ولقد كنا مع رسول الله نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومضيّاً على اللقم[3] ، وصبراً على مضض الألم[4] ، وجداً في جهاد العدو ، ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدونا يتصاولان[5] تصاول الفحلين يتخالسان أنفسهما[6] أيهما يسقي صاحبه كأس المنون ، فمرّة لنا من عدونا ومرة

---

(١) سورة يوسف : الآية ٨٧ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٥٢ .

(٣) اللقم : بالتحريك معظم الطريق أو جادّته .

(٤) مضض الألم : لذعته .

(٥) يتصاولان : أي يتواثبان . صال عليه : أي وثب .

(٦) يتخالسان : أي كل يطلب اختلاس روح الآخر .

لعدونا منا ، فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت[1] وأنزل علينا النصر ، حتى استقر الإسلام ملقياً جرانه[2] ومتبوّئاً أوطانه ، ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم ما قام للدين عمود ولا اخضرّ للإيمان عود ، وايم الله لتحتلبنّها دماً ولتتبعنّها ندماً » .

﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ :

ذكر المفسرون للفعلين « فرغت » و« فانصب » متعلقات بعد اتفاقهم على أن النصَب بمعنى التعب ، أي أتعب نفسك .

قال ابن عباس : إذا فرغت من صلاتك فانصب إلى ربك بالدعاء وأنت جالس قبل أن تسلّم .

وقال قتادة : أمره إذا فرغ من صلاته أن يبالغ في دعائه ، وقول قتادة أولى من قول ابن عباس لما في قول ابن عباس من التهافت بين الصدر والذيل ، فإن الفراغ من الصلاة لا يناسب الدعاء قبل السلام إلا بتوجيه بعيد ، كالقول بأن السلام خارج عن الصلاة ، أو أن المراد من التسليم ليس السلام الصلاتي بل هو كناية عن التكلم مع الناس ، وكلاهما كما ترى .

وقال الحسن : إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك ، وهذا ضعيف أيضاً ، فإن الجهاد من أعظم العبادات فلا يستقيم المعنى المذكور .

وقال مجاهد إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب في عبادة ربك وصلِّ.

---

(١) الكبت : الذل والخذلان .

(٢) جران البعير ، بالكسر : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره .

وهذا أيضاً معنى سخيف ، فإنه يُسأل : ما المراد من أمر الدنيا وما معنى الفراغ منه ؟ هل المراد من أمر الدنيا الأكل والشرب والنكاح والنوم والكسب والعمل وأمثال ذلك ؟ فحينئذٍ لا يبقى مجال للفراغ منه ، أو بعض هذه الأمور دون بعض فتخصيص من غير مخصص ، مضافاً إلى أن الأنبياء والأولياء لا ينفك اشتغالهم بالأمور الدنيوية عن العبادة والتوجه إلى الله ثم إذا كان متعلّق فانصب في عبادة ربّك فما وجه تخصيص العبادة بالصلاة ؟ .

وقال الكلبي إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب ، أي : استغفر لذنبك وللمؤمنين . وهذا القول لا بأس به في الفعل الأول أي فرغت ، ولكنه ضعيف في الفعل الثاني .

وقال الطباطبائي قدس سره : فإذا فرغت مما فرض عليك فأتعب نفسك في الله بعبادته ودعائه وارغب فيه ؛ ولعل هذا القول أحسن الأقوال المذكورة ، وأحسن منه ما اختاره المحدث الجليل الفيض رضوان الله عليه في الصافي بقوله : « يعني إذا فرغت من عبادة عقّبها بأخرى وأوصل بعضها ببعض ، ولا تخلّي وقتاً من أوقاتك فارغاً لم تشغله بعبادة » . انتهى .

وهذا المعنى معنى عام شامل يناسب شأن القرآن وتعاليمه العالية ، ولا ضرورة لتعيين المتعلق كما في كثير من الموارد : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾(١) . وحاصل ما ذكره الفيض : النهي عن الفراغ عن العمل ، فإن فيه مضافاً إلى تجميد رأس المال

---

(١) سورة الزمر : الآية ٩ .

للسعادة وهو العمر وعدم الاستفادة منه يـلازم غالباً التضييع لـه والخسران فيه : فإن أكثر التخطيطات المهلكة من السرقة والجناية وركوب الشهوات وغيرها نتيجة حالة الفراغ للإنسان كما قيل :

إن الشباب والفراغ والجِـدَة   مفسـدة للمـرء أي مفســدة

وأما إذا كان الإنسـان مشغولاً بعمـل إلهي فلن يتوجـه فكره وذهنـه إلى الأمـور الدّنيـة التي فيها هـلاكـه وخسـرانـه ، ونقـل عن علي (ع) : « املكوا أنفسكم بدوام جهادها » .

فبنـاء على ذلك : مـا قيل في متعلقـات الفعلين غثّها وسمينهـا من المفسـرين ، وكذلـك ما ورد عن الأئمـة (ع) في الروايـات فهو من بـاب تعيين المصداق ، كما ورد نظير ذلك كثيراً في الروايات .

وهنا معنى آخر للآية ذكرته الروايات الكثيرة من الكافي وغيـره يدل على أن المراد من الأمر بالنصب : نصب عليّ للخلافة .

منها ما في الكافي عن الصادق (ع) في حديث قال : يقـول : فإذا فرغت فانصب علمـك وأعلن وصيّك فـأعلمهم فضله علانيـة ، فقال من كنت مولاه فعلي مولاه. . الحديث. قال ذلك حين أعلم بموتـه ونعيت إليه نفسه .

والقمي قـال : إذا فرغت من حجـة الوداع فـانصب أميـر المؤمنين علي بن أبي طالب .

وعن محمد بن الحسن الصفار بـإسناده عن أبي عبـدالله (ع) قال : قوله : « **فإذا فرغت فانصب وإلى ربّك فـارغب** : كان رسـول الله حاجـاً فنزلت : فإذا فرغت من حجتك فانصب علياً للناس » .

وعن زينة أبي حاتم الرازي أن جعفر بن محمد (ع) قرأ : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ ، فإذا فرغت من إكمال الشريعة فانصب علياً لهم إماماً .

وغير ذلك من الروايات التي يطول ذكرها . بل يستفاد من عدةٍ من الروايات أن السورة بتمامها نزلت في هذا المجال ، كما عن أبي عبدالله جعفر بن محمد(ع) . قال : قال سبحانه وتعالى : ألم نشرح لك صدرك بعليّ ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك . . . فإذا فرغت من نبوتك فانصب علياً ، وإلى ربك فارغب في ذلك .

وروى ابن شهر آشوب عن الباقر والصادق (عليهما السلام) في قوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ : ألم نعلمك من وصيك فجعلناه ناصرك ، ويذلّ عدوك الذي أنقض ظهرك ، وأخرج منه سلالة الأنبياء الذين يهتدى بهم ، ورفعنا لك ذكرك فلا أذكر إلا ذكرتك معي ، فإذا فرغت من دينك فانصب علياً للولاية يهتدي به الفرقة .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ﴾ : أي قوّى ظهرك بعلي بن أبي طالب ، وغير ذلك من الروايات . والعجب كل العجب من المفسر الكبير الطباطبائي قدس سره كيف لم يذكر هذا المعنى في تفسيره الآيات ، ولا أقل من ذكره في بحثه الروائي كما هو دأبه ، ولا أعرف لهذا وجهاً سوى ما يمكن أن يقال : إن المستفاد من هذه الروايات أن قوله تعالى فانصب بكسر الصاد فإن النصب بمعنى الرفع والوضع يكون مضارعه مكسور العين ، وهذا على تقدير صحته لا يمنع من ذكره وذكر رواياته ، فإنّ اختلاف القراءات في

القرآن كثيرة ، فليكن المورد أيضاً منه ، فما عذر تركه بعد ورود الروايات وصحة بعضها ؟ .

هـذا ومن المحتمل جـداً أن تكون القـراءة بالكسـر أصح ، وإنمـا تركت لما فيها من علامة السؤال ، ويؤيد هـذا الاحتمال مـا رواه البرسي يرفعه إلى المقداد بن الأسود الكندي قال : كنّا مع رسـول الله وهو متعلق بأستار الكعبة ويقول : اللهم اعضد لي واشدد أزري واشـرح لي صدري وارفع ذكري . فنزل عليه جبرئيل فقال ، اقرأ يـا محمد : ألم نشـرح لك صدرك يا محمد ، ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ، ورفعنا لـك ذكرك بعلي صهرك ، قـال فقرأ النبي (ص) وأثبتهـا ابن مسعود وانتقصهـا عثمان .

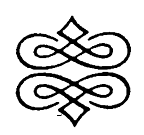
ملاحظة : ليس هذا من التحريف الممتنـع في القرآن أو المجمـع على بطلانه ، فإنه يحتمل أن يكون بعد نزول السورة ، وإنما أمر جبرئيل رسول الله بالقراءة هكذا تبشيـراً لاستجابـة دعائـه ، ويؤيد هـذا الاحتمال قول جبرئيل اقرأ يا محمد . فتدبّر جيداً .

وممـا يعجبني ذكره مـا قالـه الزمخشـري في كشافـه . قـال : ومن البـدع ما روي عن بعض الـرافضة أنـه قـرأ فـانصب بكسـر الصـاد ، أي فانصب علياً للإمامة . قال : ولو صحّ هـذا للرافضـي يصح للنـاصبي أن يقرأه هكذا ، ويجعله أمراً بالنصب الذي هو بغض علي وعداوته .

وقـال المحدث الخبيـر الفيض (قده) بعـد نقله هذا الكـلام عنه ، أقول : نصب الإمام والخليفة بعد تبليغ الرسالة أو الفـراغ من العبادة أمـر معقول بل واجب ، لئلا يكون الناس بعده في حيرة وضلال ، فيصـح أن يترتب عليه ، وأما بغض علي وعداوته فما وجه ترتبه على تبليغ الـرسالـة

أو العبادة ، وما وجه معقوليته ؟ على أن كتب العامة مشحونة بذكر محبة النبي لعلي وإظهاره فضله للناس مدة حياته ، وأن حبه إيمان وبغضه كفر . انظروا إلى هذا الملقب بجار الله العلّامة كيف أعمى الله بصيرته بغشاوة حمية التعصب في مثل هذا المقام حتى أتى بمثل هذا المنكر والزور . بلى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[1] . انتهى كلامه رفع في الخلد مقامه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



(١) سورة الحج : الآية ٤٦ .

المحتويات

صف حروف وتركيب وإخراج فني
في الدار الإسلامية
تلفون : ٨١٦٦٢٧ ـ الحسن ستتر